I declare that HUMAN NATURE IN AL-QURAN is my own work and that all the sources that I have used or quoted have been indicated and acknowledged by means of completed references .

Arwa Tariq Al-Tal

FEATURES OF HUMAN NATURE IN AL-QURAN
ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم

by

إعداد

ARWA TARIQ ALI AL-TAL

أروى طارق التل

Submitted in fulfillment of the requirements for the degree of
MASTER OF ARTS
In the subject
ARABIC
at the
UNIVRSITY OF SOUTH AFRICA

بحث مقدم من أجل استكمال متطلبات الحصول على شهادة الماجستير
في الآداب – قسم اللغة العربية
في
جامعة جنوب افريقيا

SUPERVISOR : PROF Y DADOO
JOINT SUPER VISOR : Dr A NAWFAL
SEPTEMBER 2004

إشراف البروفيسور يوسف دادو

مشرف مشارك : الدكتور أحمد نوفل

سبتمبر – أيلول 2004

شكر

إلى الذين أحبوني فشجعوني وآزروني في إتمام هذا الطموح .. الطموح الصاعد نحو العلم بالعلم.

إلى زوجي الذي آمن بقدراتي منذ أول لحظة التقينا وما فتئ يوماً يقدم لي الدعم حتى أنجز هذه الدراسة واكثر منها ...

ووالديّ .. اللذان بذرا حب العلم في نفسي منذ الطفولة ..

وأخوتي .. الذين يضحكون من أمومتي المتطلعة نحو العلم .. فأضحك معهم .

حتّى أولادي الصّغار.. ساره وعاصم ومحمد و زيد .. الذين ملُّوا من دراستي وتوعَّدوني من أن أحاول أن أكمل دراساتي بعد هذه .. ولكنهم صبروا .

وإلى أستاذي الذي كان دائماً سنداً ودعماً لي .

شكرٌ موفورٌ بالحب الجميل .

إهداء

إلى كل من أحب هذا الدّين.. وأحب علومه .. إلى كل من لامس هذا القرآن شغاف قلبه .. وحنايا وجدانه .. فعكف على دراسته وتدبر آياته .. يبتغي وجه الله وحده .. لا وجه أحد سواه ..

أهدي هذا البحث

لنستكمل سوية مشوار الطّريق..

مشوار إحياء علوم هذا الدّين.

أروى طارق التل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ... النبي الأمي الذي قد أنزل إليه هذا الدين فاكتملت به وبعهده وبمن حوله قصة الإنسان ، وتُوِّجت هذه القصة بالقرآن دستور الإنسان .. ومنبع المعرفة وأساس العلوم ، فاكتملت القصة .. واكتملت الرؤية نصوصاً قرآنية تتلى تُدون الحقيقة وتاريخ مجموعة إنسانية يقودها نبي القرآن عاشت نُبلَ الإنسان وهفوة الإنسان ، فتداركها خالق الإنسان في كل واقعة بنص ينير لها الطريق ، ويُثبْت الحقيقة.

لأجل هذا الدين الذي أؤمن به .. ولأجل الحقيقة المنبثة في كتابه القرآن العظيم .. ولأجل الإنسان الذي يجتهد في البحث عن ذاته .. سعيتُ جاهدة في هذه الدراسة للبحث عن رؤية القرآن للإنسان .. وهل هناك أمثال هذه الرؤية .. أين .. وكيف ؟! وماذا يقول القرآن عن طبيعة الإنسان بعد أن قال الكثيرون من علماء الشرق والغرب ؟! وهل هناك ما يقوله القرآن لتحديد ملامح الطبيعة الإنسانية أو التأصيل لما يمكن أن نطلق عليه علم الإنسان الإسلامي ؟! وهل هناك منظومة متراصة فعلاً جديرة بالاكتشاف وضعها خالق

الإنسان للإنسان ؟! أم أن المسألة في القرآن لا تتعدى أحكام وتشريعات وحقوق وواجبات ؟!

ولم أكن في بحثي هذا مهتمة فعلاً بما قاله أهل هذا العصر عن الإنسان أو من سبقوهم وأن كنت لابد احترم آرائهم ورؤيتهم .. فهم بلا شك قد اجتهدوا فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ وبيَّنت في الفصل الأول من هذه الدراسة موجزاً بسيطاً لعدة مدارس .. ولم يكن هدفي نقدهم فإن دراسة الإنسان في حدود علماء الشرق والغرب ورؤية الإنسان لنفسه ليست هي هدف هذه الرسالة وإنما هدفها محاولة لتلمس الرؤية القرآنية للإنسان بدون أي مؤثر من أي رؤى خارجة عن هذا الإطار .. ولكنني وجدت خلال البحث أن علماء الشرق والغرب على ذكاءهم وفطنتهم ودراساتهم وعلومهم كانوا دائماً ينظرون للإنسان نظرة مجزأة وضمن مؤثرات خارجية عليهم من واقع الحال السياسي أو الاجتماعي ، فجاء الفصل الأول موجزاً لتلك النظرة حتى لا يستفيض البحث بما هو ليس هدفه وكان ضرورياً في ذات الوقت من إلقاء ولو بعض الضوء على هذه الرؤية الإنسانية بتاريخها الطويل الأمد للإنسان .

ثم ابتدأتْ هذه الدراسة في البحث فيما تسعى إليه في الفصل الثاني من محاولة لتحديد ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن وكنت قد اعتمدت أساساً لهذا البحث عملية الاستقراء لكلمة (إنسان) كمفردة لغوية وتتبع مواقعها في القرآن ورصد الآيات التي تحتويها فجاءت في خمسة وستين آيه متناثرة في السور المختلفة ، فعمدت على جمعها وشرحها ضمن تقسيمات بحسب ما فيها من مواضيع وما تبثه من معاني أضف إلى محاولة لاحترام الترتيب القرآني في كل موضوع فاجمع الآيات في الموضوع الواحد وأدرسها حسب تسلسلها في القرآن .

غير أنني وجدت مع كل هذا أنه حتى نفهم رؤية القرآن للإنسان كان لابد من أن نفهم أولاً أين يضع هذا الكتاب هذا الإنسان ، ما هو موقعه في هذا الوجود ؟ وما هو دوره ، وهل له دور أصلاً أو مهمة ؟ هل الإنسان هذا ذو مكانة سائدة أم أنه مَسُودٌ عليه

؟ ولذلك كان لابد من نظرة إلى أول سورة في القرآن والتي حددت في الآيات الأربعين الأولى مكانة الإنسان الوجودية عندما أعلن خالق الإنسان على الملأ الأعلى من ملائكته أن سيُخلق في هذا الكون أو على هذه الأرض خليفة .. وهذا ما حاول الفصل الثاني من هذه الدراسة استيعابه في كل ما تم مناقشته حول موضوع خلافة الإنسان في الأرض ومؤهلات هذه الخلافة من العلم إلى الفطرة وشرح للآيات بتفصيل أحياناً وبالإجمال أحياناً أُخر ..

ومن الجدير بالذكر هنا أن أهم الآيات التي تمت مناقشتها في بداية هذا الفصل والتي تتحدث عن مكانة الإنسان الوجودية لم تحتوي على مفردة (الإنسان) كما التزمت بذلك هذه الدّراسة. ولكن كان لابد من ذكرها لأنها تحتوي على ما هو أهم من ذلك وهي مكانة الإنسان الوجودية ودوره ومهمته والتي من خلالها تتضح الرؤية القرآنية للإنسان ، وأن كلٌ من موضوعي العلم والفطرة الذين أُدراجا كمؤهلين أساسيين من مؤهلات الخلافة كانا البداية التي تضمنت دراسة الآيات القرآنية التي تحتوي على مفردة الإنسان .

وكانت النقلة في الفصل الثالث للحديث عن خلق الإنسان والثنائية التي تمتع بها في خلقه ، فميزته عن غيره من المخلوقات كافة ، وجعلته أهلاً للتفضيل وأهلاً للخلافة ، هذه الثنائية بين قبضة الطين ونفخة الروح هي ذاتها الثنائية التي أنكرها الكثيرون ممن درسوا الإنسان ، فأخفقوا لاجل ذلك في تحديد الطبيعة الإنسانية أو نجحوا في جانب وأخفقوا في آخر لآن رؤيتهم أصلاً كانت مبتوره .

أما القرآن العظيم فقد بين هذه الثنائية التي بسببها ساد الإنسان الأرض وسُلّم مفاتيح الحكم فيها .. ولعل الآيات القرآنية التي تحدثت عن أطوار خلق الإنسان كانت تُشكل تحدياً للباحث لما فيها من دقةٍ وإحكامٍ في تعبيراتها ومعانيها ومراميها فإذا كان الفارق بين قوله تعالى بين الكلمة والأخرى أو الآية والتي تماثلها يكمن في حرف (فـ) أو في حرف (ثم) إذا كان هذا الفارق البسيط يعني فارق مهول في المدة التاريخية بين

أطوار الخلق ونقل الإنسان من مرحلة البشرية إلى الإنسانية أو من حالة قبضة الطين إلى حالة الإنسان المُرقى بنفخة الروح ، فيمكن لنا أن نتصور الجهد الذي يجب أن يُبذل لدراسة أمثال هذه الآيات فلا بد أن يكون أضعاف أضعاف ما قامت به هذه الدراسة من جهد ، ولذلك لم يكن سهلاً تغطية كافة المواضيع بكل شموليتها .. فكل موضوع هو بحد ذاته دراسة خاصة ابتداءً من موضوع أطوار الخلق ، وبداية الطين والقدوم أصلاً من العدم مروراً بمرحلة النطفة الأمشاج وما بين البشرية والإنسانية من فرق مع احتمالات وافتراضات يُعلّق أمرها على مزيد من البحث والاكتشاف العلمي ، انتهاءً بنفخة الروح وما لها من بُعد ليكون الإنسان كما وصفه تعالى في أحسن تقويم ، تقويم الجسد والروح والنفس بما يؤهله لحمل أمانة التكليف التي عجزت السموات والأرض عن حملها ، أضف إلى ما جدَّ من تفسيرات حديثة تختص بتفسير هذه الأمانة كان لابد من ذكرها .

وفي هذا التسلسل الهرمي الذي يبدأ بمكانة الإنسان لينتهي بأدق تفاصيل طبائعه وخصائصه التي أنتهى الفصل الرابع بالحديث عنها بعد أن أبتدأ بالحديث عن الإنسان في دائرة صراعه مع القوى الداخلية التي فيه من قوة النفس الأمارة بالسوء إلى اللوامة إلى المطمئنة ، أضف إلى صراعه أو تعريفه بعدوه الأزلي الشيطان المريد الذي توعده من لحظة وجوده إلى منتهاه ، ومن هنا كان تعريف القرآن للإنسان على نفسه وعلى تجاذب هذه القوى له وعلى غرائزه خير معين له لإدراك طبيعة حياته وطبيعته فيها من الكدح والكبد والسعي ووضعه أمام ضعفه ليستند بهذا التعريف إلى الحقيقة فتُقَوّي شوكته وينتبه إلى الغاية التي خلق لأجلها ، والخالق الذي عليه الالتزام بمنهجه ، وعلاقة حياته الدنيا بالآخرة فهي موصولة من لحظة خلقه مروراً بهدفه فيها وانتهاءً بمسؤولياته التي عليه أن يواجهها لحظة اللقاء الآخروي بعيداً عما يريد هو أو يظنه هو الأجدى و الأنفع له ، فترسم في الآيات القرآنية الصورة واضحة جلية له ، أن سعيه لا بد أن يكون منضبطاً بالضوابط والكوابح الربانية لان مركزه الوجودي هذا لم يؤتيه عبثاً ولا سدى .. وإن عليه أن لا يبني حياته على الأهواء .. ومن هنا كان الابتلاء هو سُنة جوهرية عليه

أن يستوعبها و يترشد بسيره بها ، ولأجل ذلك جاءت الآيات تلو الآيات المختصة بمفردة الإنسان تؤكد على الجزاء الآخروي وعلى الوجود الآخروي بكل وسيلة وطريقة كان آخرها الوصية من قبل خالقه بوالديه وكان أرعاها تلك النداءات المحببة التي تمتلأ حنواً وشفقة بالإنسان والتي بها اختتمتُ هذا الفصل ، في رسالة مكتظة بالمعاني والأسس التعريفية التوجيهية للإنسان ، شرحت فيها الآيات القرآنية مفصلة تارة ومجملة تارة أخرى وأحياناً تأتي الآية الواحدة أو مجموعة منها مكررة بشرحها ، كما أستند إليها في أكثر من موضوع لما في هذه المواضيع من التداخل والتشابك وهنا كانت تكمن صعوبة هذا البحث ، كما واجهتني صعوبة أخرى وهي تلك الاحتمالات العلمية التي كان لا بد من ذكرها وشرحها والتي أبقيت فيها كل احتمال علمي فيها مفتوح على مصراعيه، أولاً : لان الآيات القرآنية دقيقة التركيب وتخفي في طياتها الكثير من المعاني ولا يمكن الوقوف عليها في هذه الدراسة فكل موضوع هو دراسة بحد ذاته لو أردنا التوسع فيه، وثانياً : لأن هذه الاحتمالات العلمية والاقتراحات التفسيرية لم تتثبت بعد بالدراسات والتجارب ولم تمحص خير تمحيص ولا زال الباب مفتوحاً لكثير من الإضافات .

ولكن كان لابد من محاولة لاستخراج هذه المنظومة المتراصة التي يزخر بها القرآن العظيم وإلقاء الضوء على رؤية الدين فيه بدلاً من إقصاء التعاليم السماوية جانباً بإقصاء الوحي ونصوصه في أهم علم يحتاج إليه الإنسان ، علم هذا الإنسان عن ذاته ، فيظلم بذلك نفسه لأنه منعها حتى من محاولة البحث عن طريق معرفي آخر قد يجديه نفعاً ويغنيه ، انتصاراً لطرقه الخاصة به وحده .

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الطبيعة الإنسانية : نظرة سريعة في اتجاهين .

الإنسان الذي أجهد نفسه بالبحث في ذاته عن ذاته ليرضي ذاته .. باء بالفشل ..

عله كان على مر التّاريخ.. فشلاً ذريعاً .. لما جزأ أو قطع قواه وإمكانياته إرباً إربا .. فما عادت تشكل إنسانيته .. بل غدت كل قوة منها تعبر عن حيوانيته أو وحشيته .. وليس أشد وحشية من أن تُقَطّع مكوناتك التي بين يديك قطعاً صغيرة متناثرة ثم تبدأ بتزيين إحداها على أنها كُلك المتكامل .

نظرة في اتجاهين : نحو الغرب تارة .. ونحو الشرق تارة أخرى لبيان نظرة هذا الغرب وهذا الشرق لحقيقة الإنسان ولإمكانية توظيف طاقاته لخدمته واستقراره ، ثم تتتابع الفصول الدراسية بالنظرة الشاملة للغرب والشرق والشمال والجنوب ومكانة الإنسان في وسط هذه الاتجاهات التي سُخر له محيطها الكوني لخلافته فيها .

تشتت الإنسان منذ قرون طويلة تحت مطارق المذاهب الفلسفية وأراء العلماء بحثاً عن كينونته الحقيقية ، وتجاذبته قوى مختلفة مُدّعية العمل لمعرفة حقيقته ومن ثم التوصل

إلى أسهل الطرق لإسعاده وإعاشته ضمن منظومة تتفق مع ذاته وتؤهله لأداء دوره الإنتاجي بعد إستقراره الداخلي وقدرته على التواصل مع الآخر ، ومع المحيط الخارجي ، وتباينت الآراء وكثرت الفرق وتعددت المدارس .

" ففي الوقت الذي يقول فيه روسو " أن الإنسان خيرٌ بالطبع " ، يقول هوبز " أن الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان وعلى عكس ما نادت بها المسيحية المثالية بقتل الجانب الحيواني في الإنسان لأنه مخلوق بهيمي تعميه شهواته وتضله نزواته ولا خلاص له إلا بقتل هذا الجانب ليتطهر من آثامه ، ادعت المادية أن الإنسان جزء من الطبيعة يخضع لما تخضع له من قوانين وأسس فهو جزء منها وليس منفصلاً عنها وسلوكه مقنن محدد ويمكن أن يدرس ويلاحظ ويجرب شأنه شأن غيره من ظواهر الطبيعة " .[1]

ولو حاولنا أن نقتطع جزءا يسيراً من بعض هذه الفلسفات والمذاهب بالشرح المقتضب لوجدنا ولمسنا هذا التناقض .

مدرسة التحليل النفسي :

نظرت مدرسة التحليل النفسي من بين مدارس علم النفس والتي يتزعمها فرويد إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان حين نظرت إلى الغريزة الجنسية على إنها المُواجِه لما عداها من الغرائز ، وعلى أنها وحدها المُفَسَّر للسلوك الإنساني كله ولم تقم مدرسة من تلك المدارس لتنظر إلى الإنسان نظرة روحية سامية تضعه مخلوقاً ذات رسالة تعميرية حضارية " [1] فقد ركز فرويد كما عمدت أغلب مدارس علم النفس والمذاهب المختلفة على جانب واحد في الطبيعة الإنسانية وجعلها الأساس الذي بنى عليها نظرته للإنسان ، فكانت الطاقة الحيوية والتي أسماها الليبدو (Libido) والتي تتمثل في الجانب الجنسي والجانب العدواني هما أهم المحركات للنفس الإنسانية .

" فنشاط الإنسان منذ الميلاد ، رضاعة – تبول – تبرز – اقتراب من الأم – وضع أشياء في الفم ... الخ حتى الوفاة يتم تفسيرها في ضوء الجنس والعدوان ، وهذا أمر غريب لا يمكن لعاقل قبوله وإلاّ لحولنا الإنسان إلى وحش كاسر "،[2] " كما أنه سلط الأضواء بشكل مسرف على منطقة اللاشعور ، وضّخم من دوره في حياة الفرد لدرجة تتناقض معه أهمية

(1) التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية ، تأليف الدكتور محروس سيد مرسي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى سنة 1988م ، ص7 .
(1) نحو فلسفة عربية للتربية ، د.عبد الغني عبود ، د. عبد الغني النوري / بتصرف ص 182-183 .
(2) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د.نبيل السمالوطي ، دار الشرق الطبعة الثانية سنة 1984 ، ص48-49 .
(3) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د. نبيل السمالوطي دار الشرق الطبعة الثانية سنة 1984 ، ص 48-49 .

الـوعي والـشعور إلـى درجـة العـشر ، وهـذا يعنـي أنـه أوقـع الإنـسان أسـير لغريزتـي الجـنس والعـدوان والدوافع اللاشعورية ، وهو بهذا أفقد الإنسان القدرة على تسيير أمـوره بـشكل واعٍ ، كمـا أنـه جعل الـضوابط الإجتماعيـة مـن معتقدات دينيـة وقـيم أخلاقيـة وآداب اجتماعيـة أمـوراً تتناقض مع الطبيعة الأساسية للإنسان ، تلك الطبيعة الفطرية الحيوانية " .[3]

المثالية اليونانية :

أما نظرة المثالية اليونانية للطبيعة الإنسانية ممثلة بأرسطو وأفلاطـون فقد اختلفت مـن حيث رؤيتها للإنسان علـى أنـه خيّرٌ بـالطبع ، مركـب التكـوين ، وهـو مخلـوق اجتمـاعي يمتلـك حريته الفردية ، إلا أن هذه الحرية كانت محـدودة بحسب تقسيمهم للمجتمـع إلـى طبقـات ممثلـة فـي طبقـة النـبلاء والأشـراف أولاً ، ثـم بطبقـة الحـراس المـدافعين تلـيهم الطبقـة التـي لا تمتلـك حريتها وتمارس الأعمـال اليدويـة وتعمـل فـي البُنيـة التحتيـة لخدمـة الطبقـات الأولـى وهـي كمـا أطلقوا عليها طبقة العبيد .

ومن هنا كانت المفارقات في النظرة للطبيعـة الإنـسانية ، فلـيس كـل إنـسان مُكَرَّم بحكـم إنسانيته ، ولكنه مُكَرَّم بحســب بيئته التي يعيش في وسطها ، وما يرثه من ألقاب من تلك البيئة ، ولا يمكن للعبد أن يرتقـي إلـى طبقـة الأشـراف كمـا لا يمكـن للنـبلاء إن ينحـدروا إلـى مـستوى العبيد .

ولعل هذا التعاطي مع الطبيعة الإنسانية على مستوى التنظير وعلـى مـستوى الفعـل فـي المجتمع كان قائماً من طبيعة تنشئة المفكر نفسه ، وتركيبته الاجتماعيـة التـي أثـرت فـي فلـسفته ومذهبه إلى أقصى حد .

الفلسفة المسيحية :

وقد رفضت الفلسفة المسيحية هذه النظرة الأرستقراطية المتبدية في الفلسفة الإغريقية إلا أنها في الوقت نفسه غالت في تقديس الجانب الروحي في الإنسان على الجوانب الأخرى ، ودعت إلى حياة التقشف المطلق مما أدى إلى تقطيع كافة الروابط الإجتماعية والانعزال التام عن الدور الإنتاجي في المجالات المختلفة ، "فقد امتازت الحياة الفكرية في الجزء الأول من العصور الوسطى بميزة واضحة ، هي خضوع الإنسان خضوعا مطلقاً لسلطان الكنيسة والتسليم بكل ما تقرره من معتقدات دون أي اعتراض أو نقد " .[1]

الفلسفة الطبيعية :

كان لإلغاء دور العقل في الفلسفة المسيحية وإخضاعه لسلطان الكنيسة من خلال إعلاء شأن الروح ونشر الهرطقات اللاهوتية والتي تتنافى وأبسط الاحتياجات الإنسانية الواقعية أن ظهرت الفلسفة الطبيعية في أوائل القرن الثامن عشر كردة فعل على هذه الفلسفة المثالية .

ومثّلت هذه الحركة المظهر العقلي في جانب من جوانبها في رؤية وتحليل الطبيعة الإنسانية وعملت على مقاومة الرؤية الدينية والممثلة في سلطان الكنيسة على كيفية ممارسة الحياة الإنسانية والتي أدت إلى الجمود في العلم والفكر على السواء .

إلا أن أنصار هذه الحركة من أمثال فولتير وغيره لم يتحرروا من تأثير بيئاتهم ومجتمعاتهم الأرستقراطية على تفكيرهم كما فعل أقرانهم من قبل كأمثال أرسطو وأفلاطون فهم وأن كانوا يرون أنه لابد للعقل من أن يقوم بدوره الفاعل في المجتمع ، إلا أن هذا العقل لا يليق أن يحكم الطبقات الدنيا من المجتمع، لأنها طبقات أرقى قليلاً من طبقة حيوانات الغاب التي لا يؤثر فيها بزعمهم العلم أو التعلم ، وأن الحكم بمنطق العقل والسعي وراء العلم المنطقي لابد وأن ينداح في أوساط المثقفين الشرفاء ومن بأيديهم مقاليد الأمور وذمة الحكم .

غير أن المظهر العقلي لم يكن هو الجانب الأوحد في الفلسفة الطبيعية ، فعلى عكس فولتير تماماً كانت آراء روسو زعيم هذه الحركة والذي رأى أن العقل هو سبب الويلات حيث

---

(1) التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية ، ص37 .

يقول " أن الإنسان الذي يفكر إنما هو حيوان قد فسد مزاجه " مدعياً أن العقل هو السبب في التقدم العلمي الذي أدى إلى فساد الحياة الطبيعية أو الحياة البرية للإنسان ، داعياً إلى الحرية المطلقة والتي لا يحدها حد في أي مجال من المجالات وهو يرى أن الحرية من كل قيد خير ألف مرة من ذُلٍّ تجرُهُ قيود الأنظمة والمدنية .

وقد أثَّرت هذه الفلسفة في رؤيتها لكيفية إدارة الشأن الإنساني في المجتمع على كثير من السياسيين حيث اعتبرها نابليون ملهمة الثورة الفرنسية وكان ينادي بتتويج روسو كزعيم روحي للثورة الفرنسية ، في حين اعتبره آخرون " إنساناً سارقاً لم يأت بجديد ، وإن كتاباته هي أشبه شئ بالكتاب المرقع الذي بذ في ترقيعه ، والذي جمع في صورته بين رأس إنسان وجسم من وحوش البحار " . [1]

المذهب الماركسي :

وعلى عكس الفلسفات السابقة والمذاهب المختلفة ظهرت الفلسفة الماركسية والتي كان يرى مؤسسها كارل ماركس (1818-1883م) أنه قد حان الوقت لتفسير الأحداث والوقائع عن اجتماع الإنسان بالإنسان عن طريق التفسير العلمي الموضوعي الذي لا يرتبط بالغيبيات اللاهوتية ، وقد تأثر كارل ماركس والحاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة بشكل سلبي بأراء هيجل ومناصروه – الذين ينادون بإعلاء الجانب اللامادي في الإنسان في المثالية الحديثة – وتشكلت لاجل ذلك عنده أراء متطرفة تتناقض مع الرؤية الدينية للطبيعة الإنسانية ، فهو يرى أن الإنسان مادة ، وما دامت المادة في حركة وتغير دائمين فإن السمة الجوهرية للطبيعة الإنسانية هي العمل الذي يخلق الإنتاج ، وهكذا فقد أعلى ماركس من شأن المادة وجعلها الأصل الذي تدور في فلكه الحياة وأنكر الروح ، وهو بذلك ألغى ثنائية الطبيعة الإنسانية ، واعتبر أن الإيمان بالغيبيات ما هو إلا توجه العاجز إلى المجهول .

---

(1) التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية ص61 .

وعلى هذا فقد نادى بالمجتمع الجمعي الذي لا يؤمن بفردية الإنسان وذاتيته الخاصة وحقه في التملك ، فما هو أي الفرد إلا " ترس في آلة إنتاج بشرية كبيرة ولا يمكن لهذا الترس أن يعمل إلا إذا كان عمله هذا منسجماً مع وظيفة الآلة ومع عمل التروس الأخروي وإلا لفسدت الآلة وتعطل الإنتاج وتوقف التطور " . (1)

وإذا كانت الماركسية لا تقول بالخطيئة التي تقول بها الفلسفة المثالية لأنها أصلاً تنكر الدين ، وإنما يتحدد خيرية السلوك الإنساني فيها أو عدمه بكمية الإنتاج ونوعيته إلا أنها ترى في ذات الوقت أن الإنسانُ مسيرٌ لا مخير ، عليه العمل في نطاق مجتمعه دون إرادة منه أو اختيار أو حتى اعتراض .

فمن هنا كان للسلطات الماركسية نفس السطوة الإرهابية التي حاربتها هي ذاتها في فلسفة الكنيسة في تعاملها مع الإنسان ، ولا يمكن أن نجد فارقاً حكيماً يُعلي من شأن هذه الفلسفة أو ذاك المذهب على سابقه ما دامت منطلقاتها جميعاً لا تتسم بالسوية والإعتدال .

لا شك أن الدارس لأي من تواريخ نشوء هذه الفلسفات وتقييمها للإنسان يرى أن كل فلسفة أو مذهب قامت على نسبة عالية من ردة الفعل لمفكريها سواء على الصعيد الأسري والبيئي المحيط بها أو على الصعيد المجتمعي والأحداث السياسية في ذلك الوقت ، ولعل الاضطهاد الذي عانته أسرة كارل ماركس اليهودية الأصل في ألمانيا كان له أثره في توجهاته المتطرفة .

كما أن الثورات في ذلك العهد على الكنيسة ومحاولة التخلص من سلطاتها الإرهابية أدت إلى حالة نشوء العلوم الإنسانية والاجتماعية في الغرب في القرن التاسع عشر على قاعدة الانقطاع بين الدين والعلم .

الإنسان المادي المُجزأ :

---

(1) المرجع السابق – ص75 .

هكذا تأسست هذه العلوم على أساس تجريبي حسي ملموس على غرار العلوم الأخرى كالعلوم البيولوجية والفيزيائية وغيرها " مما عزز أراء نقدية كثيرة في أوروبا بدأت تبحث عن جدوى خدمة تلك العلوم الإنسانية للإنسان ، وفي مدى قدرتها على معالجة مشكلاته النفسية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية حتى كاد تاريخ تلك العلوم أن يكون سلسلة متعاقبة من النظريات والانتقادات تنسب كل واحدة منها إلى نفسها معرفة الحقيقة الإنسانية أو الإجتماعية دون سواها " . [1]

" ولم يسلم فرويد صاحب المدرسة التحليلية المعروفة من النقد ومن الشك والبحث أصلاً في أثر الفكر التلمودي على فكره التحليلي وفي مدى تأثر كل حركة التحليل النفسي وأنشقاقاتها بالولاءات والمشاعر اليهودية التي كانت حادة في أوروبا منذ منتصف القرن الماضي ". [2]

فتجزئة الإنسان والنظر إليه من زاوية واحدة والتركيز على عامل واحد فيه واعتباره الكل الإنساني في طبيعته والمحرك الأساسي لنشاطاته المختلفة أدى إلى نشوء أمثال هذه الرؤى المتنوعة للإنسان وهي ما يمكن أن نطلق عليه الحتميات ، كالحتمية الجنسية " فرويد " والحتمية الاقتصادية " ماركس " والحتمية الجغرافية " أنصار الجيوبوليطيقيا " والحتمية النفسية والحتمية الاجتماعية " [1] ، وعلى أهميتها جميعاً في رؤيتها للإنسان وأدراك كثير من الجوانب فيه ودراستها وتحليلها إذا ما أضيف بعضها إلى بعض إلا أنها لم تستطع أن تحدد ملامح الطبيعة الإنسانية ككل والتعامل مع هذه الطبيعة ككينونة مُوَحِدةً لأفعال الإنسان مُسَيرةً لطاقاته مُوَجِهةً لرؤاه بسبب من رفضها للرأي الآخر ونقدها له بحدة وإيمانها بوجهتها الأحادية التحليل .

" إن افتقار المنظور الشمولي وغياب العلة الأساسية لخلق الإنسان هو الذي يفسر سبب تخبط النظريات الغربية حول الإنسان والمجتمع والتاريخ وهو الذي أوقع الكثير من

(1) في التربية وعلم النفس ، اختلاف المفاهيم ، المؤلف طلال العتريسي مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، الطبعة الأولى ، بيروت أيلول 1994 ، ص7 .
(2) في التربية وعلم النفس ، اختلاف المفاهيم ، المؤلف طلال العتريسي ص9 .
(1) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د.نبيل السمالوطي ص 50 .

مدارس الفكر الاجتماعي في الغرب أسرى للحتميات والنظريات أحادية التفسير والاتجاه ومن هنا ظهرت المدرسة الجنسية والمدرسة الاقتصادية والمدرسة الجغرافية " . (2)

وعلى الرغم من أن هذه المدارس قد أسهمت بما لا يدع مجالاً للشك في فهمنا للإنسان من أوجه مختلفة ، إلا أنها بقيت تعبر عن الجزء لا الكل ، مما أثمر في اتساع الهوة في فهم الحقائق الكاملة الواضحة ، حيث أن " أنصار هذه النظريات الحتمية لا يكتفون بعرض آرائهم بشكل نظري فحسب ، ولكنهم يُرَكِّبون على نظرياتهم الجزئية الخاطئة خطط علمية يجري تنفيذها في مجتمعات الغرب والشرق في مختلف المجالات التربوية والمهنية والإعلامية والصناعية ... الخ ، الأمر الذي ينتهي بنا كما أشار كاريل بحق إلى تدمير الإنسان بسبب جهلنا الكامل بحقيقة هذا الإنسان " . (1)

بل لقد تعاملنا منذ زمن بعيد وحتى عصرنا هذا مع الإنسان كمادة ينطبق عليه ما ينطبق على المادة الصماء ، ففي الفلسفة المادية نجد أنه في مقابل الإنسان والإنسانية نضع الطبيعة / المادة ، ومفهوم الطبيعة مفهوم أساسي في الفلسفات المادية التي تدور في إطار المرجعية الكامنة ، خصوصاً في الغرب ، وهو تعبير مهذب يحل محل كلمة المادة " (2).

" وكلمة المادة قد تبدو لأول وهلة وكأنها كلمة واضحة، ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . فالشيء المادي هو الشيء الذي كل صفاته مادية : حجمه ، كثافته ، كتلته لونه سرعته ، صلابته ، كمية الشحنة الكهربائية التي يحملها ، سرعة دورانه ، درجة حرارته مكان الجسم في الزمان والمكان ... الخ .

فالصفات المادية هي التي يتعامل معها علم الطبيعة (الفيزياء) ، فالمادة ليس لها أي سمة من سمات العقل ، الغاية ، الوعي ، القصد ، الرغبة ، الأغراض والأهداف الاتجاه ، الذكاء ، الإرادة ، المحاولة ، الإدراك ... الخ " . (3)

"والفلسفة المادية ترى أسبقية المادة على الإنسان وكل نشاطاته ولكن هناك جانباً

---

(2) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د.نبيل السمالوطي ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، 1984 م ، ص61.
(1) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د.نبيل السمالوطي ، دار الشروق ، ص51-52 .
(2) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، د.عبد الوهاب المسيري ، دار الفكر المعاصر ، الطبعة الأولى نيسان (أبريل2002م) ، ص15 .
(3) المرجع السابق ص17 .

آخر للطبيعة البشرية متجاوزاً للطبيعة / المادة وغير خاضع لقوانينها ومقصوراً على عالم الإنسان ومرتبطاً بإنسانيته ، وهو يعبر عن نفسه من خلال مظاهر عديدة من بينها نشاط الإنسان الحضاري (الاجتماع الإنساني ، الحس الخلقي ،الحس الجمالي ، الحس الديني) ومن المظاهر الأخرى لهذا الجانب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يسمى العلل الأولى ، وهو لا يكتفي أبداً بما هو كائن وبما هو معطى ولا يرضى بسطح الأشياء ، فهو دائب النظر والتدبر والبحث ، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكافية ، وهو الكائن الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون ، وكلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري ولذا سمي الإنسان الحيوان الميتافيزيقي".[(1)]

" ولذا فزمن الإنسان هو زمن العقل والإبداع والتغيير والمأساة والملهاة والسقوط ، وهو المجال الذي يرتكب فيه الإنسان الخطيئة والذنوب ، وهو أيضاً المجال الذي يمكنه فيه التوبة والعودة ، وهو المجال الذي يعبِّر فيه عن نبله وخساسته وبهيميته فالزمان الإنساني ليس مثل الزمان الحيواني الخاضع لدورات الطبيعة الرتيبة ، فهو زمان التكرار والدوائر التي لا تنتهي (والعود الأبدي) " . [(2)]

" فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله في بُعد من أبعاده أو في وظيفة من وظائفه البيولوجية أو حتى في كل هذه الوظائف .

ولا توجد أعضاء تشريحيه أو غدد أو أحماض أمينية تُشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي في وجود الإنسان وسلوكه ، لهذا فهو يشكل ثغرة معرفية كبرى في النسق الطبيعي / المادي ، فهو ليس جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة ، و إنما هو جزء يتجزأ منها ، يوجد فيها ، ويعيش عليها ، ويتصل بها ، وينفصل عنها . قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات ، ولكنه لا يُردُّ في كليته إليها بأية حال ، فهو دائماً قادر على تجاوزها ، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات ، وهو لهذا كله لا يمكن رصده من خلال النماذج المستمدة من العلوم الطبيعية " . [(1)]

---

(1) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، مرجع سابق ص12 .
(2) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، مرجع سابق ص 13 .
(1) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، د.عبد الوهاب المسيري ، دار الفكر المعاصر ، دمشق سورية ص13 .

وهذا المفهوم عجزت الفلسفات المادية القديمة منها والحديثة على تفسيره لرفضها القاطع لكل ما هو غيبي ، وليس " للمادة من مبرر لرفض التفسير الديني إلا أن هذا التفسير قائم على أساس غيبي ، على الإيمان بإله خالق ليس بمادي " . (2)

" صحيح أن التفسير الديني يقوم على أساس غيبي ، لكن لماذا تَنَّكروا للغيبية ، وهو أنفسهم مُرْتَكِسون في الغيبية في كثير من مقولاتهم ، فالمادية الآلية تؤمن بالصدفة التي أحدثت الخلل الأول والحركة الأولى في المادة الراكدة الساكنة ذات القصور الذاتي وتعتبرها الإله القادر الخالق لكل شئ ، والمادية الجدلية تؤمن بالتناقض الذي تحتويه باطن المادة ، وهو المحرك الذاتي لها ، وهو الإله الخالق لكل المظاهر الكونية المتنوعة .

أليس كل منهما فكرة غيبية يعبر عنها كل من المذهبين المذكورين بطريقته الخاصة " . (1)

" لكن المادية أساءت فهم الغيبية هذه ، رغم أن المادية تمسك بتلابيبها في أكثر من مقولة ، ذلك لأن العلم (القائم على التجربة والمشاهدة الحسية) الذي تعتمده المادية ، يقتصر نشاط بحثه على مظاهر الأشياء الأولية الخارجية ، ولا يتعدى إلى مجال تعيين حقائقها تعيناً حقيقياً ونهائياً ، أما حين يتخطى في نشاطه إلى هذا الميدان فإنه سيتبع نفس طريق الإيمان بالغيب الذي تسلكه القضية الدينية ، وهو البحث عن حقائق غير معلومة بواسطة حقائق معلومة ، رغم أنها لم تقع في نطاق ملاحظاتنا . ومن أمثلة ذلك : الذرة والإلكترون اللذان لا سبيل إلى إنكارهما ، برغم أنهما لم يُشاهدا قط ، ولكنهما يعتبران من أكبر الحقائق العلمية التي كُشفت في هذا العصر ، لكن الوسيلة الوحيدة للعلم بوجودهما إنما هي بواسطة العلم بنتائجهما وأثارهما .

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى القضية الإلهية فقد توصلنا إلى الإيمان بالإله الخالق بواسطة معرفة آثاره الكونية وحكمته فيها . رغم أننا لم نشاهده ولم نلمسه بأيدينا ، ولكن تكوَّن إيماننا به من وقائع معلومة وملحوظة لدينا ، من أثاره في هذا الكون العظيم " . (2)

---

(2) عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة ، تأليف الشيخ عبد الله نعمة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر الطبعة الثالثة 1988م ص212.
(1) المرجع السابق ص212 .

" وإذا وضح فساد التفسير المادي ، فإن التفسير الديني يظل وحده قائماً دون معارض ، الذي يستطيع وحده أن يقول كلمته لتفسير المشكلة التي يقف منها المذهب المادي موقف معاناة وحرج وخجل، لا يستطيع أن يقول فيها شيئاً واضحاً لا نقص فيه".[1]

العلوم الإنسانية في الفكر الإسلامي :

وعلى ضفاف الفكر الإسلامي المغاير في نظرته للإنسان عن النظرة الغربية والتي نحاول منها أن ننطلق في هذا المشروع لتحديد ملامح الطبيعة الإنسانية من مصدر التشريع والتفكير وسن قانون الحياة الأ وهو القرآن العظيم الذي أدى لنشوء هذا الفكر الإسلامي .

نجد أن الإنسان بكليته قد أخذ دور الصدارة في الكون وساد عليه بل سُخر له هذا الكون ليسود عليه وينتفع به في إطار من الإنسجام والتوافق بعيداً عن الرفض والمحاربة والتجزئة ، بل على العكس تماماً فقد تأصلت علوم ظن كثير من العلماء الغربيين أنهم أول من استَحدثوها في هذا القرن كان أمثال العلامـــة ابن خلدون قد سبقهم إليها بقرون عديدة ، ففي الوقت الذي ظن فيه العلامة دوركايم هو وأعضاء مدرسته أنه أول من عُنِيَّ بدراسته ما يسمى اليوم بعلم " المورفولوجيا الاجتماعية " أو " علم البنية الاجتماعية " كان ابن خلدون قد عرض في مقدمته " للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الإنساني أي للنظم الذي يسير عليها التكتل الإنساني نفسه ، مبيناً في الباب الأول أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر وفي غيرها من شؤون الاجتماع " ،[1] وهذه هي الشعبة التي سماها دوركايم "المورفولوجيا الاجتماعية " سبقه إليها ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون ، وهو الذي ولد بتونس سنة 732هـ / 1332م .

---

(2) عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة ، تأليف الشيخ عبد الله نعمة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر الطبعة الثالثة 1988م ص213 – 214 .

(1) المرجع السابق ، ص212 .

(1) مقدمة ابن خلدون – اعتناء ودراسة أحمد الزعبي – شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ص 25 .

ومقصدي من التعرض لابن خلدون هنا التنويه إلى رؤية الإنسان عند مفكري المسلمين وعلمائهم أنها لم تقتصر فقط على قبضة الطين ونفخة الروح وتكوين جبلته وإنما تعدى إلى مجالات أوسع وأشمل في شؤون الاجتماع بما تحويه تلك المقدمة من معالم وأسس بيِّنة في هذا المجال .

وعلى الرغم من هذا السبق ، فأن الفكر الإسلامي لم يصل إلى حالة علمية مستقرة من التأصيل والتبويب للعلوم الإنسانية من المنطلق الاستقرائي التحليلي للوحي الإلهي المتمثل في مصدري التشريع في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولعل هذا ما استدعاني إلى محاولة لضبط المسألة في هذه الرسالة باستقراء الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإنسان بكليته بعيداً عن أي مداخلات أخرى على أهمية المدرسة الصوفية ، ومدرسة الفلسفة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي في بناء وتأسيس رؤية قيمة لمعالم الطبيعة والتركيبة الإنسانية .

الفلسفة الإسلامية :

فقد انطلقت مدرسة الفلسفة الإسلامية انطلاقة متأثرة بالفلسفة الإغريقية القديمة وإن خالفت تلك الأخيرة بثباتها منذ نشأتها تجاه إمكان المعرفة غير الحسية التي ظلت بين المد والجزر في الفلسفات الأخرى ، بل على العكس لقد انطلقت الفلسفة الإسلامية انطلاقة إيمانية بالوحي ومستهدية به في نقاشها العقلي المحض " فإن كبار الفلاسفة المسلمين قد خاضوا غمار الأفكار الأجنبية بين يونانية وهندية وفارسية وعرضوا لكل مشكلة من مشاكل العقل والإيمان وتكلموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس وخرجوا من سبحاتهم الطويلة في هذه المعالم والمجاهل فلاسفة مسلمين دون أن يعنتوا أذهانهم في التخريج والتأويل ....

وأكبر الفلاسفة المسلمين الذين استوعبوا مسائل الفلسفة فيما وراء الطبيعة هم في الرأي الغالب بين مؤرخي الثقافة الإسلامية أبو نصر الفارابي وأبو على بن سينا في المشرق

وأبو الوليد ابن رشد في المغرب ، وكلهم قد اطلع على قسط وافر من فلسفة الحكيمين أفلاطون وأرسطو وطائفة من أراء الحكماء الآخرين ....

والفارابي هو أول الفلاسفة المسلمين الذي تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة ....فقرأ له وانتفع بما قرأ في فهم مضامين الفلسفة اليونانية ، وكان " المعلم الثاني " معلماً كاملاً له في معضلات الفلسفة الإلهية بجملتها ، لأنه أضاف مسائل الحكمة الدينية إلى مسائل الحكمة المنطقية وأدخل مسألة التوفيق بين العقل والوحي في حسابه ، وقد كانت من المسائل الحديثة في الإسلام فلم يبل فيها أحد بلاء الفارابي ولا جاوز أحد فيها مداه الذي انتهى إليه وإن تبعه في هذا المجال كثيرون ... ومن توفيقاته أنه سمى العقل الفعال بالروح الأمين ، وسمى العقول بالملائكة وسمى الأفلاك التي فيها العقول بالملأ الأعلى ، وقال أن صفات الله الأزلية هي المُثل الأولى " . [(1)]

ولقد اهتم الفلاسفة المسلمين كما اهتم سابقيهم بإثبات وجود النفس وخلودها وتعريفها وبيان جوهرها بما يخدم الإنسان في معرفة كنهه وطبيعته ، فهم في إثباتهم الفلسفي لوجود الخالق عرجوا على قضية الإنسان المرتبطة به أيما ارتباط ، فابن سينا على سبيل المثال أراد في فلسفته ورؤيته للنفس أن " يثبت أن الإنسان إذا تجرد عن تفكيره في كل شئ من المحسوسات أو المعقولات حتى عن شعوره ببدنه ، فلا يمكنه أن يتجرد عن تفكيره في أنه موجود وأنه يستطيع أن يفكر " ،[(2)] فلقد " عرَّف ابن سينا النفس بأنها جوهر قائم بذاته ، لا عرض من أعراض الجسم ..... وهو أصل القوى المُدركة والمحرِّكة والمحافظة للمزاج ، هذا هو الجوهر الذي يتصرف في أجزاء البدن " . [(3)]

نعم " لقد حقق الفيلسوف الكبير أبو على ابن سينا كثيراً في النفس الإنسانية وساق براهيناً عدة لإثبات وجودها ، منها تلك المعتمدة على فحص الصور العلمية إحدى كبرى

---

(1) التفكير فريضة إسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ، الطبعة الأولى ،المؤتمر الاسلامي ص73-74 .
(2) النفس البشرية عند ابن سينا : نصوص جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها الدكتور ألبير نصري نادر ، دار المشرق الطبعة الرابعة ص15 .
(3) النفس البشرية عند ابن سينا : نصوص جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها الدكتور ألبير نصري نادر ، دار المشرق الطبعة الرابعة ص15 .

وظائف القوة اللامادية في الإنسان لبيان تجردها فعلاً عن المادة " ،[1] وعلى أهمية هذه المقولات والتحليلات والتأملات الفلسفية في مجال الإنسانية ووجودها وكيفية هذا الوجود والتركيبة الإنسانية إلا أنه " أيضاً قد يكون بالإمكان طمس الإنسانية الأصيلة في موضوع الفلسفة ، وأن لم يكن ذلك سهلاً فتاريخ الفلسفة وخاصة عندما يقترن بدراسة النصوص يفسح المجال لظهور عدد من المتعالين . وتاريخها بإلحاحه على أصله النفساني قد يحول التفكير الفلسفي إلى مجرد علم طبيعي هو علم النفس المرضي ، أو إلى علم اجتماعي للغائية التاريخية . وقد يستعمــل كأداة للدفاع والتبرير أو للدعاية . غير أنه من الصعب تدريس تاريخ الفلسفة بحيث يمكن تجنب مضاعفة وجهات النظر الفكرية المتعددة وانتشارها ، إنه من الصعب تدريس الفلسفة حسب قواعدها المنظمة دون توسيع الآفاق ودون تشجيع التنظيم الفكري للآراء ، ويكاد يكون من المحال تدريس الغيبيات دون بعث الشكوك وإثارة التأمل العميق فلا مناص له من أن " يهز العقل " حسب تعبير أملي ديكنسون .ولقد قال وليم جيمس أنه باستطاعة الفلسفة أن تتخيل كل شئ مختلفاً عما هو عليه ، أنها ترى المألوف كما لو كان غريباً ، والغريب كما لو كان مألوفاً ، أنها تستطيع أن ترفع الأمور ثم تخفضها مرة ثانية .وعقلها ملئ بريح تعصف حول كل موضوع ، إنها توقظنا من سباتنا الفطري المبني على عقائد جزمية وتحطم تحيزاتنا المجمدة " . [2]

وعلى أهمية الكثير من الرؤى الفلسفية الإسلامية وعلى افتراض هذه الغربلة في الجانب الإسلامي فيها لتتوافق مع التصورات العقائدية الدينية فإن الدخول في هذا العالم لتحديد معالم الطبيعة الإنسانية لاشك سيزيدنا تخبطاً لما يوليه علينا من توظيف محكم للعقل وإدراكاته وضرب لكل ما هو بدهي حيث أن المنهج الفلسفي بطبيعته منهج نقدي لا يترك هذه البديهات والمسلمات دون عرضها على العقل والمنطق ، في حين أن منهج التفكير الديني هو منهج إيماني يقوم على التسليم بالمعتقد بلا مناقشة ولا جدل في حين لا ينتهي جدل الفلاسفة في أية قضية إلى يوم الدين ولعله من هنا كان موقف علميين من أعلام الإسلام هما أبو حامد الغزالي وابن تيميه من محاربة الفلاسفة والمناطقة لا اعتراضاً على استخدام العقل ، فالمُتتبع لابن

(1) المعرفة والنفس و الألوهية في الفلسفة الإسلامية والمدارس الفلسفية الأخرى ، محمد رضا اللواتي ، دار الساقي ، الطبعة الأولى 1994 ص87 .
(2) إنسانية الإنسان : تأليف رالف بارتون بري ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، مؤسسة المعارف 1989م ، ص 90-91 .

تيمية يرى " أنه كان بصدد إنشاء منطق صحيح وهداية إلى تطبيق أصول المنطق القويم ولم يكن متصدياً لهدم المنطق من أساسه وعلى جميع وجوهه وفي جميع تطبيقاته فهو يستخدم قضايا المنطق ليبطل دعوى المناطقة الذين يضعون الحدود في غير مواضعها ويقيسون الأشباه والنقائض بغير قياسها ويهدرون الحقائق في سبيل المصطلحات والألفاظ بغير دراية لمعناها " . (1)

وكذا الغزالي الذي اشتهر بردوده على الفلاسفة في كتبه بعد اضطلاعه على مناهجهم ومن أشهرها كتاب " تهافت الفلاسفة " ، وهو الذي تبنى الطريقة الصوفية في رؤيته للأمور واعتبارها خير مرشد وهادي للإنسان ، ومن اشهر كتبه في الصوفية والأخلاقيات والآداب كتابه "إحياء علوم الدين" ، الذي تطرق فيه وبالتفاصيل للجانب الروحي والنفسي ومفاتيح القلب في الإنسان وارتباطه بالخالق ارتباطاً ربما تطور عبر تاريخ الصوفية إلى حد المغالاة ، حيث نشأ علم التصوف ونضج في العصر العباسي كما نشطت أعمال النقل والتعريب وغزت الفلسفة اليونانية الفكر العربي و الإسلامي .

التصوف :

والتصوف في حقيقته " يحل من الباطن ذلك المكان الذي يحله من الظاهر " الفقه " فكما أن للصلاة والصيام وغيرهما من الأعمال والعبادات صورة ظاهرة توجد أحكامها ومسائلها في علم الفقه ، كذلك الخضوع والخشية وحضور القلب ، أو ذكر الله تعالى بالقلب الذي هو غاية الصلاة " أقم الصلاة لذكري " صورة باطنة توجد أحكامها وتفاصيلها في هذا العلم ... وكما أن العزوف عن الطعام والشراب في وقت محدد يسمى صوماً في الأعمال الظاهرة كذلك باطنه يسمى التقوى الذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى بقوله : " **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " ، ثم كما أن للأعمال الشرعية قالباً ومظهراً خارجياً لا تتحقق بغيره ولا تتجلى إلا فيه كذلك هذه الأعمال الشرعية لا تبلغ درجة الصحة ولا تخرج من الفساد ولا تحرز عند الله القبول ولا تأمن سخطه إلا إذا كانت متّسمة بنيات صالحة ومتصفة بالإخلاص ، فقد جاء في الحديث " إنما الأعمال بالنيات " حتى أن الإيمان والعقائد الصالحة التي يتوقف عليها نجاة الرجل

---

(1) التفكير فريضة إسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ص 49 .

وسلامته في الآخرة ، وتنحصر فيها صحة أعمال الرجل الظاهرة وإحراز كل ذلك للقبول عند الله ليسا إلا عملين قلبيين باطنيين ، وبذلك تظهر أهمية

هذا الفقه الباطني أو التصوف ومكانه من الشريعة الإسلامية " . [(1)]

ولعلنا إذا وقفنا على هذا التعريف أو التصور لحقيقة التصوف لما خالفنا الحقيقة القرآنية الثابتة في تَشَكُّل الإنسان من قبضة الطين ونفخة الروح ، غير أن علم التصوف قد تاه في رفعه وإعلاءه هو الآخر لشأن جانب واحد للإنسان على الجوانب الأخرى فوصلت الصوفية في تاريخها إلى أعلى درجات الشطط في نظرية الاتحاد والحلول التي دعا إليها بعض من أقطابها وأن لم يكن بالضرورة جميعهم ، ولعل محي الدين بن العربي هم من أهم القائلين بهذه النظرية الصوفية التي أثارت الكثير من الانقسام والغضب في التاريخ الإسلامي ، ولقد أثار كتابه " الفتوحات المكّيه في معرفة الأسرار الملكية " جدلاً في كثير من الأوساط الصوفية وغيرها في العالم الإسلامي ، ولعل البيتين المشهورين من شعره الذي افتتح بهما كتابه يلمسان حقيقة التخبط الذي وصلت إليه الصوفية عندما أعلت من جانب الروح إلى الحد الذي يرمز فيه أحد أقطابها مثل ابن العربي إلى إنه لم يعد يفرق بين العبد والخالق :

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري مِن المُكلَّف

إن قلت عبد ، فذاك ميت ... أو قلت رب أنّى يكلف ! [(2)]

فإن الإسلام وعلماؤه لم ينكروا من مذاهب الصوفية غير هذين المذهبين ، القول بالحلول

والاتحاد والقول بوحدة الوجود ، حيث بلغا من الشطط والانحراف العقدي ما لا يمكن تصوره ولا يمكن لهذه العقيدة المتوازنة في النظرة للإنسان أن تقر " مذهبا يقول بحلول الله في جسد إنسان ، ولا تقر مذهب القائلين بفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية ... ولا تقر مذهباً يقول بوحدة الوجود ، أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه الموجودات ، وأن الكون

بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله " . [(1)]

---

(1) بين التصوف والحياة ، تأليف عبد الباري الندوي ، مكتبة دار الفتح ، الطبعة الأولى 1963م ، ص21-22.
(2) تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ، تأليف محمد لطفي جمعة ، المكتبة العلمية ص296 .
(1) التفكير فريضة إسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ص170 .

ومع أن الكثير من المنتسبين إلى الطرق الصوفية " يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجـود و إسقاط التكليف ويعتزلون من يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية "[(2)]، إلا أن الصوفية كانت لها خصوصيتها في تبني رياضة النفس عن الشهوات وتضخيم الجانب الروحي في الإنسان وإقصاء الحاجات الجسدية واعتبارها سبباً من أسباب إفساد الإنسان وأن الترفع عن هذه الحاجات هو الأصل الذي يؤدي بالإنسان إلى المراتب العليا التي توصله إلى حالات الكشف والإلهام " فللمتصوفين اصطلاحات خاصة بمراتبهم بعضها معلوم وذائع على الألسنة وفي مجالسهم ، وبعضها يُعدُّ من الأسرار المكتومة وقد أفاض كثيرون من المؤلفين في ذكر تلك المراتب بحيث يحسب القارئ أن للقوم نظاماً باطنياً خفياً في الظاهر ، قوي الأثر في الحقيقة ، فمنهم الأوتـاد ، والابدال والأقطاب ، وأعظمهم القطب الغوث وهذه المراتب يتولاها البعض طوال حياته .... وفي كل زمان ينفرد القطب الغوث بهذا المنصب ولذا يسمى أيضاً صاحب الوقت .... ويقال في أعمال هؤلاء الصالحين أنهم أرباب وظائف أهمهـا الإشـراف على النظـم الكونية والإشتراك في تدبير الأمور العامة والخاصة بطرق معلومـة للقوم ولا يعرفها إلا ذووها " .[(1)]

إن الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان ضرورة ملحة لكن اعتبارها الجانب الأوحد فيه وإهمال الجوانب المادية المحسوسة هو عين المأساة التي وقع فيها الآخرون من علماء الغرب وكنائسه في النظرة الأحادية لهذا الإنسان ، وأن كثير من علماء الصوفية كأمثال أبي حامد الغزالي قد اهتدوا إلى حالة التوازن هذه ،إلاّ أن مدرسة الصوفية

على اختلافها والتي قد قسمها رشيد رضا إلى أنواع :

1 – صوفية الحقائق : الذين هم أقرب إلى الفلاسفة الروحيين الإشراقيين ، الذين يقولون بوحدة الوجود ، أي ليس عندهم إلا وجود واحد له مظاهر ومحال ، ومن خاض في كلام صوفية الحقائق غير عالم برموزهم ضل ، وربما كفر .

2 – صوفية معتدلون : وأهل الحديث ، كشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي ، صاحب كتاب منازل السائرين .

---

(2) المرجع السابق ص170 .
(1) تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ، تأليف محمد لطفي جمعة ، المكتبة العلمية ص276 .

3 – صوفية غلاة : مثل غلاة الرافضة من الإسماعيلية والبهائية ومنهم البكتاشية .

4 – صوفية الأخلاق وأهل السنة : كأبي حامد الغزالي .

5 – وصوفية الفلسفة الهندية : كغلاة الشيعة الباطنية .

6 – وصوفية التقليد : وهم أهل الطرائق والزوايا والكسالى ، وإن هم إلا صوفية أكل واحتفالات وبدع وخرافات إلا قليلاً منهم " . (1)

أقول أن كان كثير من علماء الصوفية قد اهتدوا إلى حالة من التوازن نوعاً ما في إدراك جوانب الإنسان كافة والتعامل معها ، إلا أن المدرسة الصوفية أضف إليها المدرسة الفلسفية لم توفق في النظرة التكاملية للإنسان ، ولم تستطع أن تقدم له رؤية شاملة لحقيقته وحقائق طبيعته لرغبتها وإلحاحها على سلخ جانب منه ومسخه على حساب قوى أخرى يمتاز بها .. ومن هنا كان توجه البحث هذا نحو القرآن الكريم كتاب الإنسان الشامل ، لتأصيل العلوم الإنسانية بناء على رؤية واضحة مستقاة من خالق الإنسان .. والتحرر من إتباع القيود البشرية في فرض رؤواها للإنسان في النظرة الغربية أو التأصيل الغربي لعلوم الإنسان ، كما هو التحرر من التطبيقات المجحفة بحق الإنسان كما هو حال الصوفية أو حال المناطقة ، و التوجه الصرف لتأسيس منظومة شاملة عن الإنسان من خلال استقراء خاص لكلمة " الإنسان " في عملية تأصيلٍ لعلم الإنسان الإسلامي ، هذا الاستقراء الناشئ من منطلق الحرية المطلقة التي هي تساوي التبعية اللامحدودة لخالق الإنسان بتوحيده كخالق أعظم أحد صمد ومن ثم توحيد الرؤية وضبطها في علم

الإنسان " فالوحدانية عندنا هي الحرية .. وهي مرفوضة من الإنسان العصري على أنها العبودية .. فهي أيديولوجية الحدود الإلهية ، والإنسان العصري هو إنسان الحدود الإنسانية وحدها " ،(1) تشتت انتباهه في محاولة لدراسة ذات ، كلما ظهرت فيه قوى وتألقت في فضائه ظن أنها محور إنسانيته ، وعليها يستطيع أن يبسط بساطه في وضع القوانين والقواعد ، غير أن عناية القرآن بالإنسان اختلفت من حيث قدرة الخالق على رؤيته بكل شموليته فهو

---

(1) التصوف بين الإفراط والتفريط ، الدكتور عمر عبد الله كامل ، دار ابن حزم الطبعة الأولى 1422هـ 2001م ، ص161 .
(1) كتاب الإسلام والإنسان ، د. حسن صعب ، ص10-11 .

صانعه ومدبره ، ففي القرآن تجد " وصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التي ينحدر إليها ... فنجده يُذكر في القرآن بغاية المدح وبغاية الذم وفي الآية الواحدة ، وما ذلك إلا لأنه أهل للكمال والنقص لما يطرأ عليه من استعداد لكل منهما ، لأنه

أهل للتكليف ، ولذا فهو أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض "[2]، إن " طبيعة النفس البشرية التي قدمها لنا الدين الإسلامي وأضاء مفهومها على نحو كاشف يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد ، والتي تتحرك دائماً فيما بين رفعة الحس وقوة الإيمان ، أما مفاهيم النفس الوافدة ، فهي دعوة إلى الانشطارية وتجزئة النظرة إلى الطبيعة البشرية " .[3]

منظومة متراصة :

وبغض النظر عن مسمى هذا العلم " فإن مصطلح (علم الإنسان) له مدلولات مختلفة عند مختلف الناس ، فحتى حين تستخدم كلمة (اجتماعي) فإن مصطلح (علم الإنسان) مازال يعني عند البعض مجرد الاهتمام بدراسة العظام وقياس أبعاد الجماجم ، ويعني عند آخرين دراسة إنسان ما قبل التاريخ وآثاره وعند فريق ثالث الاهتمام المبالغ فيه بالشاذ الغريب من العادات خاصة ما تعلق منها بالجنس ، وفي القارة الأوروبية فإن مدلول مصطلح (علم الإنسان) يتفق مع مدلول مصطلح " علم تطور الإنسان " وهو علم يعني بدراسة الإنسان كبناء عضوي وبمكانه في الإطار العام للتطور الحيواني ، ومن المواضيع التي تدخل في دراسته تصنيف أشكال الإنسان الأول واختلافات الشكل والبنية بين أجناس

الإنسان المعاصر "[1]، أقول وبغض النظر عن هذه المسميات فإن هذا البحث في محاولته لإستقراء كل المفاهيم المتعلقة بكلمة " الإنسان " دون غيرها في القرآن الكريم ضمن

---

(2) غرائز النفس البشرية وأمراضها ومنهج الإسلام في طبيعة النفس البشرية في القرآن الكريم ، تأليف د. مرسي شعبان السويدي ، ص55 .
(3) المرجع السابق ص 56 ، بتصرف .
(1) نحو علم الإنسان الإسلامي ، تعريف ونظريات واتجاهات ، تأليف د. أكبر بن أحمد ، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م ، ص30-31 .

سلسلة من الآيات المترابطة البُنْية بحسب ترتيبها في القرآن الكريم تسعى لعملية التأصيل لمفهوم علم الإنسان الإسلامي أو قل أن شئت يسعى لبناء منظومة متراصة من المعرفة بالإنسان من خلال تتبع الرؤية الجلية في القرآن للإنسان كما كنت قد نوهت عن ذلك في المقدمة ، فقد وردت كلمة إنسان في خمسة وستين آية في القرآن تَبيَّنَ في عملية إستقراءها وترتيبها بحسب تتابعها في القرآن أنها تسلط الضوء وتكشف عن حقائق أصيلة تتتابع بحسب أهميتها ، ومن أعلى الهرم حتى تستقر بتحديد لملامح الطبيعة الإنسانية فهي تبدأ كما بدأ القرآن الكريم في أول سورة فيه بالتعريف بدور الإنسان الخليفة في الأرض وهذا ما قمنا بدراسته في الفصل الثاني وبيان هذه الخلافة ومؤهلاتها .. وتمتد إلى بيان أطوار خلق هذه الإنسان في الفصل الثالث التي تمثلت في قبضة الطين ونفخة الروح وامتزاج كل منهما بالأخرى ، مما أفرد الإنسان بخاصية يمتاز بها عن المخلوقات الأخرى وتفصيلات هذه الأطوار التي تكتمل معها إنسانية الإنسان ليستلم الأمانة المناطة به ، وتنتهي هذه الدراسة بذروة الموضوع وجوهره وهي محاولة لتحديد طبيعة الإنسان النفسية متماشية مع بيان أو توجيهه وقواه المختلفة التي ينطلق بها في صراعه مع هذه الحياة ومع عدوه الأول الذي يترصد به ومن ثم تأتي الآيات التي تتحدث عن طبائعه النفسية كالجدل والبخل والعجلة والهلع وما إلى ذلك مما ذكرته الآيات ، تأتي هذه الآيات تعريفاً له بذاته حتى يتفادى بما وهب من طاقات تغييرية وقيم الهدى المستنيرة في فطرته أن يتفادى الخضوع أو الركون لها .

وبهذا الحشد الهائل من المعاني المبثوثة في هذه الدراسة لعلنا نبدأ بالتأسيس لتأصيل علمي لعلم الإنسان الإسلامي أو علم النفس الإسلامي ، دونما تعلق بتاريخ هذا العلم أو ارتباط بحدوده الإنسانية .

الفصل الثاني

مكانة الإنسان الوجودية : الخلافة ومؤهلاتها

قال تعالى : " **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)** " **(سورة البقرة) .**

إن ادراك الحقيقة الإنسانية الشاملة ، جوهرها ومظهرها بتوازن لا يخل بالإنسان كوحدة متكاملة تناقضت صفاته وتغايرت مادة خلقه ، وتم بموجبه هذا القالب الوجداني المادي الموحد ، دونما تجزيء لطبيعته النابعة من أدوات صنعه المتأسسة على سر وجوده، وهدف خلقه.

إن مثل هذا الإدراك لا يتم دون العودة إلى هذا السر وذاك الهدف، وما الإنسان الا كقيمة الآلة الصماء التي لا تلفت انتباه رائيها وتشد اليها انظاره على متانة صنعها وجمال منظرها، إلا إذا أدرك قيمة وجودها، ومدى اسهامها في النفع والبناء، وطبيعة دورها في دائرة حياته والذي لاجله صنعت.

ومن هنا تضطرب عملية الفهم للأشياء والأنواع ، إذا ابتدأنا بفحص اجزائها والتعرف عليها قبل معرفة سر كينونتها وأهمية وجودها ، بل إن أدراك قيمة الشيء تؤدي إلى دراسة طبيعته أو تحليل أجزائه مساهمة في استنفار كافة القوى أو شحن مختلف أوجه الطاقة فيه لجلاء الهدف وتحقيق المراد.

ولأجل هذا كانت افتتاحية سورة البقرة ثاني سور القرآن في آياتها الاربعين الاولى اعلاناً مدوياً عن دور الإنسان ومهمته في الأرض بجعله خليفة قبل البدء بالحديث عن مادة الخلق ومؤهلات الخلافة. ولعل هذا ما استثار الملائكة وهم الذين يفعلون ما يؤمرون لتسليم الإنسان هذا الدور العظيم.

اما الآيات الأولى من السورة ، فقد جاءت مبيّنة لأصناف الناس كحقيقة واقعة مدى الحياة الدنيا في تحقيق هذا الدور أو تجاهله بالسير وراء جزئية من جزئيات التركيب الإنساني واتباع شهواتها.

فكان وصف المؤمنين بالاستسلام المطلق للإرادة الآلهية طوعاً واختياراً منهم من خلال الإيمان بالغيب ، ومن ثم إقامة الصلاة والإنفاق بهدف الاعمار كدلالة الخلافة عن الله في تحقيق شرعه على وجه هذه البسيطة ، وأثبات الحكم بأحكام الله في اجتماع الناس بعضهم ببعض ، تجد ذلك واضحاً في قولـه تعالى : **" ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ(2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) " (سورة البقرة) .**

أما الكافرون ، فقد بينت الآيات انهزامهم النفسي المطلق أمام دورهم الإنساني المشرف كخلفاء بأن يئست من إنذارهم بسبب ما خُتم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم من غشاوة التمرد على عبودية الله اتباعاً لأهواء المادة الطينية في تركيبهم ، وسحقاً للرؤية الشمولية لإنسانيتهم ، يقول تعالى في ذلك : **" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) " (سورة البقرة) .**

وجاءت المراوغة بين الادراك لوظيفة الإنسان والعمل على عكسها صفة للفئة الثالثة من الناس الذين قيل لهم لا تفسدوا في الأرض فكان جوابهم "إنما نحن مصلحون" دليلاً قاطعاً لاستيعابهم لطبيعة المهمة ، واستخفافهم بها ، يتبن ذلك في قوله تعالى: **" وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) " (سورة البقرة)** ، فما استهزاءهم هذا الإ علامة الاستخفاف وعلامة المعرفة.

فالإنسان ابتداءاً هو خليفة الله في أرضه وإن كان إعلان الخليفة تَوجَّه تحديداً بمناسبة خلق آدم عليه السلام ، او اتماماً للمشروع الإنساني ، وقد بين الشيخ متولي شعراوي في تفسيره المكتوب مشافهة عنه أن إعلان الله سبحانه وتعالى لخلافة آدم بالتصريح باسمه في الآيات اللاحقة إنما هو إعلان لخلافة الإنسان عامة للارض، فهو يرى ان آدم وان كان قد خلق كفرد إلا أن ذريته (في لحظة الإعلان تلك) كانت مطمورة فيه منذ تلك اللحظة إلى يوم القيامة ويستشهد بقولـه تعالى: **" وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (11) " (سورة الأعراف) .**

"إن الخطاب هنا للجميع ، لآدم وذريته ، فكأنه سبحانه وتعالى يشير إلى الأصل

الأول لخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته إلى أن تقوم الساعة وراثة أي أنه ساعة خلق آدم كان فيه الذرات التي سيُأخذ منها الخلق كله ، هذا عن هذا حتى قيام الساعة.. وما دامت الحياة من عهد آدم إلى يومنا هذا متصلة فلابد أن يكون في كل منا ذرة من آدم الذي هو بداية الحياة وأصلها، وانتقلت بعده الحياة في حلقات متصلة إلى يومنا هذا". (1)

وفي تفسير أبي السعود: "انما اقتصر على ذكر آدم عليه السلام إستغناءاً بذكره عن ذكرهم، كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم" .(2)

وقد فسر صاحب التحرير والتنوير قوله تعالى:" **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... (11) " (سورة الأعراف)** ، وأما تعلق فعلي الخلق والتصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأول وهو آدم عليه السلام بقرينة تعقيبه بقوله: " **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** " فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النوع الذين منهم المخاطبون لأن المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم.

ونظيره قوله تعالى: " **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) " (سورة الحاقة)** ، أي حملنا أصولكم وهم الذين كانوا مع نوح وتناسل منهم الناس بعد الطوفان لأن المقصود الامتنان على المخاطبين بإنجاء أصولهم الذين تناسلوا منهم ". (3)

ولا يلحظ المرء ذلك البون الشاسع بين مختلف الأراء في كون خلافة آدم عليه السلام هي تمثيل لخلافة عامة النوع الإنساني للارض من حيث أنه الممثل لذريته في مبدأ الإنشاء أو من حيث أن ذريته مطمورة فيه لحظة إعلان مهمة الخلافة ، فهو الأصل الذي اكتمل عنده المشروع الإنساني بإعلان هذا الاستخلاف.

غير أن هذه الأراء قد تباينت نوعاً ما في معنى الخلافة ذاتها حيث أن كلمة خليفة تحمل عدة معان، أوضحها الراغب الأصفهاني في المفردات تحت مادة خلف: "وخَلَفَ فلانٌ فلاناً، قَامَ بالأمرِ عنهُ، إمَّا مَعهُ وَإمَّا بعَدهُ، قال تعالى: " **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي**

---

(1) تفسير الشعراوي، عمر متولي الشعراوي, المجلد الأول، مطابع اخبار اليوم التجارية, ص 240.
(2) تفسير أبي السعود المسمى ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة الامام ابي السعود محمد بن محمد العمادي، الجزء الأول، دار احياء التراث العربي، ص 82.
(3) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور, الجزء الثامن، الدار التونسية للنشر , تونس 1984, ص 37.

الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) " (سورة الزخرف) ، والخِلافةُ النيّابةُ عن الغير إمَّا لِغَيْبةِ المَنُوبِ عنه وأمَّا لِمَوْتِهِ وإمَّا لعَجْزه وَإمَّا لتشريفِ المُسْتَخلَف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءهُ في الأرض ،قال تعالى: **" هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ (39) " (سورة فاطر)** ، **" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (165) "(سورة الأنعام)** ، وقال تعالى : **" وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ (57) " (سورة هود) .**[1]

ويتضح تباين الرأي بالنسبة للقائِلين بالمعنى الأول لمادة خلف وهو أن الخلافة هي النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو لموته وإما لعجزه، وبناءاً على ذلك يرون أن الإنسان يخلف جنساً آخر كان يسكن الأرض لانه يستحيل في حق الله الموت أو العجز.

ففي المنار أن بعض المفسرين: "ذهب إلى أن هذا اللفظ (خليفة) يشعر بأنه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض ، وأن هذا الصنف الذي أخبر الله الملائكة بانه سيجعله خليفة في الأرض سيحل محله ويخلفه ، كما قال تعالى بعد إهلاك القرون **" ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ (14) (سورة يونس)** ، وقالوا أن ذلك الصنف البائد قد افسد في الأرض وسفك الدماء، وإن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لان الخليفة لابد ان يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم.

ولكن لما لم يكن دليل على انه يكون مثله من كل وجه وليس كذلك من مقتضى الخلافة ، أجاب الله الملائكة بانه يعلم ما لا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من مثله ، وماله سبحانه في ذلك من الحكمة البالغة " .[1]

وفي شرح ابن عاشور لمعنى الخليفة يذكر مثل هذا الرأي إلا أنه يعتبره من المزاعم التي تناقلها رواة القصص عن الفرس واليونان حيث كانوا يعتقدون أنه يوجد جنس قد عمَّر الأرض قبل الإنسان وكانوا يسمونهم الطّم والرّم، وكان اليونان يعتقدون أن هذه المخلوقات تدعى التيتان وأن آلههم زفس وهو كوكب المشتري ، قد حاربهم وأجلاهم عن الأرض لفسادهم.

---

(1) مفردات الفاظ القرآن تأليف العلامة الراغب الاصفهاني تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق/ الدر الثانية، بيروت، الطبعة الثانية 1418هـ – 1997م، ص 294.

(1) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار تأليف محمد رشيد رضا، المجلد الأول، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 258.

ويدحض هذه الأقوال بقوله في تفسيره التحرير والتنوير: " وكل هذا ينافيه سياق الآية، فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السموات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة، دليل على أن جعل الخليفة كان أول الاحوال على الأرض بعد خلقها، فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم ان يكون المخلوف مستقراً في المكان من قبل ، فالخليفة آدم وخَلَفيَّتهُ قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي" .(1)

أما قول ابن عاشور ان ذكر خليفة جاء بعد خلق السموات والأرض فإن هذا قد يكون من منطلق ما سيؤول إليه الوضع النهائي في عملية الخلق وتطوراتها، لا لإن الخليفة هو أول الأحوال على الأرض والله اعلم. وإن كان قد دحض معنى خليفة على المعنى الحقيقي فهو يُعَرِّفه على المعنى المجازي بقوله "أنه الذي يخلف غيره أو يكون بدلاً عنه في عمل يعمله فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة في الوصف كالعلامة ، والمراد من الخليفة هنا إما المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريده المُسْتَخْلِف مثل الوكيل والوصي أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة ، لان الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي اودعه في الإنسان ، وهو السلطنة على موجودات الأرض ، ولان الله تعالى لم يترك عملاً كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الاعظم لم يزل لله تعالى". (2)

ويؤكد المطرودي ما ذهب إليه ابن عاشور حيث يقول في تناوله لموضوع الخلافة: " أنه يراد بكلمة خليفة معنى النائب أو المفوض وللمُستَخْلِف (الله) القوامة على خليفته (الإنسان) وأن هذه الخلافة من الله تعالى للإنسان فيها تشريف له، لتلتقي إرادته مع

أرادة الله جل وعلا الشرعية في إحلال النظام في عمارة الارض". (1)

فـ "الخلافة عن الله تتضمن الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير والإرادة وهي كلها خصائصه سبحانه التي أعطى قبسة منه للخليفة وزوده بالمعلومات" .(2)

---

(1) تفسير التحرير والتنوير، الجزء الأول، الكتاب الثاني، ص 399.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الأول، الكتاب الثاني، ص 398-399.
(1) دراسات في التأصيل الاسلامي لعلم النفس تأليف صالح بن ابراهيم الضبع، ص 49 نقلاً عن الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم، عبد الرحمن بن ابراهيم المطرودي، ص 334-341.

ويرى الشيخ الشعراوي أن الإنسان ضمن هذا المعنى للخلافة بلا شك هو خليفة الله في أرضه "فقد جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخراً له فكأنه خليفة الله في أرضه، أمده بعطاء الاسباب فخضع الكون له بإرادة الله وليس بإرادة الإنسان". (3)

كما ويذهب إلى أن معنى خليفة يحتمل أيضاً أن الإنسان " قد يخلف بعضه بعضاً، وفي هذه الحالة يكون إعلام من الله بان كل إنسان سيموت ويخلفه غيره فلو كانوا جميعاً سيعيشون ما خلف بعضهم بعضاً" ،(4) فإن "الله يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم إلى يوم القيامة فيقول جل جلاله " **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59)** " **(سورة مريم)** ، ولكن هذا يطلق عليه خَلَف ولا يطلق عليه خليفة.

والشاعر يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب " (1)

كما ويبين ان معنى خليفة قد يحتمل أن الإنسان يكون خليفة لجنس آخر "ولكن الله سبحانه وتعالى نفى أن يخلف الإنسان جنساً آخر واقرأ قولـه جل جلالـه " **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)** " **(سورة ابراهيم)** ، والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذي أهلكه الله" . (2)

ورأي الشيخ الشعراوي في إمكانية تحمل معنى الخلافة أن تكون لجنس آخر أو أن تكون خلافة البشر بعضهم لبعض، فيمكن تفسيرها بان مثل هذه الخلافة، قد تكون جزئية كخلافة وجود ، بان يخلف بعضها في الوجود وليس في مهمة وهدف هذا الوجود، وأما استدلاله بالآية الكريمة بعد ذلك : " **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)** " **(سورة إبراهيم)** ، على نفي الله لان يخلف الإنسان جنساً آخر، لان الخلق الجديد يجب أن يكون من نوع الخلق نفسه الذي أهلكه ، فيبدو لي ـ والله اعلم- ان هذه الآية تخاطب الإنسان الحالي من

---

(2) الاسلام وقضايا علم النفس الحديث، د. نبيل محمد توفيق السمالوطي، دار الشروق، الطبعة الثانية، 1984م، ص 68.
(3) تفسير الشعراوي، المجلد الأول ، ص 242.
(4) تفسير الشعراوي، المجلد الأول ، ص 241.
(1) تفسير الشعراوي ، المجلد الأول ، ص241.
(2) تفسير الشعراوي ، المجلد الأول ، ص241 .

ذرية سيدنا آدم عليه السلام ، فذهابه والأتيان بخلق جديد من جنسه يخلفه يقع في الزمن الجديد من عهد النبي آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ، ولا يتحدث عن الزمن الماضي السحيق وذهاب تلك المخلوقات البشرية إن وجدت واستخلافها بالإنسان.

وعودة على رفض بعض المفسرين لوجود هذه الكائنات البشرية، فانني ارى أنه من التعسف بمكان ذلك الربط بين كون الإنسان خليفة وبين وجود أنواع من المخلوقات تتسم بسمات المخلوق البشري ، فإن الرفض المطلق لمثل هذه الكائنات لا يتناسب مع مرونة وسعة الآيات القرآنية، وجُل الاكتشافات العلمية التي تثبت وجود مثل هذا النوع البشري قبل ملايين السنين من خلال اكتشاف عظام وجماجمُ يُقَدَّر عمرها بملايين السنين متوافقة تماماً مع الهيكل الإنساني الحالي للأرض فقد "قدم البروفيسور جوهانس هورزلر للمتحف الطبيعي بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة، وهذا هو التاريخ الذي أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية" .(1)

ومن هنا يتضح "إن قصور المعرفة التامة وعدم أدراك الشيء لا يعني بالضرورة عدم وجوده أو الغاء إمكانية وجوده، فعدم معرفة قارة أمريكا قبل اكتشاف كرستوفر كولمبوس لها لا يعني عدم وجود هذه القارة، كذلك فإن هجرة الناس اليها من كافة القارات لا يعني عدم وجود سكانها الأصليين من الهنود الحمر" .(2)

ومع ملاحظة الفرق بين كلمة الإنسان وكلمة بشر بعد استقرائهما في القرآن الكريم ، وما يذهب إليه بعض المفكرين اليوم من أن مثل هذه المخلوقات قد تكون محدودة المقومات ، فكلمة الإنسان لها مميزاتها الخاصة والتي تدل على طبيعة خلقها أيضاً، وكلمة البشر باستقرائها تؤكد على مفهوم العمليات الحيوية الجسدية البحتة

التي يقوم بها ذلك الكائن.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: "الإنسان في القرآن الكريم غير البشر: فاستقراء مواضع ورود "بشر" في القرآن كله ، يؤذن بان البشرية فيه هذه الآدمية التي تأكل الطعام ، وتمشي في الأسواق وفيها يلتقي بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة ،

---

(1) ابي آدم قصة الخليقة بين الاسطورة والحقيقة، د. عبد الصبور شاهين، الناشرمكتبة الشباب، ص 35.

وبهذه الدلالة ورد لفظ البشر، اسم جنس، في خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، فيها خمسة وعشرون موضعاً في بشرية الرسل والأنبياء، مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية، وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر". [1]

فإن مثل هذا الوجود البشري قد يكون متحققاً، غير أنه لا يمكن ربطه بخلافة الإنسان الحالي للأرض، وعليه أيضاً يفسر استنكار الملائكة للانسان الخليفة أو للكائن البشري الخليفة، ربما بعد مشاهدات لها لتجارب سابقة على الأرض، فتساؤلها عن سفك الدماء يوحي بوجود مثل هذه المخلوقات البشرية ، "ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال أو من تجارب سابقة في الأرض أو من الهام البصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق أو من مقتضيات حياته على الأرض ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض". [2]

إلا أن نفي الله لمثل هذا الربط بين مخلوقين بشريين إن صح القول بقوله تعالى: "إني اعلم ما لا تعلمون" لدليل على تباعدهم في طبيعة الخلق والمقومات وارتقاء الحال لاداء مهمات الوجود، فلا يخلف لاجل هذا بعضهم بعضاً، يتبين ذلك بالآية المباشرة بعد قصة إعلان الخليفة والتي تتحدث عن استحقاقه لهذه المهمة بما أُودع فيه من مؤهلاتها والتي قد تُوجت بالعلم والمعرفة ، وعناية الله الخاصة في تعليمه بذاته جل وعلا لآدم دليل تشريف وتمكين بقوله تعالى:**" وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .. (31) "(سورة البقرة).**

وفي كتابه " استخلاف الإنسان في الأرض " ، يبين الدكتور فاروق الدسوقي من أنه لا مانع ان يكون الإنسان خليفة الله في أرضه ونائبه عليها "ولا يقدح في ذلك رفض بعض المفسرين لهذا المعنى بتفسيرهم للاستخلاف على أنه خلافة الإنسان بعضه بعضاً جيلاً بعد جيل بحجة أن الخلافة لا تتحقق للخَلَف إلا بعد ذهاب السلف وموتهم وهذا ما لا يجوز على الخالق عز وجل" ،[1] مستشهداً بتفسير آية وراثة المؤمنين للجنة "والذي أراه وأطمئن اليه، هو ان القول بخلافة الإنسان لله عز وجل في الأرض جائز ولا يلزم من ذلك خلو الأرض من سلطان الله عز وجل، فكما ان المؤمنين يرثون الأرض يتبوأون من الجنة حيث يشاءون في

---

(2) الإنسان والكون، د. مرتضى ابو سمرة، الطبعة الاولى، 1989م، ص 79.

(1) القرآن وقضايا الإنسان د. عائشة عبد الرحمن، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، 1982، ص 15.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، الجزء الأول ، دار الشروق، الطبعة الشرعية الخامسة عشرة، 1408هـ-1988م، ص 56.

(1) استخلاف الإنسان في الأرض، نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الاسلامية تأليف الدكتور فاروق أحمد الدسوقي، المكتب الاسلامي، بيروت، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، الطبعة الثانية 1406هـ-1986م ص 7.

الآخرة، والله عز وجل هو الذي يُورِّثهم إياها، دون ان يَلْزَم من هذا المعنى والمفهوم موت المُوَرِّث جل جلاله أو غياب هيمنته أو خلو الجنة من سلطانه، كذلك يجوز القول ان الله تعالى حين استخلف الإنسان في الأرض أصبح الإنسان المؤمن خليفة له عز وجل دون أن يلزم هذا خلو سلطانه من الأرض أو غياب هيمنته عليها، قال الخالق المالك عز وجل **" وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (74) " (سورة الزمر) .**

فالقول هنا في وصف الله تعالى بأنه المُوَرِّث كالقول في وصفه تعالى بأنه المُسْتَخْلِف ، فهو اشتراك مع المخلوق في اسم الصفة دون حقيقتها،بل مع ثبوت الاختلاف بين حقيقة الصفة او حقيقة الفعل المنسوب للخالق عز وجل، وبين حقيقة الصفة أو حقيقة الفعل المنسوب للمخلوق، كما هو مذهب السلف في صفات أفعال ربنا جل وعلا". (1)

ويؤكد الدكتور الدسوقي على خطورة رفض استخلاف الإنسان لله في أرضه بان في هذا تضييع لأهم أصل اعتقادي لحضارة المسلمين "كما أنه ُيفقد مفهوم الإنسانية أحد مقومات تكريمها وهو خلافة الإنسان لله عز وجل". (2)

لا كما رآها كثيرون ، حيث "يذكر ضميرية معاني ذات علاقة بالآية حيث يقول: "كثيرون لا يجيزون ان يقال لبشر خليفة ، وحجتهم أنه إنما يُستخَلف من يغيب أو يموت، وقول أبي بكر لستُ خليفة الله ، بينما غيرهم يجيز ذلك لقوله تعالى: **" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (165) " (سورة الأنعام) .**

وهذا الرأي هو الأصح ، إذ لا يصح ان يقاس بالبشر من ليس كمثله شيء، وخلافة الإنسان إنما هي تكريم له، أما الاستخلاف الفقهي، فهي النيابة بحسب مدركات البشر الفقهية، وقد حدد الله هذه الوظيفة بقوله: **" هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (61) (سورة هود)** ، والاستعمار معناه في أصل اللغة التمكن والتسلط وطلب

العمارة، وفي هذا دليل على وجوب الانتفاع بهذا الكون لما أعطى الله الإنسان من قوى ومدركات". (1)

(1) استخلاف الإنسان في الأرض، نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الاسلامية تأليف الدكتور فاروق أحمد الدسوقي، الطبعة الثانية 1406هـ 1986م، المكتب الاسلامي، بيروت، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، ص 7، 8.

ومن هذا المنطلق نظر الكثيرون لخلافة الإنسان لله على أنه تكريم إلهي وتمييز له على بقية المخلوقات من حوله حيث أعلن عن مقدمه وأهمية الدور الذي سيلعبه على هذا الكوكب الارضي، "وقد بلغ من تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان ان يقوم بنفسه بالإعلان عن مقدمه، وخلقه له على الملأ الأعلى". [2]

ومقتضى هذا التكريم أن يحقق الإنسان خلافته لله دون غيره من قوى مادية أو معنوية، لإن الإنسان مخلوق خليفة بمقتضى الجعل الإلهي، دونما تحديد للذي سيخلفه، كما يستنبط ذلك الدكتور الدسوقي من الآية الكريمة في قوله تعالى: " **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " .**

فيقول "تفيد هذه الآية أن هذا الكائن المختار للخلافة ليس مخيراً في أن يكون خليفة أو لا يكون، بل هو خليفة بمقتضى "الجعل" الإلهي أي أنه خليفة بمقتضى الخلقة والجبلة والفطرة" ،[3] "وذلك لإن آية الخلافة تفيد جعل الإنسان خليفة دون تحديد للذي سيكون الإنسان خليفة له، فلم يقل الله عز وجل في الآية "خليفة لي" ولم يقل سبحانه وتعالى "خليفتي" ومن ثم فالإنسان مخلوق خليفة وفقط ، أي أن الجانب الجبري في حقيقة الخلافة

هو في كون الإنسان خليفة فقط، أما لمن سيكون خليفة؟ هل سيكون لله أو لغير الله؟ فهذا موكول لإرادة الإنسان الحرة، ومفوض لفاعليته، فقد خلقه الله حراً مختاراً مستطيعاً في أن يجعل خلافته لله أو يجعلها لغير الله ومن ثم كانت الخلافة في الدنيا ابتلائية والخلافة في الآخرة جزائية". [1]

ويفسر وجهة نظره هذه بشرحه للخلافة " لغة على أنها النيابة والوكالة ، وعندما تتم النيابة والوكالة بين اثنين من الناس فإنها تتطلب عدة عناصر رئيسية هي: الموكل-الوكيل - الموكل فيه او عليه - شروط الوكالة - مدة الوكالة - الحساب في نهاية الوكالة".[2]

---

(2) المرجع السابق، ص 8 .

(1) دراسات في التأصيل الاسلامي لعلم النفس تأليف صالح ابراهيم الضبع ، نقلاً عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، عثمان بن جمعه ضميرية، ص 82.
(2) كتاب: الاسلام وقضايا علم النفس الحديث، د.نبيل محمد توفيق السمالوطي، دار الشروق، الطبعة الثانية 1984م، ص 68.
(3) استخلاف الإنسان، مرجع سابق، ص 9.

(1) استخلاف الإنسان في الأرض ، مرجع سابق ، ص 20 .
(2) استخلاف الإنسان في الأرض ، مرجع سابق ص 17 .

ويرى أن هذه العناصر هي ذاتها أساس للخلافة " المستخلِف (بكسر اللام) وهو الله عز وجل- المستخلَف (فتح اللام) وهو الإنسان- المستخلَف فيه (بفتح اللام) وهو الأرض وما عليها وما فيها- شروط الخلافة وهي التكليف أو الرسالة السماوية أو الشريعة وأصل هذه الشروط جميعاً الطاعة- مدة الخلافة: الحياة الدنيا بدءاً بآدم عليه السلام إلى قيام الساعة- الحساب: هو يوم الدين".[3]

ويصل الدكتور الدسوقي من خلال تشبيهه للخلافة بالوكالة بأنها تعبير عن علاقة الإنسان بالله الذي استخلفه من جهة وعن علاقة الإنسان بكل ما استُخلف عليه في الأرض ويرى أن العلاقة الأولى "تتمثل في الخضوع والطاعة والاستجابة واستسلام الخليفة لمن استخلفه او هكذا يجب ان تكون ، وبكلمة واحدة نعبرعن هذه العلاقة نقول أنها:عبودية.....

أما العلاقة الثانية فانها تتمثل في سيطرة الإنسان الخليفة وهيمنته واستغلاله وحاكميته وتسخيره لكل ما استخلفه الله عليه ، أي لكل ما في الأرض وما عليها وما في باطنها من أشياء وأحياء وبكلمة واحدة نقول: أن الإنسان سيد عليها أي ان هذه العلاقة تسمى "سيادة" . [1]

ومن هنا يستنتج الدكتور الدسوقي أن الخلافة في معناها الحقيقي هي عبودية وسيادة ، وُيعَّرف هذا الخليفة الإنسان بانه عبد وسيد في نفس الوقت، عبد لله الذي استخلفه وسيد على الأرض بما فيها من أشياء وأحياء فهو مستخلف عليها، فهذا الإنسان هو خليفة لله في الأصل إذا حقق عبوديته لله وسيادته على الأرض بمنهج الله.

أما "إذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله فإنه يُضيِّع سيادته في الأرض لانه إذا لم يحقق عبوديته لله وحده، فإنه سيسقط بالضرورة في عبوديته لغير الله، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير" ،[2] بناءاً على أن الإنسان مخلوق عبداً بالفطرة، والجعل الإلهي فهو إن لم يرضى بعبودية الله فأنه سيقع في عبودية غيره لا محالة لأنه مجبول على العبودية وسيأتي شرح ذلك تحت بند الفطرة إن شاء الله "وإذا لم يحقق الإنسان سيادته على كل شيء وحي في الأرض،فانه بالتالي يصعب عليه أن يكون عبداً لله عز وجل وحده"،[3]لانه سيكون عبداً

(3) استخلاف الإنسان في الأرض، مرجع سابق، ص 18.
(1) استخلاف الإنسان في الأرض، مرجع سابق، ص 18.
(2) المرجع السابق ، ص 19 .
(3) استخلاف الإنسان ، مرجع سابق ، ص19 .

لأشياء وقوى من المفروض أنها سخرت لخدمته ونفعه ومن هنا يُضَيِّع خلافته لله لتكون لتلك القوى والأهواء.

وفي هذه الخلاصة التي قدمتها لعرض الدكتور فاروق الدسوقي في كتابه (استخلاف الإنسان في الأرض) ، ومع مختلف الأراء الواردة يتبين أن الإنسان خُلِقَ خليفة لله في الأصل بلا جدال في ذلك. إلا أن الله قد ملَّكه حرية الاختيار في أن يحقق مثل هذه الخلافة أو أن يتنازل عن مكانته الوجودية الرفيعة.

وما خلافة الإنسان لله على أرضه إلا تنفيذ لأحكام الله وبسط لشريعته في عملية الإنشاء والاعمار.

وما قيل في خلافة الإنسان للإنسان من حيث أن الخليفة يأتي بعد موت المُستَخْلِف ، فما هي إلا خلافة جزئية تتمثل في امتداد النسل، فموت الأباء لا يعني تقمصُ الأبناء لذات الأدوار والوظائف التي حققوها ، فالوالد المهندس قد ينجب ابناً جراحاً والعاصي قد ينجب المطيع، وتتباين السبل في سير كل منهما، وإن امتدت الذرية إلى آماد بعيدة.

والقول بوجود كائنات أخرى بشرية سابقة للعهد الآدمي ان اتصل بمفهوم الخلافة من أي وجه فلا يمكن أن يكون ضمن المفهوم إلاعم للخلافة الشمولية، والتي هي في نهاية المطاف خلافة الإنسان لربه، والتي استثارت تعجب الملائكة، وأخرجتها عن دائرة وظيفتها المُسَبِحة إلى نحو من محاورة ما كانت لتتوافق مع طبيعتها ظناً منها أن دور العبودية المطلق الذي تؤديه ضمن التسبيح والتقديس هي أعلى المراتب المرتجاة ، يقول ابن عاشور: "يحتمل أن يكون الغرض من قولهم ونحن نسبح بحمدك التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف ، لان الجملة الاسمية (ونحن نسبح بحمدك) دلت على الدوام، وجملة (من يفسد فيها) دلت على توقع الفساد والسفك، فكان المراد أن استخلافه يقع منه صلاح وفساد والذين لا يصدر عنهم عصيان مراد الله هم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد"(1) وكان رد الله المباشر " **قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** " ، "أي اعلم ما في البشر من صفات الصلاح، ومن صفات الفساد واعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأن فساده لا يأتي على المقصد بالابطال، وأن ذلك كله مصالح عظيمة، ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب واطلاعاً على

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الجزء الأول، الكتاب الثاني، ص 407.

نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك كيف ومن ابدع ذلك أن من بين تركيب الصفتين الذميمتين يأتي بصفات الفضائل كحدوث الشجاعة بين طرفي التهور والجبن.

وهذا اجمال في التذكير بان علم الله تعالى أوسع مما علموه فهم يوافقون اجمالاً أن لذلك حكمه.

ومن المعلوم أن لا حاجة هنا لتقدير وما تعلمون بعد "ما لا تعلمون" لانه معروف لكل سامع ، ولأن الغرض لم يتعلق بذكره ، وإنما تعلق بذكر علمه تعالى بما شذ عنهم.

وقد كان قول الله تعالى هذا تنبهيه للمحاورة وإجمالاً للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة". [1]

مؤهلات الخلافة:

لقد كان بيان الله تعالى لمثل هذا الاستنكار بمنح آدم عليه السلام مؤهل الخلافة المباشر ألا وهو العلم ، والذي تتحقق من خلاله عمليات الإعمار المادي للارض بما يُنْشِىءُ فيها من الاكتشاف والاختراع والابتكار وإدراك السنن الكونية والقوانين الفيزيائية

لبنائها وحمايتها والحفاظ على ثرائها والعمل على رخاء أهلها.

ومن ثم بمؤهل الفطرة التي هي من طبيعة مادة الخلق نفسه أو مجبولة فيه، فكان بتأصيلها في التركيبة الإنسانية تحقيق للوحدانية التي هي أسمى غايات الإنسان في عملية الاعمار تلك ، فدلت على أن خلافة الإنسان في جوهرها لله الخالق.

1- العلم:

المؤهل الأول للخلافة بحسب الترتيب القرآني لقصة الخلق والإستخلاف أو قل العلامة المميزة للإنسان الأول سيدنا آدم عليه السلام ولذريته من بعده . وقد قيل أن اسم آدم

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الأول، الكتاب الثاني، ص 407.

في إحدى معانيه قد اشتق من أديم الأرض ذلك أنه قد ركب من طينتها. ففي صحيح ابن حبان: "أخبرنا الفضل بن الحباب حدثنا مسدد بن مسرهد عن يحيى بن القطاف عن عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي – صلى الله عليه وسلم - ، قال: "خلق الله آدم من أديم الأرض كلها فخرجت ذريته على حسب ذلك فمنهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ومنهم بين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب" .(1)

فهو مخلوق منها، وهي محل استقراره لإداء مهمته، ولأجل ذلك اعتبر كثير من المفسرين ان عِلم الأسماء في قوله تعالى: **" وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا "** ، ما هي إلا تعبير عن خصائص مكنونات هذه الارض ومواصفاتها وأحوالها والتي بإدراكها يمتلك زمام أمورها ومفاتيح الاعمار فيها والتي وكلت إليه ولبنيه من بعده.

في الوقت الذي اعتبر آخرون ان عِلم الأسماء هذا يدخل في إطار المعرفة الدينية وأن هذه الأسماء من ثم اسماء الله الحسنى أو اسماء الملائكة، ويردُ على مثل هذه التفسيرات الدكتور الدسوقي بقوله "إن قواعد اللغة العربية وسياق الآيات وارتباط هذا العلم بالخلافة لا يجيزان أمثال هذه التفاسير: لأن الآية **" ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) " (سورة البقرة)** ، تعني أن الله عز وجل لم يعرض الأسماء على الملائكة وانما عرض المسميات، لان عرض الأسماء يقتضي لغوياً القول "ثم عرضها " ولان اسم الجمع "هؤلاء" يدل على أن المعروض كان المسميات وليس الاسماء.. هذا كله لا يجيز مطلقاً أن يكون المقصود بالأسماء كلها أسماء الله عز وجل أو الملائكة، فلم يبق إلا أن تكون اسماء الاشياء، ولما كان سياق الآيات وموضوعها

هو خلافة الإنسان في الأرض، يكون الأرجح أن المقصود بالاشياء المعروضة هي الأشياء التي يستخدمها الإنسان في الأرض .. ويدخل في ذلك خصائص هذه الإشياء وعناصرها وكيفياتها وسائر صفاتها لإن هذه الخصائص والصفات والعناصر هي أيضاً أشياء تحمل اسماء". (1)

---

(1) صحيح ابن حيان ، المؤلف محمد بن أحمد ابو حاتم التميمي البستي، الجزء الرابع عشر دار النشر مؤسسة الرسالة، بيروت 1414هـ 1993م، الطبعة الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط. ص60.

(1) استخلاف الإنسان في الأرض، مرجع سابق، ص 12.

كما وذهب بعض المفسرين إلى أن علم الاسماء الذي تلاقاه آدم كان علماً شاملاً قد أحاط بكل الموجودات على وجه الأرض ما كان منها وما سيكون وإن هذا التعليم كان بلغته وبكافة اللغات التي ستنشأ في عهود الإنسانية اللاحقة، يؤيد مثل هذا الرأي الشيخ محمد عبده بقوله : "ولكن المتبادر من تعليم آدم أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه، بالفعل أو بالقوة ، علّم آدم كل شيء ولا فرق بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في آنات متعددة، والله قادر على كل شيء". (2)

غير أن البعض الآخر قد انكر مثل هذا التعليم أو اعتبر أن البحث في مثل هذه الأمور مما ليس فيه فائدة ترجى، فسواء أكان تعليم آدم لكل ما في الأرض ما كان عليها أو ما سيكون بلغة واحدة منطوقة في ذلك الوقت او بكافة اللغات إلى قيام الساعة، فإن في مثل هذه المناقشة نوعاً من الجدلية الفارغة، لأن أهم ما هو واقع في هذا الإطار هو تلك القوة العلمية أو الاستعداد الفطري الذي وهبه الله تعالى لسيدنا آدم في المقدرة على إستيعاب هذا العلم والتفاعل مع معطياته والذي ورثته منه الإنسانية.

وفي نفس هذا المجال يقول الشيخ عبده: "ثم ان هذه القوة العلمية عامة في النوع الآدمي كله، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناءه الأسماء من أول يوم، فيكفي ثبوت هذه القوة لهم معرفة الاشياء بالبحث والاستدلال". (1)

وفيما نُقل عنه في المنار قوله: "إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج " **وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)** " **(سورة البقرة)** (2)، يؤكد على ذلك ما ورد في سورة العلق حيث قال تبارك وتعالى: " **خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ** " إلى قوله "**عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ** " ، تلك النقلة في ذكر خلق الإنسان من علق إلى بيان اكتسابه العلم بالتدريج بتعليم الله له إياه، بعد أن كان لا يعلم شيئاً " **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(78)** " **(سورة النحل)** ، فهذه الوسائل والأدوات السمع والأبصار والأفئدة التي تعمل للكسب العلمي التدريجي بعد أن

---

(2) القرآن وقضايا الإنسان، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، تشرين الاول (اكتوبر) 1982م، ص48.
(1) المرجع السابق، القرآن وقضايا الإنسان، ص 48.
(2) المرجع السابق، القرآن وقضايا الإنسان، ص 48.

كان قابلية واستعداداً مضمرين في تلك العلقة، وقد ذكر العلق هنا بالجمع كما ذكر الزمخشري في الكشاف "مع انه خلقه من علقه لإن الإنسان في معنى الجمع" .(3)

فهذا بيان إلى عامة الإنسان عن كيفية اكتساب هذه القوة التعليمية بما بثه الله في تلك العلقة من أسرار الاهتداء إلى العلوم واستخدامها في خدمة الإنسان ونفعه، لمَّا تتهيأ له ظروف الاكتشاف باستواء إنسانيته واكتمالها، فالعلقة هي مكمن القوى المتباينة في الإنسان ، تبرز تلك القوى تدريجياً في مراحل حياته المختلفة "ومعنى (خلق الإنسان من علق) أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الإختلاط ومضى مدة كافة تصيران علقة فإذا صارت علقة فقد أخذت في اطوار التكون، فجُعلت العلقة مبدأ الخلق ولم تُجعل النطفة مبدأ الخلق لأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة، فلا يتخلق الجنين، وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال رشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها العلم والكتابة". (1)

ومع أن هذا الكلام لا ينطوي على كثير من الدقة العلمية ، والسؤال المطروح اليوم ، هل العلقة هي مكمن هذا القوى ، أم أنها النطفة هي التي تحتوي على تلك القوى والمدركات ونترك مثل هذه الاجابة هنا .. كما نتحدث قليلاً عن هذا الموضوع في الفصل القادم .

ومن هنا فقد اختلف العلماء ايضاً في كيفية تلقي آدم لهذا التعليم فمنهم من ذهب إلى أنها عملية تلقينية مباشرة كما نوه إلى ذلك الشيخ الشعراوي في تفسيره قوله تعالى: "وعلم آدم الاسماء كلها" حيث يستدل على هذا التلقين بقوله "ان الكلام ناتج السمع، واللغة ناتج البيئة، والله سبحانه وتعالى علم آدم الاسماء، وهذا العلم لا يمكن ان يأتي إلا إذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه، ثم نطق، فإذا أنت أتيت بطفل عربي وتركته في لندن مثلاً فتراه يتكلم الانجليزية بطلاقه ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية والعكس صحيح.

---

(3) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المجلد الرابع ، ص782 .

(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الثلاثون ، ص438.

اذن فاللغة ليست وراثة ولا جنساً ولا بيئة ولكنها محاكاة يسمعها الإنسان فينطق بها". (1)

ومن هؤلاء المفسرين والعلماء من انكر هذه العملية التلقينية بشدة كما ذهب إلى ذلك الأستاذ البهي الخولي حيث يرى أن هذا التعليم لم يكن مباشرة بإعطاء آدم دروس مخصصة عن اسماء الأشياء وخصائصها وإنما هو ما أودع فيه من الاستعداد الفطري ويدلل على رأيه بقوله: ".. وحين نعود إلى معاني التعليم التي اسندها الله إلى ذاته مباشرة ـ أي بدون وساطة ملك أو وحي- فنراها كلها في القرآن الكريم دالة على ما وهبه سبحانه من استعداد فطري للادراك والفهم والالهام والمعرفة".(2)

ويمثل لدعم رأيه بسيدنا يوسف عليه السلام "فلما فسر لصاحبيه في السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال : **" ذلكمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي "** ، أي بعض ما وهب لي من استعداد للعلم والفهم.. ومن البديهي ان ذلك لم يكن دروساً ألقيت عليه، انما هو نور في فطرته جعل له هذا الاستعداد الخاص الذي عبر عنه في أخريات حياته بقوله "رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث" .(3)

ويوّفق المفسر ابن عاشور بين هذين الرأيين بقوله: "ان تعليم الله آدم الاسماء أما بطريقة التلقين بعرض المسمى عليه فإذا رآه لقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه.. أو يكون التعليم بإلقاء علم ضروري في نفس آدم بحيث يخطر في ذهنه اسم شيء عندما يعرض عليه.. وذلك بان خلق قوة النطق فيه وجعله قادراً على وضع اللغة كما قال تعالى : **" خَلَقَ الإنسان (3) عَلَّمَهُ الْبَيَان (4) " (الرحمن)** ، وجميع ذلك تعليم إذ التعليم مصدر علمه إذا جعله ذا علم مثل أدبه فلا ينحصر في التلقين وإن تبادر فيه عرفا".(1)

وقد نبه الدكتور عبد الصبور شاهين بناءاً على رؤيته القائمة على التفريق فيما بين آدم الإنسان، والبشر المخلوقين من قبله عبر ملايين السنين ـ والتي سنتعرض لشيء منها في الفصل القادم- نبه إلى تلك الهوة أو الغفلة عن التمييز بين المرحلتين على أنها قد احدثت خلطاً في مفهوم نشأة اللغة ، حيث أيدت ان نشأتها كان مع وجود سيدنا آدم عليه السلام عند

---

(1) تفسير الشعراوي ، المجلد الأول ص 245.
(2) كتاب آدم عليه السلام ، البهي الخولي ، ص103 .
(3) كتاب آدم عليه السلام، من قصص القرآن، البهي الخولي، ص 103.
(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، الكتاب الثاني ، ص410 .

تلقنه هذا العلم ، بينما يرى في كتابه أبي آدم أن اللغة قد نشأت منذ ملايين السنين مع الخلق الأول للبشر بسبب ما وُهب به من جهاز النطق والذي تطور وترقى نتيجة لمحاكاة البشر للطبيعة بما فيها من أصوات وضوضاء " ولا شك أن البشر كانوا محاطين بأصوات أخرى تصدر عن الطيور والحيوانات، ولهم من دون الخلائق جميعاً قدرة على تقليد الأصوات، ونادر من الطيور ما عرف بتقليد الاصوات (الببغاء) ، أما الإنسان فقد لذ له دائماً التخاطب مع تلك الكائنات ، أو التجاوب معها من باب التسلية أو الترويض ، وقد لاحظ أولئك البشر أن لكل كائن نوعاً من الضوضاء يستخدمه في قيادة القطيع ، أو نداء الأنثى، أو تحذير الصغار، أو مواجهة الأخطار، فلم لا يكونون كذلك ، وهم يملكون قدرة هائلة على التنويع ، وهم -كذلك- يعقلون المعنى الوظيفي للصوت حين ينطلق بوجه من الوجوه، ولم لا يكون تعاملهم مع هذه الكائنات من قناة اللغة، بحيث يضعون لها أسماء تميزها عند التعامل معها.

هكذا تخلقت اللغة خلال ملايين السنين، حتى صارت مكونة من أصوات متشخصة، وكلمات متخصصة، وحتى أصبحت تضم الألوف من الكلمات، بل حتى تنوعت فبلغت عدة لغات أكثر من الفي لغة ينطقها الإنسان الآن، وكلها مبنية على عدد محدد من الأصوات هو غاية ما يصدره جهاز النطق، لا يزيد ولا يتنوع". (1) ويواصل الدكتور عبد الصبور انطلاقاً من هذه الرؤية إلى أن هذه اللغة قد وصلت أوج كمالها في العهد الإنساني الممثل بسيدنا آدم عليه السلام حتى استطاعت أن تُعبر عن معان إنسانية تتوافق مع هذا العهد الذي اتسم بالصفة الرسالية السماوية "والحق الذي نؤمن به هو أن اللغة ظاهرة بشرية معقدة شديدة التعقيد، ظهرت في حياة البشر على مدى الملايين من السنين التي عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام ، وقد بلغت درجة من الكمال باعتبارها أداة تعامل على مشارف العهد الإنساني الآدمي، حتى تحملت ما دار من حوار بين الله وملائكته ، وبين الله وابليس، وبين الله وآدم وحواء ، بكل ما حوته هذه الحوارات من معان دقيقة وراقية ، أقرب شيء إلى التجريد، والتجريد مستوى من الرقي اللغوي لا تعرفه سوى اللغات الحضارية الناضجة التي تجاوزت المحسوس إلى المجرد.

بل أننا حين نقرأ قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد في المعنى ، وثراء اللفظ، حتى أن الإنسانية ما زالت دون بلوغ الأفق الاخلاقي والقيمي الذي عبرت

(1) كتاب ابي آدم (قصة الخليقة بين الاسطورة والحقيقة) الدكتور عبد الصبور شاهين الناشر مكتبة الشباب، ص 123-124.

عنه تلك القصة ، مما يدل على درجة من الحضارة الدينية، بلغها الإنسان في ذلك الزمان، بعد أن كافح ملايين السنين في مرحلته البشرية". [2]

ووجه الحق أن الكثير مما ذهب إليه الدكتور عبد الصبور شاهين يحتمل الحقيقة وينطلق من منطق سديد اذا آمنا واقتنعنا وسلمنا بالرؤية أو الأساس الذي انطلق منه، فإذا كانت اللغة قد تطورت عبر هذه الملايين من السنين ، فإن هذا الاستعداد الفطري في البشر قد أهَّل آدم الإنسان لتلقي العلم الرباني بعد ذلك سواء في استمرار هذه القوة الفطرية فيه أو حتى تبليغه وبشكل تلقيني أشياء جديدة تتناسب مع العهد الجديد والمرحلة القادمة، وأن محاولة المقارنة لكيفية تلقي سيدنا آدم هذا العلم ومن ثم طبيعة تلقي ذريته (الإنسان من بعده) له تعسف لا جدوى من ورائه لإختلاف ظروف كليهما حيث ان نشأة آدم وصناعته على عين الله وهو الخليفة الأول للعهد الجديد في الافق الأعلى تختلف من حيث ملابساتها عن ظروف نشأة ذريته من بعده على وجه هذه البسيطة.

وسواء أكانت هذه الطريقة تلقينية أم قوة واستعداداً في آدم عليه السلام، يبقى جوهر القضية أن هذا العلم هو هبة الله الأولى والأهم للإنسان ومرتكزه الأساس لاعمار الارض، أحيل إلى قوة فطرية في تلك العلقة مادة الخلق الأولى في نشأة ذريته، ولعل رؤية الواقع الإنساني اليوم وازدهار الحضارات ونماءها يؤيد أن العملية التعليمية للإنسان ما هي الإ قوى كامنة واستعداد تام لتلقي العلوم المختلفة تدريجياً واستثمارها في البناء تدرجت معه الحضارات من الألف إلى الياء.

ومن هنا فإننا نذكر في هذا المقام الآيتين الوحيدتين اللتين ربطتا بين العلم وذكر كلمة الإنسان على وجه الخصوص في كل من سورة العلق وسورة الرحمن في قوله تعالى: " **اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1) خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ (2) اقرَأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) " (سورة العلق)** وقوله : " **الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإنسان (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) " (سورة الرحمن) .**

حيث نجد في كلتيهما كيف ابتدأ سبحانه بذكر خلق الإنسان ثم وصفه أو الامتنان عليه بأهم صفة يستقيم بها معاشه المادي على وجه التحديد والتي بها أيضاً يهتدي إلى خالقه " ولكن التحقيق أن أول الاحوال كونه علقة وهي أخس الاشياء وأخر امره هي صيرورته عالماً

---

(2) كتاب أبي آدم، مرجع سابق، ص 125 –126.

بحقائق الاشياء وهي أشرف مراتب المخلوقات، فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس الأشياء إلى أعلى المراتب". [1]

وفي قوله تعالى: **"خَلَقَ الإنسان (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) " (سورة الرحمن)**، نفس الإشارة إلى الآية الأولى وفي هذه الآية ابتدء بذكر الخلق ثم تحدث عن العلم "فالأول اشارة إلى قواه البدنية، والثاني اشارة إلى قواه النطقية" ،[2] "والبيان هو الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية الحيوانات فهو أعظم النعم". [3]

فإن البيان هي خاصية مميزة للإنسان دون غيره من المخلوقات وهي في عرف اللغة تختلف عن مجرد النطق الصوتي الذي يشترك فيه الحيوان مع الإنسان حيث منحها الله الأجهزة الصوتية " وقد جاء المنطق مضافاً إلى الطير في سورة النمل **" وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) " (سورة النمل)** ، وقد اختلف المفسرون واللغويون في وجه استعمال المنطق للطير، وابن سيده يستشهد بهذه الآية على أن المنطق قد يستعمل لغير الإنسان على حين يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن "النطق.. الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان، ولا يقال للحيوان ناطق إلا مقيداً أو على وجه التشبيه" والواقع أن العربية في توسعها المجازي يسيغ أن نقول: نطق الطير، ونطق الحيوان ونطق الصخر والجماد، بل قد نقول في اللوحة الفنية لرسام بارع، صورة ناطقة، كما نقول في التمثال المنحوت بمهارة من معدن، أو حجر تمثال ناطق، ولكن العربية لا تسند البيان، بمفهومه الخاص إلى حيوان أعجم أو جماد، ومن هنا إختيار لفظ البيان كمصطلح بلاغي، من فن القول الذي هو من خصائص الإنسان وحده" . [1]

ومن هنا ندرك أهمية هذا العلم (علم البيان) الذي خصه الله بالذكر في معرض الامتنان على الإنسان بالآئه في سورة الرحمن، يتجلى ذلك وضوحاً إذا أدركنا أنه جاء تالياً لقوله تعالى: "علم القرآن" فإن في هذه الملازمة بين علم القرآن وعلم البيان، تبيان على

---

(1) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي، الجزء الثاني والثلاثون ، دار احياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ص 16.
(2) تفسير غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 288.
(3) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء السابع والعشرون، ص 233.
(1) القرآن وقضايا الإنسان، مرجع سابق، د. عائشة عبد الرحمن، ص 56.

أهمية البيان للإنسان في عملية التعبير عن تحقيق غايته العليا التي أُنشيء من أجلها بأرقى وسائل التعبير وأسماها وبما يتناسب مع هذه الغاية ذلك أن عِلمه القرآن هو غايته في الأرض.

فهو الدستور الذي يحوي كافة السنن الكونية والقوانين الإجتماعية والنواميس العامة التي يهتدي بها الإنسان في مراحل عمره، حيث أن علم القرآن هو الترجمة الصادقة لهذا الوجود، وما تلازُم علم البيان معه في الآيات في هذه السورة إلا تعبيراً عن أن علم البيان هو الترجمة الفاعلة لإنسانية الإنسان في أداء مهمة الخلافة من خلال علم القرآن في ذات هذا الوجود.

وكما جاء في هذه أهمية علم البيان فقد جاء في الأولى أهمية علم القلم وأهميته الماسةِ في حياة البشرية ، وما لعلم الكتابة من ضرورة لا تساويها ضرورة لتسجيل وتدوين كافة المكتشفات والانجازات التي تمت في التاريخ الإنساني ومنذ بدء الخليقة وما لذلك من دلالة عظيمة على أهمية هذا التسطير للمنجزات الإنسانية عامة.

فكان العلم هو أهم فضيلة تميز بها الإنسان أو أهم قوة مُنِحَت له ثم فُصِّل وبيَّن منه نوعين : علم التعبير عن الذات والمكنون، وتجارب الأشياء ثم المنجزات، وعلم تدوين هذا المكتشف من الفنون والآداب إلى الالات والصناعة.

ويلحظ المرء تلك الصفات القدسية (الأكرم، الرحمن) التي وصف الله بها نفسه خلال منحه لهذا العطاء بقوله في آيات العلق قال تعالى : **"اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(3) "(سورة العلق)** ، فجاءت صفة الأكرم كما في الكشاف "الذي له الكمال في زيادة كرمه على كرم، يُنعم على عباده بالنعم التي لا تحصى.. فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: **" الْأَكْرَم (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) " (سورة العلق)** ، فدل على كمال كَرَمِهِ بأنه عَلَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُونت العلوم ولا قُيدت الحكم ولا ضُبطت أخبار الأوليين ومقالتهم ولا كُتُب الله

المنزلة الا بالكتابة ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به". (1)

وكما قال الفخر الرازي: "كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والأقدار والرزق كرم وربوبية، أما الأكرم هو الذي اعطاك العلم لان العلم هو النهاية في الشرف". (2)

وفي سورة الرحمن حيث عُنونت بأول آية فيها، حيث هي إعلان عن الآء الله ونعمه في هذا الوجود، "ويبدأ معرض الالاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان، ثم يُذكر خلق الإنسان ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى.. البيان.." ،(3) فكل النعم التي ذُكرت في السورة ما هي إلا دلائل رحمته عز وجل بعباده ، أعظمها واجلها تعليم الإنسان منهج حياته ثم تركه ليُبينَ بنفسه عن هذا المنهج بكل سكنة وحركة وكل لفظة وجملة يتفرد بها لسان المقال أو ينطق بها لسان الحال، فالعلم هو أثر من آثار رحمته عز وجل أو هو اول آثار رحمته في الوجود الإنساني، أو هو أول مطلب إنساني حُثَّ إليه الإنسان، ووجِّه خلال هذا البحث إلى أن يكون علمه متواصلاً مع ما في فطرته من حقيقة حتى تكتمل الصورة ويستبين الطريق تجد ذلك في قوله تعالى "اقرأ" ولكن "باسم ربك".

وقد جاءت الاحاديث النبوية تؤيد وتشجع مطلب العلم وتحث عليه بكل صورة وكل شكل ، واذكر هنا إحداها على كثرتها .

وفي سنن أبي داود "حدثنا مسدد بن مسرهد ثنا عبد الله بن داود سمعت عاصم بن رجاء بن حيوة يحدث عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم - لحديث بلغني انك تحدثه عن رسول الله.. ما جئت لحاجة .. قال فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يقول: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً

(1) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، المجلد الرابع، ص 781-782.
(2) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، الجزء الثاني والثلاثون ، دار احياء التراث العربي ،الطبعة الثالثة ص 16-17.
(3) في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، الجزء السادس ، ص3445 .

إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وأن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر". (1)

وفي سنن الترمذي من مثله "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة" قال أبو عيسى هذا حديث حسن. (2)

2- الفطرة:

وإذا كان العلم هو المقوم الرئيس الذي أهَّل الإنسان للخلافة في الأرض فإن الفطرة هي المقوم الأول لجعل هذه الخلافة متحققة للخالق ، فيكون بواسطة وجودها في

أعماق الضمير الإنساني معبوداً للذي منحه أهلية العلم، وتكون فطرته التي أُوجِدَت به وأُوجِدَ معها في ابتداء خلقه هي الحجة الدامغة عليه في تبيان أي سبيل يسلك بعلمه وإلى أي منتهى يصل.

وما قصة سيدنا آدم عليه السلام ونزوعه للاستجابة باستثارة إبليس لخصائص الغريزة المادية فيه وهبوطه إلى الأرض بعد ذلك ، إلا دليل على تلك الفطرة الحية في أعماقه والتي وهبته في ساعة العسرة العودة إلى بارئه بالتوبة وسؤال المغفرة فتلك النزعة نحو التوبة في حقيقتها نزعة التدين القائمة في كل إنسان يتجه من خلالها إلى القوة المحضة والتي تُنقذه من عثرات المادة فيه، ولم تكن عملية الهبوط عقوبة على العصيان فلا عقوبة مع التوبة بين يدي الغفور الرحيم، ولكن تلك التجربة بكل أحداثها وأبعادها ما هي إلا الصورة المُصَغرَّة عن حقيقة الإنسان في مقتبل الأيام ليتعظ ويتدبر ويدرك طبيعته ويغوص في ثناياها ويتحقق من خلالها من كافة نزعاته وغرائزه ويفهم مرامي كل واحدة منها فينمي هذه ويحذر تلك، دليل ذلك أن الله عز وجل لما أعلن مقدم الخليفه حدد مكانه ابتداءاً في الأرض، فكل ما جرى بعد ذلك كان برسم إلهي لا أساس لمعنى العقوبة فيه لتكون تجربة آدم عليه السلام في مبدأ خلقه تجربة عملية له يَقْدر من خلالها على استيعاب مهمته ، وتجربة عملية لأمته تنأى بها عن التخبط في التنظير لطبائع الأشياء من حولها وتتضح علاقتها بها ، ومواقفها منها

---

(1) سنن الترمذي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الثالث ، دار الفكر، ص 317.

بناءاً على طبيعة الإنسان ذاته، فتصبح حياته على الأرض واقعاً مفهوماً منذ بدء الخليقة ومنذ لحظة الإعلان عن مكانته الوجودية.

"أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض، وعن الغواية التي سيتعرض لها من ابليس فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري لأن هناك فرقاً بين الكلام النظري والتجربة ، قد يقال لك الشيء وتوافق عليه من الناحية النظرية، ولكن عندما يأتي الفعل فإنك لا تفعل شيئاً ، إذن فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه لافعل ولا تفعل، والحلال والحرام وإغواء الشيطان والمعصية ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله".[(1)]

وهنا نقف قليلاً أمام الفطرة التي رأبت الصدع ، فَتَذَكَّر الإنسان بعدها ـ ممثلاً في آدم- في حالة العسرة وانقطاع كافة الأسباب المادية المنجية أين الملتجأ وبمن تتم الاستعاذة، وقد تحدثت كثير من الآيات القرآنية الواضحة الدلالة عن ذلك البناء الفطري المغروس في أعماق النفس الإنسانية، ومع أن علماء الغرب قد أكدوا على أن النزعة نحو التدين هي فطرة مغروسة في تلك النفس إلا أن هذا البحث لا يعنيه كثيراً آراء هؤلاء العلماء لاعتماده على مصدرية القرآن في تحديد الطبيعة الإنسانية ، وكذلك تفاوتت المدارس الغربية تفاوتاً ملحوظاً في رؤيتها للإنسان واضطرابها في معرفة حقيقته، غير أنه مما لا بأس فيه ذكر بعض آرائهم التي عجزت عن محاربة حقيقة نزوع النفس الإنسانية نحو الله وأقرت بها.

"يذكر وليم مكدوجل دافع التقديس و نزعة العبودية ويعدها من ضمن النزعات الفطرية في الطبيعة الإنسانية، بل أن بعض العلماء يتجاوز هذا الحد ويثبت جذور التدين الفطري في الجانب الفسيولوجي من الطبيعة الإنسانية مثل الدكتور الكسيس كارل الذي يرجع وجود حاسة التدين إلى افراز الغدة الدرقية مادة النيروسكين في الأوعية الدموية وممن

---

(2) سنن الترمذي محمد بن عيسى ابو عيسى الترمذي السلمي، ، تحقيق احمد محمد شاكر وآخرون ، الجزء الخامس، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص 28.

(1) تفسير الشعراوي، مرجع سابق ، المجلد الأول، ص 258.

يثبت وجود فطرة دينية وليم جيمس غير أنه يرى ان ذلك موجود في الكيان النفسي فيقول مثلاً: "إن الانفعالات الدينية أمور نفسية لها وجودها وتتميز عن بقية الانفعالات المحسوسة الأخرى". (1)

"ويقول بسكال في هذا الصدد: " أن من طبيعة الإنسان أن يؤمن فإذا لم تُقدم له أهداف صائبة سديدة يركز حولها إيمانه وحبه تحول إلى عبادة اهداف خاطئة فاسدة" .(2)

وإذا ما تم استعراض التاريخ الإنساني من مبتدأه إلى منتهاه نجد أن الإنسان كان دائم التطلع نحو السماء او نحو القوة العظمى حتى ولو اختلفت اشكال العبادة "فإن معظم الديانات الأرضية في اثناء سعيها المشبوب نحو الحقيقة الأزلية كانت تؤمن بوجود إله خالق هو إله السماء كما هو في الديانات القديمة كالآرية والسامية والفرعونية وكذلك الهندوسية التي تؤمن بوجود الكائن الأعظم". (3)

"لقد عبد الإنسان في عصور الجهل والجاهلية العديد من الآلهة، فقد عبد الشمس والقمر والكواكب والنجوم ثم عبد البرق والرعد والمطر والعاصفة، كما عبد الأرض والخصوبة.. وبعد عبادة التجسيد في الماديات انتقل الإنسان إلى عبادة التجريد في القيم فخلق الهاً للخير وآخر للشر، كما أقام الهاً للحب والجمال والغنى والحكمة.. وقد ظهرت آثار تلك العبادات في ثقافات الأمم وفنونها من شعر وغناء وموسيقى إلى نحت ورسم ورقص وتمثيل إلى شعائر وطقوس وأساطير.

ففي بلاد الأغريق والرومان كانت فينوس الهة الجمال، وأفردويت الهة الحب.. وهيرا ربة القوة ومارس إله الحرب، ولكي يظل الانسجام قائماً بين هذه الالهة المتعددة ومنعاً لوقوع التناقض فيما بينها، جعلوا فوقها الهاً واحداً ينظمها هو كبير الالهة أي إله السماء زيوس عند الأغريق والذي اسمه جوبتير (المشتري) عند الرومان" .(1)

فإذا كان واقع التاريخ البشري يثبت وجهة التدين في مسيرة الإنسان العامة حتى وإن ضلت في اتخاذ معبودها ، فقد برز في العصر الحديث من ينادي بإنكار الخالق جملة

---

(1) علم النفس التربوي في الاسلام، تأليف د. يوسف القاضي، ود. مقداد يالجن، ص 37.
(2) المرجع السابق، ص 38.
(3) الإنسان والكون، د. مرتضى سمره، ص 68.
(1) الإنسان والكون، د. مرتضى سمره، ص 39.

وتفصيلاً. هنا جاءت الآيات القرآنية لتكشف عن شرك الآخرين بالله أو سترهم بكفرهم لحقيقة وجوده.

ففي سورة العنكبوت كما في سورة لقمان ويونس تبين الآيات بروز فطرة التوحيد أو الإيمان الفطري المترسب في أعماق النفوس لحظة ان تتخلى كافة الأسباب المادية عن نجدة الإنسان فلا يجد سبيلاً لإنكار خالقه وهو في أمس الحاجة إليه يتضح ذلك في قوله تعالى: " **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) "(سورة العنكبوت)، " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23) " (سورة يونس) ، " وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) " (سورة لقمان) .**

ومن الملاحظ من الآيات والخطاب هنا للناس عامة أن اللجوء إلى الله لم يكن لجوء النفاق والإشراك بل لقد أخلص المناجون المناجاة، وأخلصوا له الدين بالاعتراف بألوهيته وربوبيته، فقد انقشعت غشاوات الشرك والكفر عند الحاجة وظهر المخبوء من الفطرة، وان عاد الإنسان لطمر هذه الفطرة وطمسها بمتاع الحياة الدنيا والإغراق في طلب خيراتها فما ذلك إلا لطبيعته النكدة التي تتطاول على التوحيد بالطغيان عند شعورها بالاستغناء تجد ذلك في قوله تعالى: " **كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) " (سورة العلق) .**

ومن الآيات المباشرة والتي يُعنى هذا البحث بها حيث تعلقت بكلمة الإنسان دون غيره من الأوصاف كبشر أو الناس أو أنس..الخ والتي ربطت ما بين عودة الإنسان إلى ما هو مخبوء في داخله من فطرة التوحيد بغض النظر عن طبيعة هذا الإنسان وأفكاره وآراءه ومعتقده عند مساس الضر به وحاجته إلى من يرفعه عنه، قوله تعالى في (سورة يونس) آية (12) " **وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** ،وقوله تعالى في (سورة

الزمر) الآية (8) : **" وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار "** ، والآية (49) من نفس السورة: **" فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ "** ، وقوله تعالى في الآية (51) من (سورة فصلت) : **" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ " .**

وفي سورة الإسراء والتي تبرز صورة الإنسان الذي يسعى دائماً لستر الحقائق حتى لا يضطره الاعتراف بها للالتزام بها والدَّينوية لها قوله تعالى: **" وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً (67) " (سورة الإسراء)** ، ونلحظ إلحاح الإنسان بالدعاء عند مساس الضر به وفي الآية: **" وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون (12) " (سورة يونس)** ، يصور الله عز وجل صورة الإنسان في أحوال ثلاث "وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الإنسان عنها عادة، أو دعانا في جميع أحوال مرضه على أنه بالمراد بالضر خاصة مضطجعاً عاجزاً عن القعود وقاعداً غير قادر على النهوض وقائماً لا يستطيع الحراك". [1]

وفي الآية السابقة لهذه الآية في سورة يونس قوله تعالى: **" وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) " (سورة يونس)** ، بيان صريح على أن الإنسان كبراً أو بطراً وطغياناً قد يستعجل الشر بأنواعه ولكنه عندما يلحق به ادنى أذى أو ضر يلجأ إلى الله على أي وجه أو شاكلة موحداً له من خلال هذا اللجوء، "هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم

---

(1) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ص 126 .

الدنيا من خير وشر ونفع وضر، وشعورهم بالحاجة إلى الله تعالى واللجوء إلى دعائه لانفسهم وعليها، واستعجالهم الأمور قبل أوانها، وهو تعريض بالمشركين وحجة على ما يأتون من شرك وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ولذلك عطف عليه".[2] و"هذا بيان لغريزة الإنسان العامة وشأنه فيما يمسه من الضر، يعلم منه استعجال أولئك الناس الشر تعجيزاً لنبيهم ومبالغة في تكذيبه إنما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم ، فهو يقول أن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أنواع التهلكة، أو شدة مسغبة، او إعضال داء، دعانا ملحاً في كشفه عنه في كل حال يكون عليه دعانا مضطجعاً

لجنبه أو قاعداً أو قائماً على قدميه حائراً في أمره، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ولذعه له، ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون فيها اشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فالتي تليها فالتي تليها" .[1] ولعل مثل هذا التوجه إلى الله تعالى في لحظات الحاجة ثم الإعراض والمرورعن هذا اللجوء كما توضح الآية، وكأنه لم يحدث قط جبلة في طبيعة الإنسان المسرف المتجاوز للحد ، فهو طالب للحياة الدنيا وبما فيها من نعماء بإسراف شديد بحيث أنه على أتم الاستعداد للدفع ثمناً لهذا المتاع حتى لحظات اليقظة في نفسه وبروز التوحيد إلى سطح إنسانيته من أعماق قلبه إن جاز التعبير بذلك فما ان يحصل على مراده من دفع الضر أو إبقاء للروح في الجسد كما في قوله تعالى في حالة ضر موج البحر المهلك " **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً (67) " (سورة الإسراء)** ، حتى يعود إلى الافراط في اسرافه هذا المُزين له من قبل الشيطان، وبما فيه من غريزة حب الملك "قال صاحب النظم: قوله "وإذا مس الإنسان" " إذا " موضوعة للمستقبل ثم قال "فلما كشفنا" وهذا للماضي، فهذا النظم يدل على أن معنى الآية انه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل. فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى

(2) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار محمد رشيد رضا، الجزء الحادي عشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان، ص311.
(1) تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، ص 311.

الماضي، وأقول البرهان العقلي مساعد على هذا المعنى، وذلك لأن الإنسان جُبِل على الضعف والعجز وقلة الصبر ، وجبل أيضاً على الغرور والبطر

والنسيان والتمرد والعتو، فاذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وأظهار الخضوع والإنقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان، فنسي إحسان الله تعالى إليه، ووقع في البغض والطغيان والجحود والكفران فهذه الأصول من نتائج طبيعته ولوازم خلقته" .(1) فإن وصف الإنسان في حالته هذه بالإسراف جاء لحكمة عظيمة "فإن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لاجل الغرض الخسيس ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جداً في مقابلة سعادات الدار الآخرة والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة عندما بدل هذه الآء الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة كان قد انفق أشياء عظيمة كثيرة لاجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة فوجب ان يكون من المسرفين" ،(2) وحالة الإنسان هنا أنه قد انفق فطرة التوحيد كلها والتي قد جُبِلَ عليها عنوة لتسانده في إدراك طبيعة علاقته مع هذا الكون والوجود ، قد انفقها مع أنها قد برزت له واضحة بيِّنة تثبت له علاقته الموحدة لله ، في سبيل متع الحياة الدنيا ومدى تملكه فيها.

إلا أن الآية في ذات الوقت وفي تعبيرها تترك مجالاً للإيقاظ والإرتقاء بهذه الجبلة الطينية فهي ليست جبرية المعنى، يقول صاحب " التحرير والتنوير " في ذلك: "كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون" إذ جعلها حالاً للمسرفين وإذ عبر عن عملهم بلفظ (كانوا) الدال على أنه عملهم في ماضي أزمانهم، ولذلك جيء في شرطها وجوابها وما عطف عليهما بأفعال المضي لأن كون ذلك حالهم فيما مضى أدخل في تسجيله عليهم فيما لو فرض ذلك في حالهم في المستقبل إذ لعل فيهم من يتعظ بهذه الآية فيقطع عن عمله هذا أو يساق إلى النظر في الحقيقة ولهذا فرَّع عليه جملة "فلما كشفنا عنه ضره مرّ" اذ الحالة الأولى وهو المفرع عليها حالة محمودة لولا ما يعقبها" .(1) ثم ان الضر قد يكون أي نوع من المكاره التي قد تصيب الإنسان من مرض وفقر وغرق وغيره وقد حدد تعالى من أنواع هذا الضر الذي قد يصيب الإنسان ضر البحر لما في هذه الحالة من الإثبات المطلق والحجة الدامغة على

(1) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي، مرجع سابق، الجزء السابع عشر، الطبعة الأولى ، ص 52.
(2) المرجع السابق، الجزء السابع عشر، ص 53.

انفراده عز وجل بالتصرف، فقد ضلت كل الأسباب التي يعتقدون أنها تمنح الحياة عن انقاذهم الا الله وقد جوَّز العلماء أن يكون الاستثناء متصل في قوله تعالى: " **ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ " (67) (سورة الإسراء)** ، بمعنى أنه "ذهب عن أوهامكم حكم كل من تدعونه في حوادثكم إلا اياه وحده" ،[2] أو أن يكون الأستثناء منقطعاً "لانه تعالى لم يندرج في من تدعون إذ المعنى ضلت الهتهم أي معبوداتهم وهم لا يعبدون الله تعالى" [3]، وسواء كانت دعوتهم لله عن معرفة به من خلال اشراكهم اياه مع معبوداتهم الأخرى على الاستثناء المتصل أو من خلال انكاره جملة وتفصيلاً على الاستثناء المنقطع فقد عادوا إليه وما ذكروا سواه لحظة الاشراف على الموت لإنقاذهم ولا يجب علينا قصر ما كانوا يدعون من قبل على الأصنام والآلهة بحجة ان (مَن) في الآية تستخدم للعاقل ، فالمراد والله اعلم (بمَن) أي من الأسباب التي يعتقدون بأنها تمنح وتعطي ، فصورت بالعاقل والمراد بضلالتهم "غيبتهم عن الفكر لا

عن النظر والحس" ،[1] "فالضلال راجع إلى الذكر.. يقال ضل عن خاطري كذا إذا لم اتذكره فانه ضلال له" .[2] "أو بمعنى عدم الاهتداء إليه كأنه قيل ضل عن محجة الصواب في إنقاذكم ولم يقدر على ذلك". [3]

" إنهم كالطفل الذي يرى اشكالاً معينة في المرآة ويحسبها موجودة بشكل مستقل ويتعلق بها وما لم تنكسر المرآة فلن يفهم أن لا صورة في المرآة بل هي خارج المرآة ولم تكن المرآة سوى عاكسة لها فما لم ينقطع ارتباط الإنسان بالأسباب الظاهرية فلن يعلم أن المسبب الواقعي هو الله سبحانه وتعالى وأن ربوبيته المطلقة هي التي تظهر بمظاهر مختلفة لا الأسباب الصورية والأنساب الاعتبارية" .[4]

أما وصف الله سبحانه وتعالى للإنسان في ذيل الآية بالكفور على صيغة المبالغة تعجيباً من تناقض حاله يلجأ إلى الله مدركاً لعلاقته به ثم يعرض "عن توحيده جل وعلا أو

---

(1) تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، ص 111.
(2) تفسير الاساس في التفسير تأليف سعيد حوى، المجلد السادس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 3089.
(3) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لابي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، المجلد الثامن ، دار الكتب العلمية ضبطه وحققه علي عبد الباري عطية ، ص 109.
(1) روح المعاني للآلوسي، مرجع سابق، المجلد الثامن ، ص 109.
(2) روح المعاني للآلوسي، مرجع سابق، المجلد الثامن ، ص 190.
(3) روح المعاني للآلوسي، مرجع سابق، المجلد الثامن ، ص 190.
(4) العقيدة من خلال الفطرة في القرآن (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) تأليف آية الله جوادي آملي ، ترجمة دار الصفوة ، دار الصفوة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1415هـ-1998م ، ص 65.

عن شكره عز وجل بتوحيده وطاعته سبحانه، أو توسعتم في كفران النعمة على أنه من العرض مقابل الطول... وكأنه أريد اعرضتم واستطلتم في الكفران إلا أنه استغنى بذكر العرض عن ذكر الطول للزومه له".[5] وصفة الأعراض قد جاءت ايضاً في آية فصلت بذات المعنى ، وذُيلت الآية بوصف دعائه عند حاجته بقوله "أنه ذو دعاء عريض" "فقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه كما استعير الغلظ بشدة العذاب" .[1] "فالشيء العريض هو المتسع مساحة العرض فشبه الدعاء المتكرر الملحّ فيه بالثوب أو بالمكان العريض" .[2] "وعدل عن ان يقال: فداع، إلى (ذو دعاء) لما تشعر به كلمة (ذو) من ملازمة الدعاء له وتمكنه منه" .[3]

والتعريف بالإنسان في آية ضر البحر "تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق، فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقاً عرفياً بحمله على غالب نوع الإنسان وهم أهل الاشراك، وهم أكثر الناس يومئذ، فتكون صيغة المبالغة من قوله (كفوراً) راجعة إلى قوة صفة الكفران أو عدم الشكر ، فإن اعلاه اشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظ له فيها ويجوز ان يكون الإستغراق حقيقياً، أي كان نوع الإنسان كفورا، أي غير خال من الكفران فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها، وكثرة كفران الإنسان هي تكرار إعراضه عن الشكر في موضع الشكر ضلالاً أو سهواً أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارنة دون منعمها ولفرضه مُنْعِمين وهميين لاحظ لهما في الإنعام" .[4] "وذكر فعل (كان) اشارة إلى أن الكفران مستقرفي جبلة هذا الإنسان لإن الإنسان قلما يشعر بما وراء عالم الحس فإن الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكير فيما

عدا ذلك من المعاني المستقره في الحافظة والمستنبطة بالفكر". [1]

---

(5) تفسير روح المعاني للآلوسي، مرجع سابق، المجلد الثامن ، ص 190.
(1) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 210-211.
(2) الكشاف ، مرجع سابق ، المجلد الرابع ، ص210-211 .
(3) الكشاف ، مرجع سابق ، المجلد الرابع ، ص210-211 .
(4) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الخامس عشر ، ص160.

(1) المرجع السابق الجزء الخامس عشر ، ص 161.

ومعنى كلمة كفور كما وردت في (مفردات) الراغب من الجذر كفر: " الكفر في اللغة : ستر الشيء ، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، والزرّاع لستره البذر في الأرض.. وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: **فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (94) " (سورة الأنبياء)** ، وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً قال: **" فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (99) " (سورة الإسراء)** ، **" فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (50) " (سورة الفرقان)** .[2]

ويبدو أن ما ينطبق على الإنسان في آية الاسراء ينطبق هنا على بقية الآيات وخاصة كون نوع الإنسان بجملته كفوراً على تفاوت حالات الكفران هذه، نلحظ ذلك في ردة فعل هذا الإنسان كلما خوله ربه نعمة ما، والخائل في لسان العرب: "الحافظ للشيء ، يقال: فلان يَخُول على أهله وعياله أي يرعى عليهم".[3] "وخوله المال أي اعطاه اياه ، وقيل اعطاه اياه تفضلاً ، وخوله الله نعمة: ملكه إياها والخائل: الراعي للشيء الحافظ له".[4] فالإنسان عندما ينعم الله عليه نعمة ما يُمَلّكه إياها ، يرعاها ويحفظها لحرصه وحبه للملك ولكنه في ذات الوقت له ثلاثة مواقف من منعمه كما جاء في آيتي سورة الزمر الثامنة والتاسعة والاربعين، فهو أولاً ينسى ما كان يدعو إليه من قبل وثانياً يجعل لله انداداً فما عاد يفرده بالتوحيد كما سبق في لحظات الحاجة اعترافاً منه أنه صاحب الملك وحده القادر على التصرف بالعطاء ومنحه للانسان وصرفه عنه وثالثاً ادعاءه أن هذا الملك ناتج عن علمه وقدرته في التصرف بالأسباب الموجبة له كما قال تعالى : **" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ "** ، ومن هنا تتضح صفة الكفران الشديد والإسراف في تجاوز حدود الفطرة التي قد ايقظت التوحيد في نفسه من خلال اللجوء اليه سبحانه وتعالى خاصة إذا قرأنا في الآية قوله تعالى: **" وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) " (سورة الزمر)** ، فدعاؤه كان عن إنابة "أي راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك الضر، لان الإنابة هي الرجوع"

(2) مفردات الفاظ القرآن تأليف العلامة الراغب الأصفهاني تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1418هـ-1997م، ص 714.
(3) لسان العرب، الفضل جمال الدين محمد بن مكرم, دار صادر, بيروت ,الجزء الثاني، ص 333.
(4) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 333.

،[1] فهو دعاء لله يذكره دائماً وليس استحداث لخالق يلجأ اليه عندما يشعر بضعفه، يؤيد هذا القول وصفه سبحانه وتعالى لرسله عموماً ولسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - خصوصاً بانه مُذَكِّرْ ، أي أنه لم يأتِ مستحدثاً لهم أمراً لم يعرفوه من قبل بل جاء يذكرهم بمكنون أنفسهم ترى ذلك في قوله تعالى :" **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) (سورة الغاشية)** ، "فالسمة الرسمية للنبي هي التذكرة "أنما انت مذكر" والهدف الأساس للشيطان هو الإنساء "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله" ،[2] "وبما ان تذكرة الرسول تقع على حدود رسالته – صلى الله عليه وسلم - وحدود رسالته تشمل كل الإنسانية بكافريها، وملحديها ومؤمنيها، فسيتضح أن للجميع سابق معرفة بالأصول العامة للدين، وقد نزل الوحي لإحياء هذه المعارف الكامنة، والرسول الأكرم يحيى هذه الأمور المكنونة بصفته مذكرا " ،[1] "وهذا يدل على ان أصول الاعتقاد بالله وكذلك الخضوع أزاء الاعتقاد بالله بل أن الأساس العام للدين أمر فطري كما جاء في سورة الروم " **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) " (سورة الروم)** ، بمعنى أن الخطوط العامة، والأصول الأولية للدين مختزنة في باطن كل إنسان، وإذا شاهد الإنسان نفسه في معرض الخطر توسل بالمبدأ المنزه من كل انواع العيب والنقص". [2]

ويؤيد هذا الأمر المعنى اللغوي لكلمة فطرة ففي الراغب أن "أصل الفَطْر: الشَّقُّ طُولاً، يقال: فَطَرَ فلان كذا فَطْراً، وأَفْطَرَ هو فُطُوراً، وانْفَطَرَ انْفِطَاراً، قال تعالى: " **هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) " (سورة الملك)** ، أي: اخْتِلالٍ ووَهْيٌ فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد ، وقد يكون على سبيل الصلاح ، قال: "**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18) (سورة المزمل)** ، وفَطَرْتُ الشاةَ: حَلَبْتُهَا بأصبعين، وَفَطَرْتُ العَجِيَن: إذا عجنته فخبزته من وقته، ومنه: الفطْرةُ وَفَطْرُ اللهِ الخَلْقَ، وهو إيجادهُ الشيءَ وَإبْداعُه على هيئة مُتَرَشِّحة لِفِعْلٍ من الأفعال ، فقوله : " **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30) " (سورة الروم)**. إشارة منه تعالى إلى ما فطر. أي: أبْدَعَ وركَز في النّاس من مَعْرِفَتِه تعالى، وفِطْرةُ الله: هي ما رَكَزَ

(1) تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق، الجزء السادس والعشرين، ص 249.
(2) العقيدة من خلال الفطرة في القرآن, مرجع سابق, تأليف آية الله جوادي آملي, ص249
(1) المرجع السابق، ص 51-52.
(2) المرجع السابق، ص 57.

فيه من قُوّتِه على مَعْرِفَةِ الإيمان وهو المشار إليه بقوله: **" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) " (سورة الزخرف).**[1]

وقد اختلف العلماء في معنى الفطرة على أوجه عدة ، جُمْعَت هذه التفسيرات للفطرة في تفسير القرطبي والذي رجح أن تكون بمعنى سلامة الخِلْقَة من غير كفر أو إيمان ومن غير معرفة او انكار، وحاول التوفيق بين هذا المعنى وبين القول بإن الفطرة هي الاسلام، وإن كان هذا البحث لا يمكنه الخوض في مثل هذه الاختلافات وإدلة كل فريق إلا أن الارجح والأسلم أن تكون الفطرة بمعنى الإسلام استناداً إلى الآيات والأحاديث الواضحة الدلالة في ذلك فقوله – صلى الله عليه وسلم - في الحديث المشهور: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها من جدعاء" وفي لفظ مسلم: "ما من مولود يولد الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصراه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء". [2] فإن مثل هذه الأحاديث لم تقل أن الأبوين يأسلمان الإنسان لأنه في الأصل قد ولد مسلماً استمر على الفطرة ، على عكس الأديان الأخرى التي تغير الطفل من الإسلام إلى دين مخالف "فالمقصود بالتنصير والتهويد والتمجيس والتشريك –في بعض الروايات- محاولة طمس التوحيد الفطري الذي ولد عليه كل مولود ، فالتوحيد هو مفرق الطريق بين الإسلام والأديان الأخر، ولم يؤمر أهل الكتاب الا بعبادة الله الواحد الذي تضمنه ميثاق الفطرة ، الا أنهم انحرفوا عن ذلك بعدما جاءتهم البينة قال تعالى : **" وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) " (سورة البينة)**[1] ، كما يشير القرآن إلى أن "عقيدة التوحيد هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولذلك فإن التوحيد هو المعيار الأعلى للتقييم الآلهي للإنسان كما جاء في قوله تعالى: **" إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً (48) " (سورة النساء)** ، ان الله لا يغفر للإنسان أن يشرك به، لأن الإنسان الذي ينحرف عن التوحيد إلى الشرك يشّوه الحقيقة الإلهية، والطبيعة الإنسانية **" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا**

---

(1) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 640.
(2) نقلا من كتاب فطرة الله التي فطر الناس عليها تأليف د. احمد حسن فرحات، دار البشير، عمان 1407هـ-1987م، ص 29.
(1) المرجع السابق، ص 32.

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) " (سورة الروم) . (2)

كما وأن آية الفطرة هذه اذا ما قارناها ببعض الآيات التي تحدثت عن معنى الدين القيم في قوله تعالى: **" وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) " (سورة يونس)** ، **" مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(40) " (سورة يوسف)** ، **" قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) " (سورة الأنعام)** ، وغيرها من الآيات في سورة الروم والاعراف والأنعام نجد: "ان ما جاء في هذه الآيات لا يدع مجالاً لتعدد التفسيرات حيث تنص كلها على وجوب إقامة الوجه للدين حنيفاً وعدم الإشراك بالله ، وإن الدين القيم عبـــادة الله وحده وهو ملـة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، وهذا يعني أن المقصود بالفطرة هو : التوحيد وعدم الإشـراك وعلى هذا يكون الإسلام الذي فُسرت به الفطرة إنما هو التوحيد الفطري الغريزي الذي ابتدأ الله عليه الخلق وليس المقصود به كل تعاليم الاسلام".[1] والذي يعنينا في هذا البحث إن الفطرة على معنى التوحيد لله عز وجل ثابتة مستقرة في أعماق الإنسان لا تتغير ولا تتبدل فهو في إمامته وخلافته مسؤول عن أداء هذه الإمامة لخالقه وحده دون غيره، تبرز صورة استعداده هذا في لحظات ضعفه عن تلبية حاجاته ، فإن كان "ضغط البيئة من جانب واستعداد الطفل من جانب آخر للتقليد يساعدان كلاهما على الانحراف عن سواء الفطرة كما أن الأغراق في الانحراف واكتساب المعاصي يستر الفطرة ويخفيها حتى ليُظن أنها قد تغيرت وتبدلت أو أصابها الفساد والاختلال ، ولكن القرآن يخبرنا أن الفطرة تبقى تحت هذا الركام الهائل من الانحراف **" كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) " (سورة المطففين)** وأنها حينما تجد الفرصة مناسبة فإنها تتكلم معلنة عن نفسها".[2] فيدرك الإنسان من خلال رسالة الفطرة في نفسه أصول علاقته مع خالق هذا الكون فأما أن يعمد على تزكية نفسه ليرقى إلى مستوى أداء أمانته وأما أن يظلمها بأن يدس فطرته ويدفنها تحت الركام ويعود ليتجاهل تلك العلاقة ليبقى اعماره في الكون في الإطار المادي الالحادي ظناً منه أنه قد أُوتى ما أُوتى عن علم خاص به غروراً

(2) الإسلام والإنسان ، د.حسن صعب .
(1) فطرة الله التي فطر الناس عليها، مرجع سابق، ص 31.
(2) المرجع السابق، ص 42-43.

وبطراً لا عن علم وُهب إياه من خالقه، وعلى هذا جاء الدستور القرآني شاملاً في عملية الوعظ والإرشاد ليقف بالإنسان على سواء السبيل، فينتبه إلى مكانته الوجودية ، ومؤهلاته المادية والمعنوية ، فلا يعتني بواحدة على حساب الأخرى، ويدرك أنه بهما معاً يتحقق له وجوده الأكمل على وجه هذه البسيطة موصولاً بالوجود الآخروي في الدار الآخرة.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

خلق الإنسان : بين قبضة الطين ونفخة الروح

دعوة للتأمل

في معرض استخلاف الإنسان في الأرض واثبات دوره كحقيقة خالدة لمغزى وجوده وجعل خلافته السبب الأول لهذا الوجود مع بيان كافة الأسلحة التي زُود بها لدفعه لتحقيق مكانته وأداء مهمة خلقه ، من تزويد بالعلم إلى ربط وثيق مع سر الحياة من خلال الفطرة، كانت آيات القرآن دائماً ولا زالت دعوة مفتوحة له للتأمل والتدبر لصعود سلم الكمال ما استطاع ، فابتدأت تلك الدعوة عندما خاطبت الإنسان بصفته إنساناً للاستكشاف والبحث والنظر والاستدلال من خلال القرآن بقراءته قراءة متأنية واعية، لا تخلو حتى من مقارنة آياته بالتجارب العلمية ونتائجها ، وهنا يبرز التحدي الخالص لان تتناقض أي سنة علمية أو غير علمية من سنن الحياة ونواميس الكون مع آياته ومفرداته ، وقبل هذا وذاك مع بناءه للأفكار والمنظومات المختلفة في الموضوع الواحد وفي المواضيع المتعددة ، ابتدأت تلك الدعوة التأملية للإنسان للنظر في خلقه هو ذاته والخلق بشكل عام قال تعالى : " **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (20) " (سورة العنكبوت)** وبرزت في صورة الاستفهام التقريري في قوله تعالى : **"هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) " (سورة الإنسان)** ، وفي قوله تعالى : **" فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ(5) " (سورة الطارق)** ، وآيات أخر كثر.

وكان مبرر مثل هذه الدعوة التأملية للإنسان حتى يتزود ويقترب من خلال تجاربه الخاصة به إلى مكمن الحقيقة وتتضح له معالم الطريق ، من خلال تعرُّفه على طبيعة الحياة ومدى ارتباطها بالخالق ـ هذه القوى المهيمنة ـ والتي لا يجد عنها فكاكاً خاصة مع الحاجات الفطرية التي قد زُود بها كُرهاً حتى لا يبقى له حجة للتخبط والضلال فيتصل بالحقيقة المطلقة طوعاً وقناعة.

كثيرةٌ هي المفاتيح التي قد سُلمت للإنسان كان من أهمها ولا زال مبدأ خلقه وطبيعته والحث المتزايد للتأمل في هذا وذاك والوصل بينهما لإدراك ان عظمة هذا المخلوق متأكدة بمدى ارتباطه بالأفق الأعلى.

نظرة على الأطوار:

ولقد جاءت تأكيدات الآيات القرآنية على طبيعة خلق الإنسان ومراحل هذا الخلق، وبيان مبدأ سلالة الطين في هذه العملية، وما يتبعها من مراحل متعددة من نطفة وعلقة وصولاً إلى حالة تكوين الإنسان بصورته السوية لتسود بحقائقها على ما دار في خلد كثير من العلماء وأروقة العلم من أفكار وآراء تُوجت بفكرة التطور والتي انقسم القائلون بها إلى قسمين: "منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التي تشتمل على النبات والحيوان والإنسان، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية "[1] غير ان "القائلين بتطور الكائنات العضوية يميلون على الأغلب الأعم إلى القصد في التفسيرات والتعليلات، ويتجنبون البحث في الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعي الحديث، وخلاصة مذهبهم ان أنواع الأحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية، وإنها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي الخلايا البدائية.

وليس القول بتقارب الأنواع أو تدرجها رأياً حديثاً مجهولاً قبل ظهور مذهب دارون أو مذهب النشوئيين العصريين على العموم، ولكنه رأي قديم قال به فلاسفة اليونان، وعرفه مفكرو العرب..وإنما الجديد منه إسناده إلى أسباب العلوم الطبيعية التي شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمي على مناهج العلماء والمحدثين". [1]

إن كلتا الفرقتين الحديثتين تتجنب دائماً في بيانها لفكرة التطور والنشوء التعرض للأسباب الأولية لعملية الخلق، فإذا كان الشيء ناتجاً من خلية بدائية فالسؤال الذي يطرح نفسه من أين نشأت الخلية ابتداءً وأي قوة أوجدتها ؟ وإذا كان الإنسان متطوراً عن أمثال هذه الخلايا إلى ان تدرج لمستوى القرد، فما هو منبت هذه الخلايا؟ وهل استطاع العلم ان يحل

---

(1) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ص 70.
(1) المرجع السابق، ص 73.

لغز الحلقة المفقودة والتي اعترف بها علماء النشوء والارتقاء أنفسهم فيما بين القردة والإنسان؟ عدا عن اعترافات أُخرى كثيرة أودت بكثير من نظرياتهم في مهاوي الردى. وان كان "قد سبق القول بالتطور وتدرُج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها.. ولكن لعلة غير تلك العلة ، مردها – على الأرجح – إلى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء".[1] فقد تحدث القرآن عن الأطوار في عملية الخلق ومفاضلة الإنسان في المستوى الوظيفي والدور المطلوب تحقيقه، غير ان ترتيب الحقائق القرآنية في هذا وَرَدِّ الخلق للخالق ، يختلف في مضمونه وشكله عن النظريات العلمية تلك ، مما يساهم هذا البحث في تناوله دون الغوص الدقيق في ثناياه لما فيه من ترتيبات واعجازات يصعب تثبيتها وتناولها بالشرح المستفيض لأسباب عدة.

قدوم من العدم وبداية من الطين:

جاءت الآيات القرآنية في هذا الصدد ، وضمن جواب على تساؤل الإنسان نفسه في قوله تعالى: **" وَيَقُولُ الإنسان أإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّا (66) أوَلا يَذْكُرُ الإنسان أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67) " (سورة مريم)** ، لبيان ان الإنسان قد وجد من العدم، بعد أن تساءل مستغرباً عن كيفية إعادته بعد فنائه، ففي التقريب الإلهي للذهن الإنساني بينت الآية الكريمة ان إعادة الخلق أهون على الله من إنشائه أصلا "والمراد من الإخراج من الأرض أو من حال الفناء، والخروج على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز عن الانتقال من حال إلى أخرى" [2]، ويأتي ذيل الآية (**وَلَمْ يَكُ شَيْئاً**) إنكاراً واضحاً لعملية الصدفة أو التطور على مذهب العلماء المحدثين، " أي والحال أنه لم يكن حينئذ موجوداً فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفاً بالوجود في وقت على ما اختاره بعض أهل

السنة.. أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير". [1]

وفي تفسير غرائب القرآن يشرح النيسابوري ذلك بقوله " **وَلَمْ يَكُ شَيْئاً**" لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئاً يعتد به كالنطفة، أو كالجواهر التي لم تتألف بعد، كما في نفي استبعاد زكريا، لان خلق الذات ثم تغييرها في أطوار الصفات ليس أهون من تبديل الصفات

(1) المرجع السابق ، ص 83 .
(2) روح المعاني للآلوسي، المجلد الثامن، ص 434.
(1) المرجع السابق، المجلد الثامن، ص 434.

وهو إحداث القوة المولدة في زكريا وصاحبته بعد ان لم تكن" [2]، في قولـه تعالى: **" قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9) " (سورة مريم)** " والشيء هو الموجود ، أي إنا خلقناه ولم يك موجوداً" .[3] وقوله **" أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (67) " (سورة مريم)** ، **"أي** من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه"[4]، "وهي حالة وجوده واستمراره"[5] ، والتقدير كما في التحرير والتنوير: " أنا خلقناه من قبل كل حالة هو عليها". [6]

ومن اللافت للانتباه في هذا الرد الإلهي في الآية على مقالة الإنسان هذه من حيث أنها ابتدأت بالتذكير في قولـه تعالى : **" أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67) " (سورة مريم)** ، تلك الدعوة إلى تذكر الإنسان أن منشأه كان من العدم وتم وجوده بيد الخالق الكريم فهي توحي بأن مثل هذا الأمر مركوز في أعماق النفس لا يحتاج من الإنسان سوى نفض الغبار عنه لبروزه إلى الذاكرة بعد ان كان منسياً وكأنها

قضية بدهية لدرجة أنها تحتاج هنا إلى التذكر اكثر منها إلى التأمل والتدبر فيها، كما أنها وضمن سياق الآيات دليل على القدرة على البعث واثباته من حيث ان الإعادة أهون من الإنشاء، "ولما كان الإنسان لا يصدر عنه هذا الإنكار إلا إذا لم يتذكر أو لم يذكر النشأة الأولى قال سبحانه منبهاً على ذلك " **أَوَلَا يَذْكُرُ** "،[1] وفي قولـه تعالى:**" أَوَلَا يَذْكُرُ (67) " (سورة مريم)** ، "إشارة إلى أن موضوع الإيمان باليوم الآخر من البداهة بحيث يكفي حتى يتيقنه الإنسان أن يتذكر بدهيات قريبة جداً، ومن ثم لا يذكر الله عز وجل إلا آية واحدة في الرد، ثم انتقل السياق إلى الإنذار ثم التبشير"[2]، كذلك يبدو الحال بالنسبة لكيفية النشأة فيكفي لتيقُنِها هذا التذكر.

وفي المقابل فقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى : **(أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسان)** "من الذكر الذي يراد به التفكر، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية

---

(2) تفسير غرائب القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 472.
(3) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء السادس عشر، ص 145.
(4) روح المعاني، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص 434.
(5) الاساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 3298.
(6) التحرير، مرجع سابق، الجزء السادس عشر، ص 146.
(1) غرائب القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 501.
(2) الاساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 3298-3299.

من دواعي التفكير فيما جرى عليه من شؤون التكوين المانعة عن القول المذكور وهو السر في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان على ما قيل" .[3]

وعلى كلا المعنيين سواءاً بالقول بتذكر الإنسان أو تفكره وضمن إثبات قضية البعث فإنه يصل إلى نتيجة واحدة لا محالة انه ناشئ من العدم بيد الخالق الكريم ضمن

إطار من التطور البشري الإنساني للإنسان ، كما قال تعالى: **" مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14) " (سورة نوح) .** لا التطور الناشئ من أنواع أخرى من المخلوقات، فالإنسان بما غُرس فيه من حقيقة نشأته وبتدبره فيما حوله من النواميس والسنن يستبعد ان ينشأ من خلية عضوية بدائية يتطور من خلالها عبر سلسلة حيوانية أو ينبثق من قرد أو زرافة، فهو في قرارته يدرك مكانته وأهميته ومدى دلالة هذه الوضعية على طبيعة منشأه وتسويته.

تدل على هذا آية سورة النور في قوله تعالى : **" وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) " (سورة النور) .**

فإذا كان أصل الخلق في نشأته واحداً متمثلاً في الماء فإن الأنواع الناشئة من هذا الماء تختلف وتتباين ، وتلحظ ان الآية لم ترتب هذه الأنواع اعتماداً على انبثاقها أو تطورها من بعضها البعض، بل جاء ترتيب الإنسان الذي يسير على قدمين بعد عرض نوع الزواحف التي تمشي على البطون وتركت الحيوانات التي تسير على أربع للنهاية، وفي هذا الترتيب نوع إشارة إلى اختلاف الأنواع مع الأصل الواحد والمتمثل في الماء.

" هذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة، حقيقة ان كل دابة خلقت من ماء ، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبته من ان الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلاً في الماء ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس ، ولكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل لا نزيد على هذه الإشارة شيئاً، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية وهي ان الله خلق الأحياء كلها من الماء فهي ذات أصل واحد ثم هي كما ترى بالعين متنوعة الأشكال منها الزواحف تمشى على بطنها، ومنها الإنسان والطير

(3) روح المعاني، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص 434.

يمشي على قدمين ، ومنها الحيوان يدب على أربع ، كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ومصادفة "يخلق الله ما يشاء" غير مقيد بشكل ولا هيئة، فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته المطلقة وارتضتها "ان الله على كل شيء قدير". (1)

ولا شك أن مثل هذا التعليق الذي يذكره سيد قطب على الآية يترك الباب مفتوحاً أمام أي تفسير علمي مستقبلي. يتمثل بتوضيح المسألة توضيحاً دقيقاً نيراً، إذ لا يمكن لأحد أن يغلق مثل هذه الأبواب التي قد يتأتى من خلالها حقائق جديدة لم تكن تعرف في الأزمنة الأولى، لا تتنافى والآيات القرآنية بل على عكس ذلك تماماً فقد تؤكد على تناهي البيان القرآني في عرض حقائق الوجود من خلال دقة تعبيراته وإحكامها.

الشيء المذكور:

وفي هذا الصدد وضمن الدعوة التأملية القرآنية للإنسان للبحث والتدبر تأتي افتتاحية سورة الدهر أو الإنسان أيضا لتثير استفهاماً وان كان تقريرياً على حد قول أغلب العلماء فسيبقى فيه نوع تحفيز للإنسان في بحثه وتقصيه

يقول تعالى: **" هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان) .**

وقد اتفق المفسرون "على ان هل(ههنا) وفي الغاشية بمعنى "قد" وهذا ما ذهب إليه سيبويه

قال: وإنما تفيد معنى الاستفهام حيث تفيده لتقدير الهمزة وإنما حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، ومعنى الآية أقد أتى ، فالاستفهام يفيد التقريب أيضاً فيكون حاصله أنه " أتى على الإنسان "قبل زمان قريب "حين من الدهر" وهو طائفة من الزمان غير محدودة "(1) و"حين" فسرت على أقوال متعددة: "انه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر في نفسه ، انه مقدر بالأربعين" .(2) وقيل "الحين هو مدة لبثه في بطن أمه، ثم اخبر انه بعد ان ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة أوضح له بواسطة ان آتاه العقل السليم سبيل الهدى والضلالة" .(3) وفي الكشاف بين الزمخشري ان "حين من الدهر" "طائفة من الزمن الطويل

(1) في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص 2523.
(1) غرائب القرآن ورغائب القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 409-410.
(2) التفسير الكبير للفخر الرازي، مرجع سابق، الجزء الثلاثون، ص 237.
(3) غرائب القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 41.

الممتد" .[4] والدهر هو: "الأمد المدود ، وقيل الدهر ألف سنة ، والدهر: الزمان الطويل ومدة الحياة ، قال الأزهري: الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول ويقع على مدة الدنيا كلها " .[5] وفي الكشاف أيضا ان قوله "لم يكن شيئاً مذكورا" "أي كان منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب " .[6] وعلى تفسير البعض لـ " شيئاً مذكوراً " فإن الإنسان لم يكن له وجود البته فكان عدماً مطلقاً في حين توضح بعض التفسيرات ان هذه العبارة تعبر عن وجود الإنسان بصفته غير الإنسانية وانه كان شيئاً سواء طيناً أو نطفة في الأصلاب كما قال الزمخشري أو في أي طور من أطوار التكوين ولكن هذا الشيء الكائن لم يكن ليستحق الذكر فليس بشيء ذي بال وله قيمة تذكر.

نجد في الفخر الرازي قوله: " وقال الحسن خلق الله تعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله: " لم يكن شيئاً مذكوراً" .[1] ولكنه ناقش المسألة بقوله " فان قيل ان الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً، والآية تقتضي انه قد مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر مع انه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً، قلنا: ان الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان يكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان.

والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة وأنها موجودة قبل وجود الأبدان فالإشكال عنهم زائل" .[2]

وفي ذات الإطار ينقل النيسابوري في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود: " ان الإنسان ههنا آدم والحين محدود وذلك انه مكث أربعين سنة طيناً إلى ان نفخ فيه الروح فصار شيئاً مذكوراً بعد ان كان كالمنسي وفي رواية عنه قال (أي عن ابن عباس) أقام من طين أربعين سنة، ومن صلصال أربعين، ثم من حمأ مسنون أربعين، ثم خلقه بعد مائة وعشرين" .[3]

---

(4) الكشاف، مرجع سابق، ص 667.
(5) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 422.
(6) الكشاف، ص 667.
(1) التفسير الكبير، الجزء الثلاثون، ص 236.
(2) التفسير الكبير، الجزء الثلاثون، ص 236.
(3) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 410.

وان " إطلاق الإنسـان عليه قبل نفخ الروح فيه من باب إطلاق الخمر على العصير ، ويجوز ان يراد قد أتى على هذا الذي هو الآن إنسـان بالفعل زمان لم يكن فيه انساناً بالقوة ، وهذا صادق على آدم كما قلنا، وعلى بنيه أيضا عند الأكثرين " .[1]

أما ما أرتآه ابن عاشور ان الإنسان كان عدماً محضاً ففي تفسيره ان "التقدير هنا: لم يكن فيه الإنسان شيئاً مذكورا، أي كان معدوماً في زمن سبق ، والمعنى هل يقر كل إنسان موجود انه كان معدوماً زماناً طويلاً، فلم يكن شيئاً يذكر، أي لم يكن يسمى ولا يتحدث عنه بذاته" .[2] ويستمر في تفسيره فيقول : "وان كان قد يذكر بوجه العموم في نحو قول الناس: المعدوم متوقف وجوده على فاعل ، وقول الواقف : حبست على ذريتي، ونحوه فإن ذلك ليس ذكر لمُعين ولكنه حكم على الأمر المقدر وجوده وهم لا يسعهم إلا الإقرار بذلك ، فلذلك اكتفي بتوجيه هذا التقرير إلى كل سامع" .[3] ويفسر المذكور بأنه "المعين الذي هو بحيث يذكر ، أي يعبر عنه بخصوصه ويخبر عنه بالأخبار والأحوال ، ويعلق لفظه الدال عليه بالأفعال. فأما المُعدم فلا يذكر لانه لا تعين له فلا يذكر إلا بعنوانه العام كما تقدم آنفاً".[4] ثم يؤكد انه "وليس هذا هو المراد بالذكر هنا.. ولهذا تجعل (مذكوراً) وصفاً لـ (شيئاً) أريد به تقييد (شيئاً) أي شيئاً خاصاً وهو الموجود المعبر عنه باسمه المعين له " .[5]

ولكن ابن عاشور مع شرحه الوافي للمعدوم وانه قد يذكر بعنوانه العام وان المذكور هو المعين الذي قد يعبر عنه بخصوصه ويخبر عنه أيضا بالأخبار والأحوال ، أي ان هذا الإنسان قد يعبر عنه بصفة من صفاته الأولية أو من أطوار خلقه المختلفة، ومع ملاحظة الفرق بين آيات سورة مريم وسورة الإنسان فالأولى نوهت إلى أن الإنسان كان عدماً محضاً بقوله " لم يك شيئاً " بينما تلحظ ان الثانية حددت انه قد جاء على الإنسان زمن لم يكن فيه شيئاً بصفته الإنسانية الكاملة بل جاء ذلك الزمن الذي كان فيه الإنسان في إحدى أطواره الأولية شيئاً غير ذي بال أو أهمية تستحق تسجيلها فإضافة كلمة (مذكورا) إلى شيء وكان يمكن تركها ، كما في آية مريم تؤكد أنها مرحلة جديدة بعد مرحلة العدمية تلك التي تتحدث عنها الآيات، ثم أنها تليت بقوله تعالى " **إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ**

(1) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 410.
(2) التحرير والتنوير، ص 372.
(3) المرجع السابق، ص 372.
(4) المرجع السابق، ص 372.
(5) المرجع السابق، ص 372.

سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان) ، وفيها تنويه على مرحلة النطفة والتي كان تقدير الابتلاء للإنسان قد تمت فيها، وقبل إنشاء المدارك المتمثلة في السمع والبصر لتسليط الضوء على طبيعة حياة الإنسان في هذا الكون القائمة على المسؤولية الجادة لا العبثية الغافلة والواضحة في بيان ذكر ابتلائه من مرحلة النطفة غير المعتبرة في طور خلقه كأساس كريم ، والتي بينت آيتا سورة النحل ويس بأنها ماء مهين لا يستحق الكرامة بل اسُتخدمت للتدليل على مهانة الإنسان الذي يعتدُّ ويخاصم خصاماً مبيناً في أهم القضايا من مثل البعث كما في سورة يس بعد الآية (77) يقول تعالى: **" أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) " (سورة يّس)** ، إلى آخر الآيات "وذِكْر النطفة هنا تمهيد للمفاجأة بكونه خصماً مُبيناً عقب خلقه أي ذلك الهين المنشأ قد أصبح خصيماً عنيداً ، ولينبني عليه قوله بعد "ونسي خلقه" أي نسي خلقه الضعيف فتطاول وجاوز، ولأن خلقه من نطفة اعجب من إحيائه وهو عظم، مجاراة لزعمه في مقدار الإمكان" .[1] وكما في النحل مثل ذلك في قولـه تعالى : **" خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) " (سورة النحل) .**

النطفـة:

وقيل ان النطفة "اصلها الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل أي أوجده من جماد لا حس لـه ولا حراك سيال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً " ،[2] وقد اعتبرها بعض المفسرين وشُراح المفردات أنها تعبير عن ماء الرجل كما في الراغب الأصفهاني من مثل هذا الاعتبار " النطفة الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل " ،[3] في حين تجد في لسان العرب مع اعتبار في بعض الحال أنها ماء الرجل ولكن بعض المعاني الأخرى لا تقصرها على ذلك فـ النُّطْفة والنُّطافة : القليل من الماء ، وقيل الماء القليل يبقى في القربة ، وقيل هي كالجرعة ، وقيل:هي الماء الصافي، قل أو كثر والجمع نُطَف ونِطاف ، وقد فرق الجوهري بين هذين اللفظيين في الجمع فقال: النُّطفة الماء الصافي، والجمع النِّطاف . والنُّطفة : ماء الرجل والجمع نُطَف: وفي الحديث: قال لأصحابه: هل من وضوء؟ فجاء رجل بنُطفة في إداوة أراد بها ههنا الماء القليل ، وبه سمي المنُّي نُطفة لقلته. وفي التذييل (ألم يكن من نطفة من منّي يُمْني) ، وفي الحديث: تخيروا لنُطَفِكم ، وفي رواية: لا تجعلوا نُطَفِكم إلا في طهارة ، وهو

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثالث والعشرون، ص 75.
(2) روح المعاني، مرجع سابق، المجلد السابع، ص 340.
(3) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 811.

حث على استخارة أمَ الولد وأن تكون صالحة ، وعن نكاح صحيح أو ملك يمين وعن النبي – صلى الله عليه وسلم - انه قال: "لا يزال الإسلام يزيد وأهله، وينقص الشرك وأهله حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً (النطفتين بحر المشرق وبحر المغرب).[1]

"والنطفة التي يكون منها الولد" .[2] وإذا كان الاعتبار ان النطفة هي ماء الرجل فان ما في هذا الشرح ما ينفي ذلك باعتبار ان النطفة يمكن ان تكون ماء الرجل وماء المرأة سواء بسواء، حيث أن وصية الرسول لأصحابة بالتخير للنطف لا يحصر النطفة في كونها ماء الرجل حيث ان الخطاب كان موجهاً إليهم فنسبت إليهم أو نسبت نطفتهم إليهم كما تنسب نطفة المرأة أو ماؤها إليها والحديث عام على كل الأحوال ، يؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الطارق " **فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)** " **(سورة الطارق)** ، بوصف هذا الماء الدافق بأنه يخرج من بين الصلب والترائب "والدفق: صب الماء يقال دفقت الماء أي صببته وهو مدفوق أي مصبوب، والترائب: ترائب المرأة، عظام صدرها حيث تكون القلادة ، وكل عظم من ذلك تريبة وهذا قول جميع أهل اللغة " .[3] بينما يعتبر الصلب "العمود العظمي الكائن في وسط الظهر وهو ذو الفقرات" .[4] ويخص الصلب بالرجل على قول اللغويين والمفسرين، وفي لسان العرب، وقوله عز وجل "خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " قال الفراء : يعني صلب الرجل وترائب المرأة

وقال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر" .[1] "وأخرج الطستي عن ابن عباس ان نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل: "يخرج من بين الصلب والترائب قال: الترائب ، موضع القلادة من المرأة ، قال: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

والزعفران على ترائبها شرفاً به اللبات والنحر " [2]

(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء السادس، ص 208.
(2) المرجع السابق، الجزء السادس، ص 209.
(3) التفسير الكبير، الجزء الحادي والثلاثون، ص 131.
(4) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 262.
(1) لسان العرب، الجزء الأول، ص 298.
(2) الدر المنثور في التفسير المأثور وهو مختصر ترجمان القرآن، للامام جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، الجزء السادس ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ، ص 560.

وفي الظلال: "أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية، ولقد كان هذا سراً مكنوناً في علم الله لا يعلمه البشر حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف انه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان" .(3)

كما وقد ذكر الدكتور محمد علي البار في كتابه " خلق الإنسان بين الطب والقرآن " حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي اعتمد عليه في بيان أن للمرأة نطفة تماماً كما للرجل ، وبحسب العلم الحديث تعتبر البويضة هي هذه النطفة : " واخرج الأمام أحمد في مسنده : أن يهودياً مر برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودي ان هذا يزعم أنه نبي ، فقال لأسألنه عن شئ لا يعلمه إلا نبي ، فقال : يا محمد : مم يخلق الإنسان ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : " يا يهودي من كل يخلق : من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة " .

وفي هذا الحديث نص صريح على أن الإنسان إنما يخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة معاً .. وعند ذاك لم يملك اليهودي نفسه فقال : هكذا كان يقول من كان قبلك (أي الأنبياء) " .(1)

ومع أنه "لم يرد في القرآن الكريم نص مخصوص على النطفة المؤنثة .. كما ورد على نطفة الذكر في قوله تعالى : **" أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) " (سورة القيامة)**، إنما ورد ذكر النطفة في اكثر المواضيع مجملاً لتشمل نطفة الرجل والمرأة" .(2)

والمقصد من هذا البيان ان هذه الآيات (آيات سورة الطارق) وهي التي ترمي إلى التأمل والتدبر في مبدأية الخلق المؤدية إلى الوحدانية عموماً وعدم إنكار البعث خصوصاً ، ومتابعة هذه العملية من المنشأ إلى المصير أو من العدمية إلى الخلود ان هذه الآيات ببيان أدق لمعاني مفرداتها لتدلل على ذلك "ان الاستدلال بهذا الباب كما انه يدل قطعاً على وجود الصانع المختار الحكيم، فكذلك يدل قطعاً على صحة البعث والحشر والنشر، وذلك لان

---

(3) في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء السادس، ص 3878.
(1) خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد على البار ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الحادية عشر 1430هـ - 1999م ، ص172 .
(2) المرجع السابق ، ص171 .

حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين بل في جميع العالم ، فلما قَدِر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً سوياً ، وجب ان يقال انه بعد موته وتفرق أجزائه لابد وان يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقاً سوياً كما كان أولا ولهذا السبب لما بين تعالى دلالته على المبدأ فرع عليه أيضا دلالته على صحة المعاد فقال: "انه على رجعه لقادر" .[1] وعلى مثل ما قاله الرازي من وجود الإنسان في بدن الوالدين ، يؤيد الدكتور عبد الغني عبود ان البويضة المخصبة هي "النطفة" فيقول "وعندما يصل الحيوان المنوي إلى البويضة، يخترق الغلاف الخارجي لها، وتلتصق نواته بنواتها وتتحد الخليتان، وتكونان خلية واحدة تسمى "النطفة" على حد تعبير القرآن الكريم ، تتكاثر بالانقسام الذاتي إلى خليتين فأربع خلايا وتنزل البويضة المخصبة أو النطفة من قناة البويضات (قناة فالوب) إلى الرحم وتتعلق بجدار الرحم.. وهنا تتحول النطفة إلى علقة" .[2] وعلى هذا الأساس بين الزمخشري في كشافه في بيان قوله تعالى: "خلق من ماء دافق" "ان الدفق في الحقيقة لصاحبه، ولم يقل ماءين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه". [3] أو على ما سيأتي شرحه في الفقرة القادمة .

وإذا كان البعض يرى ان النطفة هي ماء الرجل والبعض الآخر يراها في البويضة المخصبة فان العلم الحديث قد يكشف عن ان النطفة هي الخلية الأوليَّة او في النطفة مجموع الخلايا الأولية التي يُلَخَّص بها الإنسان بكامل صفاته وطباعه وشكله الخارجي عموماً سواء في ماء الرجل أو ماء المرأة ، ومن هنا كانت أهميتها في خلق الإنسان ومهانة الإنسان على حد سواء في ان يلخص في تلك النقطة المائية ذلك ان ما يحدث في عالم اليوم من التجارب لاجل استنساخ الإنسان لنفسه ليكون طبعة طبق الأصل عن ذاته من خلال تلقيح خلية أنثوية بخلية أنثوية أو خلية ذكورية بأخرى مثلها إنما هو تعبير عن ان الإنسان مكتمل الهيئة والصفات والطبيعة الخَلقِيَة موجود في ماء الرجل بشكل منفصل على حده كما هو الحال في ماء المرأة وإذا ما حدث تلقيح طبيعي ما بين المرأة والرجل حدثت ولادة طفل جديد بامتزاج الصفات المختلفة لكل منهما، وبينما الطفل نسخة طبق الأصل عن أحد والديه في حالة الاستنساخ مما قد يؤكد أولا على ان قوله تعالى " فلينظر الإنسان ممَّ خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب " ان الماء الدافق الخارج من الصلب أو من الترائب

(1) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء الحادي والثلاثون، ص 131.
(2) الإنسان في الاسلام والإنسان المعاصر، الدكتور عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، ص 20.
(3) الكشاف ، مرجع سابق ، ص736 .

ليس بشرط امتزاجه مع بعضه البعض ليتكون الإنسان وإنما هذه تعتبر بالضرورة العملية السوية حسب السنن الإلهية في الخلق، ولذلك لم يقل الله ماءين كما قال الزمخشري سابقاً ولكن الإنسان قد يتكون من خلية غير ممتزجة مع خلية من الجنس الآخر في هذا الماء الدافق سواء الخارجة من الصلب أي الذكر أو الترائب أي الأنثى ، وعلى هذا الأساس فالنطفة هي ذلك الماء الدافق الذي يحوي مجموع الخلايا التي يتلخص بها الكائن الحي ، ومن الناحية الثانية ما قد يؤكد على ان تفسير الامشاج في قوله تعالى : **" هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان)** ، اقرب ما تكون إلى ما أشار إليه سيد قطب بأنها " وربما كانت هذه الأخلاط (الامشاج) تعني الوراثات الكامنة في النطفة ، والتي يمثلها ما يسمونه علمياً "الجينات" وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجين العائلية أخيراً ، وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان لا جنين أي حيوان آخر كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة ولعلها هي هذه الامشاج المختلطة من وراثات شتى" .[(1)]

النطفة الأمشاج :

وقد فُسرت أمشاج على أكثر من معنى ومنها ما يؤيد كونها امتزاج الماءين باعتبار أن نطفة الرجل هو الحيوان المنوي ونطفة المرأة هي البويضة وبالتقائهما تصبح البويضة المخصبة هي النطفة الأمشاج والتي تحتوي على 46 كروموسوماً حاملة للصفات الوراثية من الأب والأم بالتساوي ، ومنها ما يعتبرها أخلاط في الطبائع والصفات ، ففي الفخر الرازي "المشج في اللغة: الخلط، يقال مشج يمشج مشجاً إذا خلط ، والأمشاج: الأخلاط ، واختلفوا في كون النطفة مختلطة: فالأكثرون على انه اختلاط ماء الرجل وهو ابيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق منهما الولد .

وقال عبد الله: أمشاجها عروقها.. وقال قوم: أن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة" .[(2)] وقد أتت في لسان العرب على عدة معاني: "أمشاج ، مشج : كل لونين اختلطا ، وقيل هو ما اختلط من حمرة وبياض وقيل: هو كل شيئين مختلطين والجمع امشاج مثل يتيم وأيتام. ابن سيده: و

(1) في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء السادس، ص 3779-3780.
(2) التفسير الكبير ، مرجع سابق ، الجزء الثلاثون ، ص236 .

المَشِيجُ : اختلاط ماء الرجل والمرأة ، هكذا عبر عنه بالمصدر وليس بقوى وأمشاج البدن: طبائعه ، وقال أبو اسحاق : أمشاج أخلاط من منّي ودم ، ثم يُنقل من حال إلى حال عن أبى عبيدة : عليه امشاج غزول ، أي داخلة بعضها في بعض يعني البُرود

فيها ألوان الغزول" .[1] "وصيغة (أمشاج) ظاهرها صيغة جمع وعلى ذلك حملها الفراء وابن السكيت والمبرد. والوجه ما ذهب إليه صاحب الكشاف: ان أمشاج مفرد كقولهم: برمة أعشار وبرد اكياش .[2] وقال "ولا يصح ان يكون امشاج جمع مشج بل هما مثلان في الأفراد.

وإذا كان جمعاً كما جرى عليه الفراء وابن السكيت والمبرد كان وصف النطفة به باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، (فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضواً) فوصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة ، أي شديدة الأخلاط.

وهذه الامشاج منها ما هو أجزاء كيميائية نباتية أو ترابية ومنها ما هو عناصر قوى الحياة" .[3] ويمكن اعتبارها على ما ذهب إليه صاحب التحرير والتنوير من ان "أمشاج: مشتق من المشج وهو الخلط، أي نطفة مخلوطة، قال تعالى: **" سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36) " (سورة يّس)**، وذلك يفسر معنى الخلط الذي أشير إليه هنا" .[4] باعتبار أن النطفة الامشاج هي التي تجمع بين مادة التراب التي خلق منها الإنسان بما تمنحه من طبائع وقوى مادية وبين القوى التي تهيأ الإنسان للحياة وتؤهله للتسوية ونفخ الروح.

وسواء أكانت النطفة هي ماء الرجل أو هي هذا الجمع بين قوى الإنسان المختلفة

أو هي مجموع الخلايا الأولية في كل من ماء الرجل أو ماء المرأة فإنه مما لاشك فيه أن النطفة ستبقى هي المؤهل أو الأساس التي تتجمع عندها كافة الأسباب الأولية لعملية الابتلاء فقال تعالى: "من نطفة امشاج نبتليه" قال المفسرون: "معناه لنبتليه، وهو كقول الرجل جئتك

(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء السادس، ص 57.
(2) البرمة: قدر من حجارة، وقلب اعشار وقدر اعشار وقدور اعاشير، مكرة على عشر قطع او عظيمة لا يحملها الا عشرة. وبرد اكياش: (الثواب الأكياس: الذي اعيد غزله مثل الجز او الصوف او هو الرديء) وهي الفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للافراد ويقال ايضا نطفة مشج. من حاشية الكشاف، المجلد الرابع، ص 666.
(3) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 374.
(4) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 373.

أقضي حقك أي لأقضي حقك، وأتيتك أستمنحك أي لأستمنحك، كذا قوله (نبتليه) أي لنبتليه ونظيره قوله (ولا تمنن تستكثر) أي لتستكثر" .[1]

ثم أعقب ذلك بقوله تعالى:" "فجعلناه سميعاً بصيراً" أي انا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج لنبتليه ولذلك سوينا المدارك فجعلناه سميعاً بصيراً، ذلك ان خلق الإنسان من النطفة الامشاج أهلته لامتلاك هذه الحواس بصفتها الإنسانية والتي باكتمال وتسوية خلقه من النطفة إلى الإنسان تعينه على تحقيق هذا الابتلاء، وجاءت "سميعاً بصيراً" بصيغة المبالغة تحقيقاً لصفتها الإنسانية "لان سمع الإنسان وبصره اكثر تحصيلاً وتمييزاً في المسموعات والمبصرات من سمع الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه". [2]

وإذا كانت النطفة على ذلك القدر من الأهمية من حيث أن الشخصية الإنسانية تتلخص فيها بحيث تعرض في الآية القرآنية مقرونة بالابتلاء المُقدَّر للإنسان من تلك اللحظة، فإن النطفة ذاتها قد عرضت في الآيات أيضا في معرض المهانة حيث يخلق هذا الإنسان الكامل السوي من تلك النقطة المائية التي ليس لها حول ولا قوة إلا بمشيئة القادر الحكيم ، انظر إلى قوله تعالى : " قتل الإنسان ما اكفره من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره.." وسنأتي على هذه المسألة في الفصل القادم ان شاء الله.

قبضة الطين:

فالنطفة طور في خلق الإنسان قد تعدى العدمية "لم يك شيئاً" ولكنه لم يصل إلى مرحلة الكرامة الإنسانية الكاملة سبقها طور الطين الذي يعتبر بمثابة البداية الرئيسية في عملية الخلق، قال تعالى: **" الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9) " (سورة السجدة) .**

وقوله تعالى: **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) "(سورة المؤمنون).**

---

(1) التفسير الكبير، الجزء الثلاثون، ص 237.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 375.

ويلخص الأستاذ مقداد يالجن القصة من بدايتها تلخيصاً بسيطاً بقوله: "ذكر الله سبحانه انه خلق الإنسان أطواراً **(ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم اطوراً)** ، وكان أول طور هذا الخلق ان بدأ به من الأرض، فأخرج الإنسان من هذه الارض، كما اخرج النبات **(والله أنبتكم من الارض نباتاً)** ، وقال تعالى : **(ومن آياته ان خلقكم من تراب، ثم إذا انتم بشر تنتشرون)** ، ثم اختلط بالماء فأصبح الماء عنصراً في تكوين الإنسان **(والله خلق كل دابة من ماء)** ، **(وجعلنا من الماء كل شيء حي)** فأصبح التراب بذلك طيناً، ومن هنا قال تعالى: **(الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين)** ، وبذلك استخلص من الطين خلاصته **(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين)** ، ثم مكثت هذه السلالة حتى أصبحت طيناً لازباً **(انا خلقناكم من طين لازب)** ، ثم بعد ذلك صب هذا الطين اللازب في قالب معين ، وصوره في صورة إنسان، ثم تركه حتى يبس ، وأصبح صلصالاً ، يرتد كالفخار **(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون)** ، وبعد ذلك سواه ، وصوره بتلك الصورة ، ونفخ فيه من الروح ، وأمر الملائكة بالسجود له **(فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)** ، **(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)**" .(1)

فآية السجدة هي إشارة واضحة إلى ان بداية الخلق تمت من الطين "وبدأ خلق الإنسان من طين" ، "ويستفاد من الآية السابقة أن الطين يمثل بداية الخلق وما سبق من آيات (والتي تتحدث عن الخلق من التراب) يفيد ان التراب هو مادة الخلق". (2)

وفي الحديث قال الأمام احمد "حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا أسامه بن زهير عن أبي موسى عن النبي – صلى الله عليه وسلم - قال: "ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك" وقال الترمذي حسن صحيح" .(3)

سلالة الطين:

وذكرت آية المؤمنون ان الإنسان قد خلق من سلالة من طين قال تعالى: " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)** (سورة المؤمنون) ، ففي التفسير الكبير "وفيه وجه آخر وهو ان الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي

---

(1) الإنسان في الاسلام والإنسان المعاصر، مرجع سابق، ص 127-128.
(2) الإنسان في القرآن، الدكتور صالح درادكه، ص 15.
(3) تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، ص 240.

إنما تتولد من فضل الهضم ، وذلك إنما يتولد من الأغذية وهي أما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية والنبات إنما يتولد من صفو الارض والماء، فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين، ثم أن تلك السلالة بعد ان تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً، وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات" .[1]

وان كان الفخر الرازي قد بين بصورة عامة جداً العلاقة بين النطفة والطين ولكنه لم يوفق في شرح معنى أو بيان معنى سلالة الطين ويبدو ان ما أشار إليه هو سلالة الماء المهين في قوله تعالى **"ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين"** أما سلالة الطين فهي شيء آخر، وقد عاد يبين الفرق بين الطورين قائلاً: "المرتبة الثانية: **"ثم جعلناه نطفة في قرار مكين"** ومعنى جعل الإنسان نطفة انه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الاباء" .[2] وان كانت ثم في قوله **"ثم جعلناه نطفة"** "للترتيب الرتبي لان ذلك الجعل اعظم من خلق السلالة" .[3] حيث البون الشاسع بين **"سلالة من طين"** وبين **"نطفة في قرار مكين"** كطورين مختلفين فإن ثم أيضا تأتي تعبيراً عن التراخي الزمني مما يوحي أن هنالك فترة اقتضتها مرحلة السلالة الطينية تختلف بهيكلية بناءها عن بناء النطفة أو عن بناء السلالة القادمة من الماء المهين كما هو واضح أيضا في آية السجدة، تماماً كما في قوله تعالى: **"ثم خلقنا النطفة علقة"** "وحرف ثم للترتيب الرتبي إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة ، إذ قد صير الماء السائل دماً جامداً فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم" .[1] بعكس العطف بالفاء الحاصل في الآية بين العلقة والمضغة "وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء لان الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيد شيء عن شيء إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب وان كان مكث كل طور مدة طويلة" .[2] ومع ملاحظة الفرق في التعبير القرآني عندما قال "ثم جعلناه" في حالة التغير من سلالة الطين إلى النطفة وقوله "ثم خلقنا" عند الحديث عن تحول النطفة إلى علقة، واختلاف الدلالة العلمية في كل تحول بين الأطوار كما في آياتي المؤمنون والسجدة على حد سواء، نجد ان الجعل جاء في حالة التحول الذي يؤدي إلى تكرار النوع البشري أو عند الحديث عن النسل القادم من الإنسان الأول، مما يوحي ان بداية الخلق للنوع الإنساني كانت

---

(1) التفسير الكبير، الجزء الثالث والعشرون، ص 85.
(2) التفسير الكبير، الجزء الثالث والعشرون، ص 85.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثامن عشر، ص 23.
(1) المرجع السابق، الجزء الثامن عشر، ص 23.
(2) المرجع السابق، الجزء الثامن عشر، ص 24.

من سلالة من طين في حين ان خاصية التكاثر قد وجدت بعد ذلك في طور النطفة التي جعل منها التناسل، وان سلالة الطين تختلف من حيث اختصاصها بآدم الأول عن سلالة الماء المهين من حيث انبثاق أفراد هذا النوع منها أو من حيث اختصاصها بالنسل. فهما طوران متباعدان يختص الأول منهما بالخلق مباشرة من سلالة الطين، ويختص الثاني بتكاثر الأفراد من بعد ذلك.

وفي التفسير في (من سلالة من طين) "أن (من) الأولى جاءت للابتداء والثانية للبيان "من طين" بيانيه متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة ، أي خلقناه من سلالة كائنة من

طين ، ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهي ابتدائية كالأولى".[1]

وفي الكشاف أيضا "فإن قلت ما الفرق بين من ومن ؟ قلت: الأولى للابتداء والثانية للبيان".[2] مما يشير إلى ما ذكرناه سابقاً من ان الإنسان الأول مخلوقاً بشكل مباشر من الطين وهو عموماً الذي يشكل أو يؤسس وجود الأصول الأولى للإنسان على وجه الارض.

كما يؤكد الزمخشري على تباين كلمتي الجعل والخلق بقوله "ما معنى: جعلنا الإنسان نطفة؟ قلت: معناه انه خلق جوهر الإنسان أولا طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة" .[3] وفي أبى السعود: " (ثم جعلناه) أي الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام، أو جعلنا نسله على حذف المضاف ان أريد بالإنسان آدم عليه السلام" .[4]

وفي هذا أن سلالة الطين وسلالة الماء المهين جوهران متباينان في عملية الخلق مع اتصال الواحد بالآخر برتبة من الرتب بلا شك، ويؤيد سيد قطب أطوار خلق الإنسان من السلالات الطينية والمائية ضمن نطاق الحقائق القرآنية ودونما خوض في النظريات العلمية لعدم ثبوتها وباعتبار ان كلمة الإنسان إنما هي تعبير عن الجنس الإنساني حيث يشير إلى هذا في تفسير الآيات في سورة المؤمنون بقوله في الظلال **"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"** "وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها، فيفيد ان الإنسان مر

(1) تفسير ابن السعود، الجزء السادس، ص 126.
(2) الكشاف، المجلد الثالث، ص 181.
(3) الكشاف، المجلد الثالث، ص 181.
(4) تفسير أبي السعود، الجزء السادس، ص 126.

بأطوار مسلسلة من الطين إلى الإنسان، فالطين هو المصدر الأول أو الطور الأول والإنسان هو الطور الأخير.

"ثم جعلناه نطفة في قرار مكين" لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين فإما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله ان يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل فتستقر في رحم امرأة.." .(1)

والسلالة كما في لسان العرب من (سلل : السَّلُ : انتزاع الشيء وإخراجه في رفق، سَلَّه يَسُلُّه سَلاً.. والسَّلُّ : سَلُّك الشعر من العجين ونحوه.. والسُّلالة : ما انْسَلّ من الشيء ، ويقال سَلَلتُ السيف من الغمد فانْسلّ " .(2) وفي الكشاف "السُّلالة : الخلاصة لأنها تُسَلُ من بين الكدر، وفعاله بناء للقلة، كالقلامة والقمامة.. وعن الحسن: ماء بين ظهراني الطين" .(3)

"أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما قلنا لأنه غير داخل في الأهداف القرآنية، وقد تكون حلقاته على النحو الذي تقول به النظريات العلمية وقد لا تكون ، وتكون الأطوار قد تمت بطريق آخر لم يعرف بعد، وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان .

ولكن مفرق الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة تلك النظريات ، ان القرآن يُكرِّم هذا الإنسان ، ويقرران فيه نفخة من روح الله هي التي جعلت من سلالة الطين إنساناً".(1)

من صلصال من حمإ مسنون:

أما ابن كثير فقد رأى ان سلالة الطين قد تعني ما جاء في صريح الآيات القرآنية عن خلق الإنسان في كل من سورتي الحجر والرحمن في قوله تعالى: **" خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) " (سورة الرحمن)** ، وقوله عز وجل **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ " (26) (سورة الحجر)** ، "ويقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون.. قال قتادة: استل آدم من الطين وهذا اظهر في المعنى واقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام

(1) في ظلال القرآن، الجزء الرابع، ص 2457-2458.
(2) لسان العرب، الجزء الثالث، ص 324.
(3) الكشاف، المجلد الثالث، ص 181.
(1) في ظلال القرآن، الجزء الرابع، ص 2458.

خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمإ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون" .[2] فاعتبر أن تحولات الطين المختلفة ابتداءاً من مادة التراب المختلطة بالماء إلى مرحلة الصلصال مروراً بالحمإ المسنون هي في حد ذاتها سلالة الطين التي خلق منها الإنسان، وان كان يمكن النظر إلى هذه التحولات أو التغيرات في مادة الطين على أنها المراحل التي مرت بها المادة التي قد أُستلت من الطين وليست هي بحد ذاتها السلالة ، وقد أخذ بهذا الاعتبار النسفي حيث قال: "وفي الأول كان تراباً، فعجن بالماء طيناً، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة ، فصوّر ويبس فصار صلصالاً " .[3] ولعل في البحث في معاني هذه المفردات ما يدلل على ذلك ففي قوله تعالى في سورة الحجر: **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ(26) " (سورة الحجر)** ، "وفي الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ وإذا طبخ فهو فخار.. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة ، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به ، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى ان نفخ فيه الروح وحقيقة الكلام انه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً، والقول الثاني: الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل إذا أنتن وتغير، وهذا القول عندي ضعيف ، لانه تعالى قال **(من صلصال من حمإ مسنوناً)** وكونه حمأ مسنون يدل على النتن والتغير، وظاهر الآية يدل على ان هذا الصلصال إنما تولد من الحمإ المسنون، فوجب ان يكون كونه صلصالاً مغايراً لكونه حمأ مسنون، ولو كان صلصالاً عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً وبين كونه حمأ مسنون تفاوت" [1].

"وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعله، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن".[2] وفي روح المعاني: "من حمأ: من طين تغير واسود من مجاورة الماء.. والجار والمجرور في موضع الصفة لصلصال كما هو السنة الشائعة في الجار والمجرور

بعد النكرة أي من صلصال كائن من حمأ ، وقال الحوفي: هو بدل لما قبله بإعادة الجار

---

(2) ابن كثير، المجلد الثالث، ص 241.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ص 41.
(1) التفسير الكبير، الجزء التاسع عشر، ص 180.
(2) المرجع السابق، الجزء التاسع عشر، ص 180.

فكأنه قيل خلقناه من حمأ". [1]

"وقوله مسنون فيه أقوال ، الأول: قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله (مسنون) أي متغير ، قال أبو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون أي تغير والدليل عليه قوله تعالى (لم يتسنه) أي لم يتغير.

الثاني: المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر إذا حككته عليه والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمي المسن مسناً لان الحديد يسن عليه.

والثالث: قال الزجاج: هذا اللفظ مأخوذ من أي موضوع على سنن الطريق لانه متى كان كذلك فقد تغير.

الرابع: قال أبو عبيدة "المسنون المصبوب، والسن والصب يقال سن الماء على وجهه سناً.

الخامس: قال سيبويه: المسنون، المصور على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته.

السادس: روى عن ابن عباس انه قال: المسنون الطين الرطب وهذا يعود إلى قول أبى عبيدة ، لانه إذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض فيكون مسنوناً بمعنى انه مصبوب" .[2] " أو مصبوب من سن الماء صبه.. أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرَّغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب وقيل إنما أُخرت الصفة الصريحة تنبيهاً على ان ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالاً بل في حالة كونه حمأ، كأنه سبحانه افرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صوَّت ثم غيره طوراً بعد طور حتى نفخ فيه روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين" .[1] "وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف (قد) لزيادة التحقيق تنبيهاً على أهمية هذا الخلق وانه بهذه الصفة" .[2] وفي "الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم".[3] وهذا تماماً ضد فكرة دارون بأنه تناسل من أشكال مختلفة بل هو بهذا الوصف منذ خلق ، فهو وصف للإنسان وتحولات المادة الطينية ، غير ان هذا الوصف لخلقه لا يؤكد بحال من الأحوال انه معنى لسلالة الطين

---

(1) روح المعاني، المجلد السابع، ص 279.
(2) التفسير الكبير، الجزء التاسع عشر، ص 180.
(1) روح المعاني، المجلد السابع، ص 279.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ص 42.
(3) الاساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد السادس ، ص 2881.

بل ربما هو تدرج هذه السلالة بهذه الهيكلية وصولاً إلى صورة الإنسان، أي ان هذه المراحل هي أوصاف لتحولات الطين.

بين البشر والإنسان:

فالإنسان الأول قد خُلق مباشرة من مادة قد استلت من الطين وحدثت عليها تحولات مختلفة من الحمأ المسنون إلى الصلصال إلى البشر ثم إلى الإنسان المُسَوَّى في حين إن تكاثر النسل كان عن طريق سلالة الماء المهين.

ويبدو كما أشرنا من قبل إلى وجود فرق بين كلمة بشر وإنسان في القرآن بعد استقراء كل منهما فتختص الأولى بالبناء الطيني الذي يعمل على تشكيل الغرائز الحيوانية في الإنسان وتختص الثانية بنفخة الروح مما يؤهل الإنسان إلى أداء دور الخلافة.

وتأتي مرحلة التسوية هذه في سورة الحجر في دلالة خاصة تفرق بين الإنسان المُسَوَّى التي أمرت الملائكة بالسجود له لحظة تسويته ، وبين الأصل الطيني الأول لهذا الإنسان والمتمثل في خلق البشر ابتداءاً منذ ملايين السنين وبيان خلق الجان من قبلهم في ترتيب تأريخي لعملية خلق المخلوقات، يقول تعالى: **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) " (سورة الحجر) .**

ثم تستمر الآيات لتوضيح ان الخلق الأول الذي خُلِقَ من صلصال من حمأ مسنون قبل ان تتداركه أي عملية تسوية لا يحق له بحال من الأحوال إلا ان يطلق عليه كلمة بشر وليس إنسان لان الإنسان هو المرحلة النهائية لكل تلك التطورات: **" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) " (سورة الحجر)** ، فلم تؤمر الملائكة بالسجود للطور الإنساني الأول المتمثل في البشر الناشئ من قبضة الطين ، وجاءت فاء التعقيب لتبين فورية الأمر بالوقوع بالسجود من قبل الملائكة لهذا البشر لحظة ان يسوى أو تنفخ فيه الروح ، ويصبح إنساناً بمهمة ، وتلحظ في الآيات اللاحقة ان إبليس عندما رفض السجود للإنسان لم يبرر عدم سجوده بذكر الإنسانية المستوية في آدم وإنما بذكر الأصل الإنساني المتمثل في خلقه من طين ، ولم يجرؤ أو قد تهرب من ذكر نفخة الروح التي أهلت البشر لمثل ان يسجد له هذا السجود وهو سجود حقيقي على عكس ما ذهب إليه كثير من المفسرين يتبين ذلك من كلمة

"فقعوا" ففي الأمر وقوع مادي ملموس "أمر من وقع يقع وفيه دليل على ان ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أي اسقطوا له". [1]

قال تعالى: " **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) (سورة الحجر)** ، فما من شك ان ما بين البشر والإنسان بون شاسع في المؤهلات الخَلْقيَّة والنفسية وما ينتج عن ذلك من طبيعة ودور، وبون شاسع على المستوى التاريخي ، ويظهر ذلك جلياً في عملية إستقراء كلمة بشر مما لا يسع هذا البحث استيعابه ، فنجد ان كل إنسان هو بشر ولكن البشر ليس إنساناً، فالإنسانية هي الدائرة الأوسع والتي تضمنت البشرية والتي تطورت عبر ملايين السنين ليصل إلى المرحلة الحاسمة من نفخة الروح وبداية العهد الإنساني المتمثل في سيدنا آدم عليه السلام.

وفي كتابه (أبى آدم) يطرح الدكتور عبد الصبور شاهين هذه القضية بقوة حيث يقول: "ونستطيع ان نقرر مع علماء الإنسان (الانثروبولوجيين) ان الارض عرفت هذا الخلق الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين تختلف في تقديرات العلم باختلاف عمر الاحافير ونتائج التحليلات العلمية ، وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق خطأ أو تجاوزاً لقب (إنسان) فقالوا: إنسان بكين، أو إنسان جاوه ، أو إنسان كينيا ، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التي تعني مراحل تكوين (البشر) بإطلاق القرآن، واستخدام كلمة (إنسان) في وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع، كما استخدمت كلمة (بشر) للدلالة على معنى (الإنسان) توسعاً أيضا ، وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن ، والذي ينبغي ان يستخدم فيه تسمية تلك المخلوقات العتيقة التي تدل عليها الاحافير هو (البشر) فواجب ان يقال: بشر بكين ، وبشر جاوه ، وبشر كينيا، وبشر النياندراتال..الخ

أما الإنسان فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المُكَلَّف بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر).[1] ولعل أبو البشر هو آدم الطيني ، وليس آدم النبي الإنسان .

ونجد الدكتور عبد الصبور شاهين يحاول توضيح الفروقات بين البشر والإنسان في شرحه للآيات القرآنية بحسب ترتيب النزول بقوله: "ثم تنزل السورة الحادية والسبعون،

(1) تفسير ابي السعود، الجزء الخامس والسادس، ص 75.
(1) ابي آدم، الدكتور عبد الصبور شاهين، ص 98.

سورة (نوح) وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معا ، هي قوله تعالى : **" وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14) " (سورة نوح)** ، فمن الناحية التاريخية قد يراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التي مر بها خلق البشر ، وتقلبهم في أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله: "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة" ومن الناحية المادية: قد يراد بالأطوار ما جاء بعد ذلك مباشرة من حديث القرآن عن الجنين وأطواره في (القرار المكين) وهو رحم الأم، فحديث سورة (المؤمنون) هو بمثابة الإجابة عن سؤال نَجَمَ عن ذكر الأطوار في سورة نوح.. ما هي هذه الأطوار؟

فجاء الرد في السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) وذلك قوله تعالى: **"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"** وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين في عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت (من طين) أي: أنه لم يخلق مباشرة من الطين، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) وكان ذلك منذ ملايين السنين ، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه السورة الخامسة والسبعون (السجدة) وهي إضافة مهمة للرد على السؤال المثار عن المقصود بالأطوار) في السورة الحادية والسبعين يقول الله سبحانه وتعالى: **"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9) " (سورة السجدة)** ، فخلق الإنسان (بدأ من طين) أي في شكل مشروع بشري ، ثم استخرج الله منه نسلاً (من سلالة من ماء مهين) ثم كانت التسوية ونفخ الروح فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف عبر تلك الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة" [(1)] .

إن مثل هذا التفسير الجديد بناءاً على المعطيات العلمية الحديثة من وجود هياكل عظمية للإنسان قبل ثلاث ملايين سنة والتفريق ما بين البشر والإنسان، واثبات وجود البشر قبل ملايين السنين من خلق سيدنا آدم عليه السلام ليثير تساؤلات كثيرة جديدة لم تكن لتغطيها تفسيرات القرآن القديمة، ولابد من التأني في الأخذ بها والتريث في تفسيرها حتى لا تحدث هوة بين تفسير الآيات المختلفة والمتعلقة بآدم عليه السلام وبالإنسان عموماً، ولكن مثل هذا الرأي في ذات الوقت ليعطي إجابات شافية على كثير من الأمور التي بقي تفسيرها في إطارها العام محاطاً بكثير من الغموض.. ففي آية الأعراف "وإذ اخذ ربك من بنى آدم.."

(1) ابي آدم، مرجع سابق، ص 91.

تجاهل اغلب المفسرين كلمة بني وقالوا اخذ الله من آدم وذريته وأشهدهم على أنفسهم حتى يضمنوا سيدنا آدم باعتباره أبا البشر في عملية الأخذ والأشهاد، ولكن الآية تقول إن الأخذ تم من ظهور بني آدم والتي هي بداية عهد التكليف والله أعلم.

ولعل الأحاديث التي تذكر ان آدم هو أبو البشر يقصد به آدم الأول الذي هو أول مخلوق بشري على وجه الأرض الذي اُستل من الطين ، ولا عجب في تكرار الأسماء فهو غير سيدنا آدم عليه السلام، لان كلمة آدم فيما جاء في لسان العرب على أحد معانيها "سُمِّي بذلك لكون جسده من أديم الأرض ، وقيل لسُمْرة في لونه " .[(1)] فقد يقصد بآدم والله اعلم في بعض الآيات القرآنية آدم البشري وليس سيدنا آدم النبي من مثل قوله تعالى : **"إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) (سورة آل عمران)** ، وقوله تعالى: **" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) " (سورة الأعراف)** ، فإن بني آدم الذين أُخذ من ظهورهم الذرية هم الأنبياء ابتداءاً من سيدنا آدم عليه السلام ونوح و إبراهيم ، وان آدم المقصود في الآية هو آدم البشري واخذ الله من ظهور ذرية أبنائه ابتداءاً من بداية العهد الإنساني الذي ابتدأ به التكليف من عهد سيدنا آدم عليه السلام. ولابد من القول ان مثل هذه الآراء تبقى بدون شك قابلة للنقد والمراجعة والتمحيص حتى يتبين صوابها من خطئها، وأمثال هذه المواضيع تحتاج إلى أبحاث مستقلة لدراستها ضمن منهجية الاستقراء الكامل لمفردات القرآن الكريم.

كما ويذهب الدكتور فاروق الدسوقي إلى التفريق بين البشرية والإنسانية في كتابه (مفاهيم قرآنية حول حقيقة الإنسان) ضمن اعتبارات خاصة في تفسير الأمانة التي حملها الإنسان: ".. فيمكننا أن نُعرِّف البشرية بأنها تعنى الخصائص الحيوية عند الإنسان والتي هي أحوال له باعتباره كائناً حياً ومن ثم يشاركه فيها الحيوانات الأخرى أي أنها — بتعبير علمي- الخصائص (البيولوجية والفسيولوجية) عند بني آدم منها التكوين الجسدي للكائن الحي من أعضاء ولكل عضو وظيفة تساهم في استمرار الحياة ، ومثل الغرائز كغريزة الأكل والنوم والغريزة الجنسية وغير ذلك. ومن ثم لا نكاد نجد آية قرآنية واحدة ترد فيها كلمة بشر إلا إذا كان موضوع الآية هو حالة من الحالات البيولوجية أو الفسيولوجية لبني آدم

---

(1) لسان العرب ، الجزء الأول ، ص 15.

مثل ذلك قولـه تعالى: " **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)** " **(سورة الأنبياء)** ، لان الموت هو من خصائص البشرية عند آدم وليس من خصائص الإنسانية، وكذلك قولـه تعالى مخبراً عن مقالة الكافرين "**.. مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33)** " **(سورة المؤمنون)** ، وبالنسبة للغريزة الجنسية واعتبارها من الخصائص البشرية " **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً (20)** " **(سورة مريم)** ، وهكذا لا نكاد نجد أية تتحدث عن بني آدم مستخدمة كلمة بشر إلا ويكون موضوع الآية الرئيسي هو حالة من حالات بني آدم الحيوية .

أما الإنسانية كمصطلح قرآني فهو يعني الخصائص العليا التي يتمتع بها بنو آدم ولا توجد عند الكائنات الحية الأخرى ، فكل ما هو مشترك بين الإنسان والحيوان من أحوال وخصائص ليس من الإنسانية ونكاد لا نجد آية في القرآن تستخدم كلمة إنسان إلا ويكون موضوع الآية الرئيسي هو خاصية من خصائص الإنسان التي ينفرد بها عن الحيوان مثال ذلك قوله تعالى : " **خَلَقَ الإنسان (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)**" **(سورة الرحمن)** والبيان هو التعبير الراقي الدقيق سواء كان نثراً أم شعراً أم فناً وذلك للإنسان وحده وان كان للحيوانات لغتها ومنطقها، لكنه لا يصل إلى مستوى البيان. وقوله تعالى: " **عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)** " **(سورة العلق)** ، فعِلم الأسماء الذي أعطى الإنسان مؤهل السيادة الشاملة خاصية إنسانية لا يشارك الإنسان فيها غيره وقوله تعالى : " **فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ (5)** " **(سورة الطارق)** ، فيه دعوة للنظر والتأمل والبحث واستنباط العظة والعبرة وهذا عمل إنساني وليس عملاً بشريا. وقوله تعالى " **إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2)** **(سورة الإنسان)** ، بيان للحكمة من خلق الإنسان وهي الابتلاء، فالابتلاء حالة إنسانية عند بني آدم وليس حالة بشرية ، لان الكائنات الحية الأخرى ليست مخلوقة للابتلاء وقوله تعالى : " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13)** " **(سورة الاسراء)** ، إشارة إلى الجزاء والمسؤولية وهي خاصة بالإنسان. وهكذا مما يثبت ان الإنسانية تختلف عن البشرية وان كانت الإنسانية والبشرية يجتمعان في كائن واحد وذات واحدة هي الذات الآدمية. ولكن البشرية هي أحوال آدمية تتناظر مع الحيوانية أو هي تكاد تكون في مستواها بينما الإنسانية هي حالات عليا وسامية لبني آدم أو هي خصائص

ترتفع بابن آدم إلى مستوى وجودي ارفع وأكرم من مستوى الحيوان، فالإبتلاء والجزاء والعلم والسيادة والبيان والحرية وغير ذلك كلها إنسانية، وليست خصائص بشرية " [(1)] .

نفخة الروح:

ومن هنا كانت نفخة الروح المؤهل الرئيسي لتطور المخلوق البشري إلى مرحلة الإنسان ومع اعتبار الروح أمر من أمر الله اختص بمعرفته فقد استمر العلماء والمفسرون في الحديث عن هذه النفخة ومظاهرها وتأثيرها في الحياة الإنسانية، وفي استقراء لورود كلمة روح في القرآن الكريم يبين البهي الخولي ما قاله العلماء بقوله مُلخصاً للموضوع: "ولقد قال العلماء ان الروح جاء في القرآن على عدة أوجه:

1- الروح المذكور في قوله تعالى: **" يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً (38) " (سورة النبأ)** ، **" تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) " (سورة القدر)** ، وهو روح عظيم من أمر الله لم يذكر لنا شيئاً آخر عنه.

2- جبريل عليه السلام، وذلك قوله سبحانه: **" نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (139) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) " (سورة الشعراء)** ، فهذا الروح ألامين هو جبريل، إذ المعروف انه هو الذي كان ينزل بالوحي من عند الله تعالى: **" قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(97) " (سورة البقرة)** ، وهو كذلك روح القدس لقوله تعالى:" **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) " (سورة النحل) .**

3- عيسى عليه السلام اذ سُمِّي بانه روح من الله في قوله سبحانه: **" إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ " (171) (سورة النساء) .**

4- الوحي ، وذلك قوله تعالى : **" وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا (52) " (سورة الشورى)** ، وقوله: **" يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (2) " (سورة النحل) .**

---

(1) مفاهيم قرآنية، حول حقيقة القرآن, الدكتور فاروق الدسوقي, بيروت, مكتبة فرقد الخاني-الرياض,الطبعة الثانية,1986م ص 65-67.

5- سر من لدنه سبحانه يمد بـه مـن يشاء مـن عبـاده المؤمنين فيكـون لهـم مـن صـفات الثبـات والقوة والسكينة ونحوها ما يتم به التأييد والنصر، وذلك قولـه تعـالى: **" أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (22) " (سورة المجادلة).** (1)

ويـصف الـدكتور الدسـوقي الـروح المـذكور فـي قولـه تعـالى: **" يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً (38) " (سورة النبأ)** وفـي قوله : " **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) " (سورة المعارج)** ، وقوله " **تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ(4) "(سورة القدر)** بأنـه كـائن عظـيم يخـصه الله بالـذكر عـن الملائكـة فيقـول "كـذلك وردت كلمـة الـروح معرفـة بالألف واللام دون إضافة (القدس) أو (ألامين) إليها وهي تدل على كائن عظيم يخصه الله

بالذكر عن الملائكة " .(1)

ولابد لنا من التعريج على مفردات الراغب حيث تتجلـى معـاني كلمـة الـروح بتفصيل دقيـق تبـين علاقتهـا بـالنفس مـن حيـث إدماجهـا معهـا كمـا تعـود بالكلمـة إلـى أصـول لهـا مثـل الريحان والريح: " الرَّوْحُ والرُّوحُ في الأصل واحد، وَجُعِلَ الرُّوحُ اسماً للنَّفَس ، قال الشاعر في صفة النار:

فقلت له ارفعها إليك وأحيها

بِرُوحِكَ واجعلها لها قِتِيةً قدراً

وذلـك لكـون النَّفَس بعض الرُّوح كتسمية النـوع باسـم الجنس، نحـو تـسمية الإنـسان بالحيوان، وجعل اسماً للجزء الذي بـه تحـصل الحيـاة والتَّحـرُّكُ واسـتجلاب المنـافع واسـتدفاع المضار ، وهو المذكور في قوله تعـالى: **" وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً " (85) (سورة الاسراء)** ، وقولـه : **" فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) " (سورة الحجر)** ، وإضـافته تعـالى إلـى نفسه إضـافة ملك، وتخصيصـه بالإضـافة تشريفاً لـه وتعظيمـاً كقولـه لـه **" وَطَهِّرْ بَيْتِيَ (26) " (سورة الحج)** ، **" قُلْ يَا عِبَادِيَ (53) " (سورة الزمر)** ، وسُمِّي أشـراف الملائكـة أرْواحـاً نحـو "

(1) آدم، مرجع سابق، البهي الخولي، ص 17-18.
(1) مفاهيم قرآنية، مرجع سابق، ص 61.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً (38) " (سورة النبأ) ، " تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ (4) " (سورة المعارج) ، " **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) " (سورة الشعراء)** ، سمي به جبريل ، وسماه بِرُوحِ القُدُسِ في قوله " **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ (102) " (سورة النحل)** ، " **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (253) " (سورة البقرة)** ، وسُمِّي عيسى عليه السلام رُوحاً في قوله " **وَرُوحٌ مِنْهُ (171) " (سورة النساء)** ، وذلك لِمَا كان له من إحياء الأموات، وسُمِّيَ القرآن رُوحاً في قوله: " **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا (52) " (سورة الشورى)** ، وذلك لكون القرآن سبباً للحياة الأخروية الموصوفة في قوله: " **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) " (سورة العنكبوت)** ، والرَّوْحُ التَّنَفُّسُ ، وقد أَرَاحَ الإنْسَانُ إذا تَنَفَّسَ ، وقوله : " **فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) (سورة الواقعة)** فالرَّيْحَانُ : ما له رائِحَةٌ، وقيل : رِزْقٌ ، ثم يقال لِلحَبِّ المَأْكُولِ رِيْحَانٌ في قوله تعالى : " **وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) " (سورة الرحمن)** ، وقيل لأعْرَابيٍّ: إلى أين؟ فقال: اطلب من رَيْحَانِ الله ، أي من رزقه" والأصل ما ذكرنا.

والرِّيحُ معروفٌ ، وهو فيما قيل الهَواءُ المُتَحَرِّكُ، وعَامَّةُ المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الرِّيح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة..الخ .[1]

وإذا كان استقراء كلمة روح تدل على أنها تأتي بمعاني مختلفة، كروح القدس أو الكتب السماوية أو ما إلى ذلك فإن نفخة الروح في الإنسان والمنسوبة إلى الله تعالى ستبقى سراً يصعب إدراك ماهيته وجوهره على ما ذهب إليه الأمام الغزالي، و يقول في ذلك الزمخشري: "ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله " **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ (85) " (سورة الإسراء)** ، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو بمعرفته" .[1] وفي التحرير: "وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصاً بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله". [2]

---

(1) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 369-370.
(1) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص 515.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الحادي والعشرون، ص 217.

وفي إحياء علوم الدين يذكرها العلامة الأمام الغزالي في كتاب شرح عجائب القلب على معنيين "أحدهما: جسم لطيف، منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به.. وهو بخار لطيف أنضجته حرارة، وليس شرحه من غرضنا.. المعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي أراده الله تعالى بقوله : **" قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (85) " (سورة الإسراء)** ، وهو أمر عجيب رباني ، تعجز اكثر العقول والإفهام عن درك حقيقته". (3)

أما عن هيئة تلك النفخة وكيف تمت فهو مما لا طائل في البحث عنه، ومحاولة البعض تشبيهها بإجراء الريح من الفم كما ذهب إليه الالوسي لا يسمن ولا يغني من جوع ففي تفسيره في آية سورة الحجر **" وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (29) "** ، " والنفخ في العرف إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، والمراد هنا تمثيل إفاضة مادة الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وليس هناك نفخ حقيقة"،(1) ولا يمكن هنا اعتبار مثل هذا التفسير ومن ثم التوصل إلى نتيجة انه ليس هنالك نفخ، بل إن الآيات تشير إلى حدوث هذه النفخة ولكن أهميتها تكمن في مكانتها في التكوين الإنساني لا في كيفيتها وماهيتها ، كما ان اعتبار الروح مصدر الحياة الإنساني لهو من الأخطاء الشائعة والتي ينفيها المنطق السليم، وإلا فما هو مميز الإنسان عن الحيوان حيث تتميز الحيوانات بإفاضة الحياة فيها أيضاً مما يؤكد ان النفس لا الروح هي مؤهل الحياة في مخلوقات الله كافة حتى في الإنسان أو ان صح التعبير البشر، "وان سبب موت الإنسان هو خروج هذه النفس من جسده، وليس خروج الروح، والآيات الدالة على ذلك كثيرة نأخذ منها قوله تعالى : **" ... أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً (32) (سورة المائدة)** ،وقوله تعالى : **" سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36) (سورة يّس)** ، وقوله أيضا : **" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (189) " (سورة الأعراف)** ، والآيات السابقة تدل على ان سبب حياة الإنسان ومصدر حياته هو النفس. وفي بيان سبب

(3) احياء علوم الدين للامام علم الاعلام وحجة الاسلام العلامة محمد ابي حامد الغزالي، الجزء الثالث ، دار الخير، ص 113-114.
(1) روح المعاني، مرجع سابق، المجلد السادس، ص281

الموت نجد آيات كثيرة تدل على ان السبب هو خروج هذه النفس ومفارقتها للجسد ، فالنفس هي مصدر النشاط الإنساني الحيوي ، وهي التي يقع عليها الموت **" وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34) "(سورة لقمان)** وقوله أيضاً : **" اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (42) " (سورة الزمر)** ، فالذي يتوفاه الله

هو النفس وليست الأرواح" [1].

وقد ذهب كثير من الفلاسفة إلى ان النفس اسبق في وجودها من الأبدان، وفي أراء ابن سينا على اعتبار أنها مصدر حياة الجسد حيث يقول في الشفاء: "الجسم محتاج إلى النفس تمام الاحتياج في حين أنها لا تحتاج إليه في شئ، ولا يتعين جسم ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس خاصة. بينما النفس هي هي سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل، ولا يمكن ان يوجد جسم بدون النفس لأنها مصدر حياته وحركته، وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم ولا أدل على هذا من أنها متى انفصلت عنه تغير واصبح شبحا من الأشباح "[2] ولعل أدل ما يدل على هذا الآية الأولى من سورة النساء قال تعالى : **" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ...الخ (1) " (سورة النساء).**

الحديث عن النفس والروح وتفسيرهما بحث مستقل بحد ذاته، وكل كلمة لها اعتبارها في هذا المجال ، وما يعني هذا البحث بيانه ان الروح ليست مبعث الحياة الإنسانية وقد تعتبر والله اعلم مؤهل الكرامة والخلود الإنساني ، والتي أدى وجودها في بني آدم إلى تكريمه وتفضيله على سائر المخلوقات بالسجود له وتسليمه منصب الخلافة، كما أهَّلت الإنسان لحياة الخلود الأخروية وهي الجوهر الإنساني الذي اكسب الإنسان تطلعاته النورانية نحو السمو والارتقاء : فـ "من ناحية دلالته الأخلاقية فان هذا العنصر الإلهي السامي الطاهر في الإنسان يجعل الإنسان ينزع نحو السمو على الدنايا ويشمئز من القذارة المادية والأخلاقية لان هذه الروح الطاهرة لا تقبل ان تُدَنَّس ولهذا يضيق الناس من تلك القاذورات إذا انغمسوا فيها حتى الذين سقطوا في الرذائل الأخلاقية لظروف

خارجية" .[1] ويبدو لي والله اعلم ان لها نحو اتصال مع النفس تعمل على مساعدة هذه النفس إلى الوصول إلى حالة الاطمئنان، على القول بان النفس على أحد معانيها: "المعنى

(1) مفاهيم قرانية حول حقيقة الإنسان، مرجع سابق، ص63-65
(2) النفس البشرية، عند ابن سينا، الدكتور البير نصري نادر، دار المشرق بيروت، ص15
(1) علم النفس التربوي في الاسلام، مرجع سابق، ص42.

الجامع لقـوة الغضب والشهوة في الإنسان... وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان..."[2]

" فالروح كما صوره الحديث النبوي الشريف بشكل عام حقيقة واحدة في كل الناس وهو خالد ولا يخضع للثواب والعقاب ولا يخضع لعملية النمو والتكامل، لأنه من "روح الله" أما النفس فهي تختلف باختلاف الناس وهي التي تخضع لعملية النمو والتكامل ويجري عليها الثواب والعقاب، وحتى الظلم والقتل يقع عليها،...، وهي بعكس الروح يمكن إدراك كنهها" [3].

فالنفس تتفاوت أحوالها من الامارة بالسوء إلى اللوامة إلى المطمئنة بتدافعها وامتزاجها مع الروح فإذا ما تغلبت قوة الروح في مثل هذا التدافع ارتقى الإنسان نحو حالة الاطمئنان والاستتباب، وانتكس في مقابل ذلك إلى حالة البهيمية إذا ما استجاب بإرادته واختياره إلى أقوى الغرائز الشهوانية فيه ومن هنا كان قوله تعالى: **" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) " (سورة الشمس)** ، فالفلاح والخيبة مقرونة بإرادة الإنسان واختياره لنهج طريق الفجور أو التقوى ، فالتدسية في الآية هي دفن للحقائق الفطرية من الهام التقوى خاصة إذا عرفنا ان من خصائص هذه الروح معرفة الحقائق بالتذكر بحكم وجودها السابق على وجود الإنسان في العالم العلوي ، وذلك ما يشير إليه الدكتور عبد الغني عبود في معرض حديثه عن الروح عند الفلاسفة والقدماء وهي "تعرف الحقائق بالتذكر ، ولا يحجبها عنها الآ حجاب الجسد ، وضلال الحس والشهوة "[1].

من هنا كانت الأفاق التي يستطيع الإنسان ارتيادها واسعة عميقة، بسبب ما تَجَمَّع فيه من قوى مادية ومعنوية متغايرة الكفاءات والقدرات فهو يستمد بسبب من نفخة الروح إدراكاً يعود به إلى ما قبل خلقه الجسدي، بذاكرته وبالغوص في ثناياها حيث يتحقق له معرفة علاقاته وارتباطاته بهذا الوجود على ما سبق و ذكرناه في موضوع الفطرة: "ان فطرة التدين في الإنسان آتية إلى الإنسان أساسا من تكوينه الروحي، وقد وضع الله هذا الجزء السامي في طبيعة الإنسان ليجذب الإنسان إليه وليكون عبدا له لا عبدا للطبيعة المادية ، [2]

---

(2) احياء علوم الدين، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص114.
(3) صورة الإنسان في الحديث النبوي الشريف، الدكتور كامل حمود، دار الفكر اللبناني بيروت ص32
(1) الإنسان في الاسلام والإنسان المعاصر، مرجع سابق، ص93
(2) علم النفس التربوي في الاسلام، مرجع سابق، ص42

تماما كما يستمد من القبضة الطينية المادية فيه بما فيها من التعامل الحسي المباشر مع هذا الكون مؤهل السيادة والأعمار فيه، ومن هنا كان خلق الإنسان في احسن تقويم .

الإنسان في احسن تقويم :

لقد أوضحت آيات سورة المؤمنون ان خلق الإنسان قد اكتمل بنفخة الروح فيه وتمازجها في هذا الكائن مع مكوناته الأخرى ليصبح كائنا جديدا مغايرا في خلقه ودوره لكافة المخلوقات الأخرى ، فبينَّ في الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشر و أوائل الرابعة عشر طبيعة الأصل الطيني وتطوراته ثم انتقل في نهاية الآية الرابعة عشر لذكر النشأة الأخرى في خلقه " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) "(سورة المؤمنون)** ، وفي الحديث "عن ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ان أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه واجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد ، فو الذي لا اله إلا غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها"، وعن حذيفة بن اسيد القفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة يقول: يا رب ماذا ؟ شقي أم سعيد، اذكر أم أنثى؟ فيقول الله ، فيكتبان ويكتب عمله و أثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص" وقد رواه مسلم في صحيحه" (1) .

فمن الملاحظ في الحديث ان عملية نفخ الروح تتم بعد فترة معينة من تشكل الإنسان في ما بعد مرحلة المضغة، وفي الآية ان النشأة الآخرة تتم بعد اكتساء العظام باللحم ، وان كان هذا يدل على شئ فإنما يدل على ان اكتمال إنسانية الإنسان يتحقق بعد نفخة الروح واستيعاب التكوين البشري لها "وفي الآية دلالة على بطلان قول النظام في ان الإنسان هو الروح لا

---

(1) ابن كثير، المجلد الثالث، ص241.

البدن فانه سبحانه بيَّن أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات".[1]، وجاءت "ثم لكمال التفاوت بين الخلقيين " .[2] فاصبح الإنسان بمجموع هذه القوى وتمازجها مع بعضها البعض، يختلف جذريا عما كان عليه من سيطرة قوة واحدة فيه ولذلك عبر بقوله أنشأناه وكأنه خلق جديد بالكلية احتاج إلى إنشاء جديد "واتمام خلقه إنشاء له" .[3] وعقب بذلك بقوله "خلقا آخر" "أي خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها" .[4] ولعل هذا هو المقصود في قوله تعالى في سورة التين : **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) " (سورة التين)** لا ما ذهب إليه كثير من المفسرين من القول بان احسن تقويم هو الشكل الظاهري الحسن للإنسان كما قيل في التفسير "في احسن تعديل لشكله وصورته ولسوية أعضائه .[5] " وان رده اسفل سافلين هو تعبير أيضا عن تغيير المظهر العام له وعودته إلى اراذل العمر "ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين اسفل من سفل في حُسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد سواده.. الخ"[6].

وان كان لا يمنع أمثال هذه الأقوال من بعض الوجوه غير انه لا يمكن أفرادها بتفسير احسن تقويم واسفل سافلين بل لا بد من اعتبار الإنسان بكليته في التفسير وإلا ما معنى استثناء المؤمنين الصالحين من الرد اسفل سافلين فهم أيضا يعجزون ويهرمون، وقد ذكر الفخر الرازي ذلك بقوله "المراد من الإنسان هذه الماهية، والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي ان يكون في التأليف والتعديل، يقال قومته فاستقام وتقوم.." [1] وبيَّن ان المفسرين قد " ذكروا في شرح الحسن وجوها: انه تعالى خلق كل ذي روح قلبا على وجهه إلا الإنسان فانه تعالى خلقه مديد القامة يتناول ماكوله بيده وقال الأعصم: في اكمل عقل وفهم و أدب وعلم بيان، والحاصل ان القول الأول راجع إلى الصورة الظاهرة والثاني إلى السيرة الباطنة". [2]

وذهب ابن عاشور إلى تأييد تفسير احسن تقويم بجوهر الإنسان بثلاثة أمور بقوله **أولا :** ان "تعريف (الإنسان) يجوز ان يكون تعريف الجنس، وهو التعريف الملحوظ فيه مجموع

(1) التفسير الكبير، الجزء، ص85.
(2) تفسير ابي السعود، الجزء السادس، ص126.
(3) التفسير الكبير، الجزء ،ص85.
(4) الكشاف، المجلد الثالث، ص181.
(5) الكشاف ، المجلد الرابع ، ص779 .
(6) الكشاف، المجلد الرابع، ص779.
(1) التفسير الكبير، الجزء الثاني والثلاثون، ص10.
(2) التفسير الكبير ، الجزء الثاني والثلاثو ن ، ص10 .

الماهية مع وجودها في الخارج في ضمن بعض أفرادها أو جميع أفرادها، ويجوز ان يكون تعريف (الإنسان) تعريف الحقيقة... نحو قولهم: الرجل خير من المرأة ، وقول امرئ القيس:

الحرب أول ما تكون فتية

فلا يلاحظ فيه أفراد الجنس بل الملحوظ حال الماهية في اصلها دون ما يعرض لأفرادها مما يغير بعض خصائصها، ومنه التعريف الواقع في قوله تعالى: "ان الإنسان خلق هلوعا" [3].

ثانيا: ان "احسن التقويم أكمله واليقه بنوع الإنسان أي احسن تقويم له ، وهذا تقتضي انه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات... وحرف (في) يفيد الظرفية المجازية المستعارة لمعنى التمكين والملك فهي مستعملة في معنى باء الملابسة أو لام الملك، و إنما عدل عن أحد الحرفين لهذا إلى حرف الظرفية لإفادة قوة الملابسة أو قوة الملك مع الإيجاز ولولا الإيجاز لكانت مسواة الكلام ان يقال: لقد خلقنا الإنسان بتقويم مكين هو احسن تقويم" .[1] فهذا التقويم خاص بالإنسان حيث اختلف عن الطبيعة الحيوانية بامتزاج نفخة الروح فيه.

ثالثا: "أفادت الآية ان الله كوَّن الإنسان تكوينا ذاتيا متناسباً مع ما خلق له نوعه من الأعداد لنظامه وحضارته ، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله ولا جديرا بان يُقْسِم عليه إذ لا اثر له في إصلاح النفس و إصلاح الغير، والإصلاح في الأرض ، و لانه لو كان هذا المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين ، و إنما هو قسم لتقويم النفس .... قال النبي عليه افضل الصلاة والسلام: "ان الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" رواه مسلم، فان العقل اشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع ، فالمُرْضِى عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح لان ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد، إذ الجسم آلة خادمة للعقل" .[2] "و أما خلق جسد الإنسان في احسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة ويظهر هذا كمال الظهور في قوله: " **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)** "**(سورة التين)** ، فانه لو حمل الرد أسفل سافلين على مصير الإنسان في أرذل العمر إلى نقائض قوله كما فسر به كثير من المفسرين لكان نبوه عن غرض السورة أشد ....

---

(3) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص423.
(1) المرجع السابق، ص424
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص424-425 .

ويدل لذلك قولــه بعده : " **إلاَ الَّذِينَ آمَنُـوا** " لان الإيمان اثر التقويم لعقل الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله على الطريق الأقوم " .[1]

ومن هذه الثلاث يتوصل ابن عاشور على ان مقصود الآية هو الفطرة السوية التي خُلق عليها الإنسان "والذي نأخذه من هذه الآية ان الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها ، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكاً مستقيما، أي الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر، بسبب ما تؤديه الحواس السليمة، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين"[2].

على انه يجب علينا في الحديث عن احسن تقويم ان لا نغالي فنفصل الترابط الوثيق القائم بين هيكلية الإنسان ومضمونه فلا شك ان النظر في ذلك يؤدي بنا إلى القول ان الإنسان قائم على توافق وترابط التقويم النفسي الروحي مع التقويم الجسدي المادي حتى ابن عاشور نفسه عاد فبيَّن دور الحواس السليمة في عملية الإدراك في قوله الذي عرضناه سابقاً ، ثم أن العودة إلى الآية السابقة من سورة السجدة لتعطي دلالة على ذلك يقول تعالى: " **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9)** " **(سورة السجدة)** ، فقوله تعالى "(احسن كل شئ) أي حَسَّنَ سبحانه كل مخلوق من مخلوقاته لانه ما من شئ منها إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت في مراتب الحُسْنَ كما يشير إليه قوله تعالى "ولقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم"[1]، ثم فَصَّل بعد ذكر الإحسان في عملية الخلق عامة، فَصَّل عملية خلق الإنسان من بداياتها إلى منتهاها بما تضمنتها عملية خلق الجسد ومدركاته من السمع والبصر لبيان مستوى التقويم الأحسن الذي وصل إليه دون سائر المخلوقات الأخرى ، كما ويعتبر الجسد الوعاء الذي من خلاله يتم العمل الصالح الذي ذكرته الآية في قوله: " **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(6)** " **(سورة التين)** ، والرد على القول بان بقية الآيات من الاستثناء "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات "من ردهم إلى "اسفل سافلين" ينفي تفسير احسن تقويم بتقويم الجسد لان المؤمنين يهرمون أيضا ويعودون إلى ارذال العمر مما يوحي بالتناقض، الرد على ذلك ان الله عز وجل قد ذكر في الآية درجات في التسفل فقال

---

(1) التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثون ، ص424-425 .

(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص425

(1) روح المعاني، المجلد الحادي عشر، ص121

"اسفل سافلين" مما يوحي بان هناك اسفل وهناك مستوى اكثر تسفلا، ولعل ارذل العمر درجة سفلى من هذه الدجات قد يصلها الإنسان.

فالمؤمنون قد يصلون إلى إحدى هذه الدرجات السفلى حالة انهيار التقويم الجسدي في مرحلة ارذل العمر ولكن الانحطاط الأعظم الذي قصدته الآية و إرادته مُعلناً واضحاً هو حالة انهيار التقويم الروحي في الإنسان ، وهنا يستثنى تعالى المؤمنون العاملون للصالحات من ردهم إلى "اسفل سافلين" بل يعتبرهم بالحفاظ على هذا التقويم الروحي لا زالوا في احسن تقويم ، لان الاعتبار عند الله هو النظر إلى القلوب لا الأجساد كما ذكر الحديث النبوي الشريف.

ويؤدي بنا الحديث عن ضياع هذا التقويم الروحي ، الحديث عن الأمانة التي حملها الإنسان لاعتبارات مختلفة: منها ان بعض المفكرين قد فسروا الأمانة سواء حملها أو ضيَّعها بأنها هي نفخة الروح مما يلائم ما نحن بصدده من تفسيرات حول نفخة الروح وقوله تعالى: "احسن تقويم"، ومنها ان الأمانة هي المتعلق الرئيسي بإنسانية الإنسان وماهيته.

الأمانة بين المجاز والحقيقة:

لقد بقيت الأمانة المذكورة في قوله تعالى في سورة الأحزاب: **" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) " (سورة الأحزاب)** ، مثار جدل طويل وتفسيرات شتى عند علماء المسلمين ومفكريهم قدماء ومحدثين.

فقد أيد الدكتور يوسف القرضاوي تفسير آية الأمانة على الأساس المجازي في اللغة العربية في كتابه "كيف نتعامل مع السنة، معالم وضوابط" في حديثه عن التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث حيث ضرب مثالا للمجاز بأنواعه المختلفة آية الأمانة في سورة الأحزاب، واعتبر ان المجاز يكون ابلغ من الحقيقة بوصفه للُغة العربية قائلا "العربية لغة للمجاز فيها نصيب موفور، والمجاز ابلغ من الحقيقة كما هو مقرر في علوم البلاغة...".[(1)] ونوه إلى مقصده بالمجاز في قوله "والمراد بالمجاز هنا ما يشمل المجاز اللغوي والعقلي، والاستعارة والكناية والاستعارة التمثيلية وكل ما يخرج باللفظ أو الجملة عن دلالتها المطابقية

(1) كيف نتعامل مع السنة، معالم وضوابط، د. يوسف القرضاوي، المعهد العالمي للفكر الاسلامي , الطبعة الثانية 1990م , ص155

الأصلية" .[1] وعلق على الأمثلة التي ضربها للمجاز بعد ان ذكر مثال آية الأمانة بقوله "ومثل ذلك ما قاله كثير من المفسرين في قوله تعالى: "انا عرضنا الأمانة... وحمل الكلام على المجاز في بعض الأحيان يكون متعينا وإلا زلت القدم وسقط المرء في الغلط" [2].

وما ذهب إليه العلامة الدكتور القرضاوي من تفسير آية الأمانة بما تشتمل عليه عملية العرض على السموات و الأرض من مجاز، ذهب إليه قسم كبير من المفسرين في حين أولّها قسم آخر معتبرا إن هذه الآية تشبه آية الإشهاد في سورة الأعراف **" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) " (سورة الأعراف)** ، وأنها حدثت في الوجود الأول المتمثل للإنسان في الغيب وأنها على الحقيقة وان عملية العرض على السموات والأرض والجبال لهذه الأمانة أيضا على الحقيقة، يؤيد ذلك ابن عاشور في تفسيره "وافتتاح الآية بمادة العرض ، وصوغها في صيغة الماضي ، وجعل متعلقها السموات الارض والجبال والإنسان يومئ إلى ان متعلق هذا العرض كان في صعيد واحد فيقتضي انه عرض أزلي في مبدأ التكوين عند تعلق القدرة الربانية بإيجاد الموجودات الأرضية وإيداعها فصولها المقومة لمواهبها وخصائصها ومميزاتها الملائمة لوفائها بما خلقت لأجله" .[3] وعلى الرأي الأول فسر الالوسي هذا العرض والحمل للأمانة بقوله: "وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر من السموات وغيرها من حيث الخصوصيات بالعرض عليهن، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن لها، وعدم استعدادهن لقبولها ومنافاتها لما هن عليه بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية مخافتها، وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة، المعنى ان تلك الأمانة من عظم الشأن بحيث لو كُلّفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مَثَلٌ في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وخفن منها لكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق لزيادة تحقيق المعنى المقصود وتوضيحه".[1]

أما كلمة الأمانة ذاتها فقد فسرت في لسان العرب على القول بان الأمانُ الأمانةُ بمعنى "الأَمْنُ ضدُّ الخوف، والأمانةُ ضدُّ الخيانة، والإيمان بمعنى التصديق ضدُّه التكذيب...

---

(1) كيف نتعامل مع السنة، معالم وضوابط، د. يوسف القرضاوي، ص156
(2) المرجع السابق، ص156
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثاني والعشرون، ص124
(1) روح المعاني للألوسي ، المجلد الحادي عشر ، ص270 .

والأمانةُ تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثّقة و الأمان ، وقد جاء في كل منها حديث" .[2] "أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين واءتمنهم عليها و أوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها و المحافظة عليها و ادائها من غير إخلال بشيء من حقوقها".[3]

وبحث الأمانة بحث طويل استفاض المفسرون في الحديث عنه وتأويله وقد أجملت الدكتورة عائشة عبد الرحمن الأغلب الأعم من الأراء الواردة في الأمانة وحَمْلِها في كتابها (القران وقضايا الإنسان) ، ألخصها إيجازا للموضوع مع الردود التي قدمتها على هذه الآراء: "اختلفت الأقوال في تأويلها... فما هذه الأمانة الصعبة التي تصدى الإنسان لحملها وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟ قيل: الأمانة الطاعة والفرائض وكلمة التوحيد والعدالة وحروف التهجي والعقل، واختار الراغب الأصفهاني العقل "فانه تتحصل به معرفة التوحيد وتحري العدالة وتعلم حروف التهجي، وكل ما يتعلق في طوق البشر تعلمه وفعل ما في طوقهم من الجميل، وبالعقل فضل على كثير من خلقه.... وخصها بعض المفسرين بآدم، حمل الأمانة ثم لم يلبث ان عصى ربه فأخرج من الجنة وخصها بعضهم بقابيل: ائتمنه أبوه آدم على أهله وولده ، فما لبث ان خان الأمانة وقتل أخاه هابيل ، واختار الزمخشري الطاعة مع تأويل الحمل في معنى الآباء والنكوص"[1]. أما ردها على هذه الأقوال فقد بينت ان: "تخصيص الأمانة بآدم مع ربطها بخروجه من الجنة ياباه سياق الآية في حمل الإنسان الأمانة، لعموم مطلق لا يقف عند ابتلاء آدم وخروجه من الجنة، واوهى منه ان تخص الأمانة بقابيل، خان ما ائتمنه عليه أبوه آدم، فالذي في الآية ان الله هو الذي عرض الأمانة فحملها الإنسان ، ولا يمكن ان نضع آدم مكان الله ولا ان نضع قابيل مكان الإنسان.

وتأويل الأمانة بعموم الأمانات على ما اختاره الطبري يرده ان الأمانة في آية الأحزاب متميزة بالأفراد والتعريف بال ، والبيان القرآني قد اتجه إلى التعميم فذكر "أمانات" بصيغة الجمع في آيات (المؤمنون، والمعارج ، والأنفال) فعدول القران عن صيغة الجمع إلى الأمانة مفردة لا يَسْهُل معه تأويلها بعموم الأمانات".[2] "وقصر الأمانة على العقل كما ذهب الراغب في المفردات ينفيه ان العقل وان هُدِي إلى حمل الأمانة

---

(2) لسان العرب ، الجزء الأول ، ص113-114 .
(3) روح المعاني ،للآلوسي ، المجلد الحادي عشر ، ص270 .
(1) القران وقضايا الإنسان، مرجع سابق، ص64-65
(2) المرجع السابق، ص65

فليس مقبولا ان يكون مرادفا لها في حس العربية المرهف الذي يجلوه البيان القرآني.

والقول بان الأمانة هي الفرائض الدينية يُرَدُّ عليه ان القران جاء برعاية الأمانات إخبارا عن المؤمنين في سياق يجمعها مع اداء الفرائض الدينية في سورة المؤمنين من آية (1-9) وفي المعارج من آية (19-34) ... فتشهد بذلك ان الأمانات المرعية ، شيء غير الفرائض الدينية المؤداه : صلاة وزكاة وإيمان بالله واليوم الآخر، اجتنابا لكبائر الإثم والفواحش"[1].

"وتأويل الأمانة بالطاعة على ما ذهب إليه بعضهم يرد عليه مثل ما يرد على تأويلها بالفرائض الدينية".[2]ثم بينت بنت الشاطئ ان الأمانة ما هي إلا: "الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار، فكل الكائنات عدا الإنسان ، مُسيَّرة بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والامتثال ، دون تحمل لتبعة ما تعمل .... وان الإنسان وحده هو المسؤول عن عمله، المحاسب عليه ثوابا وعقابا لا يحمل أحد عنه تبعة مسعاه ولا يموت بغير جزاء ...." [3].

"حملها الإنسان ، مطلق الإنسان ، تحقيقا لذاته وممارسة لخلافته في الارض، ولو كان قد قبل التسخير لاعفاه من المسؤولية والحساب ، لكنه ابى الا ان يتحمل امانة انسانيته ، وان جهل خطرها وقصر في الوفاء التام بكل حقوقها **(انه كان ظلوماً جهولاً)** وايثار لفظ الامانة هنا، بدل غيرها من الالفاظ التي يظن انها مرادفة لها كالتكليف والمسؤولية والتبعة والعهد، هذا الايثار ملحوظ فيه حس العربية الاصيل للامانة ، لما تعني من امن الخوف وحذر الخيانة.

فالإنسان فيما يحمل من أمانة إنسانيته ، يخاف الخيانة، وهو خاضع لرقابة خالقه، مسؤول أمام ضميره، ومن هنا كانت مشقة الأمانة وصعوبتها إذ تلوح الفرص للإنسان مغرية بالنفاق تهربا من المسؤولية أمام الناس، ومن ثم يتعرض لامتحان عسير وبلاء مبين.

والإيمان من الأمانة ، لكنه أخص منها بمجال العقيدة، على حيث تتسع دلالة الأمانة لمعنويات الإنسانية، ومسؤولياتها التي تأبى التسخير وتتحمل تبعة الحرية والاختيار" [1].

(1) المرج السابق، ص66
(2) المرج السابق، ص67
(3) المرجع السابق ، ص72 .
(1) المرجع السابق، ص73-74

وقد ارتاى المفكر عباس محمود العقاد ما راته وذهبت إليه الدكتورة عبد الرحمن في كتابه (الإنسان في القران الكريم) باعتبار الأمانة هي التكليف شارحا مفصلا مستدلا بأقوال المفسرين والعلماء حتى وصل إلى ذات النتيجة قائلا "ولقد وضح معنى (الأمانة) في هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود، وهو التكليف، فمن لم يذكره من المفسرين بنصه، ذكر بمقتضياته ومتعلقاته وهي ملازمة له لا تنفك عنه"[2].

وقد بدا ذلك التفسير أكثر وضوحا عندما رَبَطَ ما بين اعتبار عرض الأمانة من أمر التكوين والاستعداد بالفطرة وبين ذكر صفة الإنسان بأنه ظلوم جهول "أما الأمانة التي عرضت على الخلق عامة، فحملها الإنسان ولم يحملها أحد من خلقه، فهي اعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة (التي وردت فيها الآيات القرآنية ذكر كلمة أمانات بصيغ مختلفة) بالنسبة إلى أحكام التبليغ، لان الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التي فطر عليها العاقل وغير العاقل، واستعد لها الحي وغير الحي، المخاطب بالتبليغ وغير المخاطب، وفي هذا الموضع من القران الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليقة كلها، وذكرت ومعها صفة الإنسان التي تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها، وما كان ليحملها إلا ان يتعرض لتبعاتها فهو ظلوم لانه يتعدى الحدود وهو يعرفها، وجهول لانه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها " .[1]

وبناءا على هاتين الصفتين اللتين ذُيلت بهما الآية فقد خص البعض الإنسان هنا بالكافر مستدلين بان الكافر هو الذي يستحق ان يوصف بهاتين الصفتين من دون المؤمنين، إلا ان المتابع للآية التالية لها يتبين له ولمجرد النظرة الأولى ان المقصود بالإنسان مطلق الإنسان فقوله تعالى : " **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (73) " (سورة الأحزاب)** ، فهي تبين بوضوح الفئات الإنسانية المختلفة وموقفها من الأمانة وما تستحقه كل فئة بالنسبة لمستوى تأديتها الأمانة ، فالمنافقون والمشركون معذبون لخيانتهم لهذه الأمانة أما المؤمنون والمؤمنات فهم وان أدوها فلا شك واقعون في نطاق تلك الصفتين من الظلم الجهل، وعلى هذا استحقوا المغفرة والتوبة على تقصيرهم مضافا إليه محاولاتهم الحثيثة لادائها والخروج

(2) الإنسان في القران الكريم، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت ص38-39
(1) الإنسان في القران، مرجع سابق، ص38

بأنفسهم من دائرة الظلم والجهل أو التعالي عليهما. وإلى ذلك أشار الالوسي في تفسيره: "أي حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة، على ان اللام للعاقبة، فان التعذيب وان لم يكن غرضا من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده، ترتبُ الأغراض على الأفعال المعلقة بها أُبرز في معرض الغرض أي: كان عاقبة حمل الإنسان لها ان يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية.

وإلى الفريق الثاني أشير بقوله تعالى: " ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات" أي كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أي يقبل منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة" (1).

فالإنسان في آية الأحزاب هو الإنسان عموما يؤيد ذلك ما قلناه من استيعاب الآية اللاحقة لكافة فئات الناس ، وتبقى صفات من مثل الظلم والجهل صفات مكتسبة في الإنسان بحكم غرائزه من مثل حب التملك والخلود مما يؤدي به إلى ترسخ هذه الصفات فيه يتعالى عليها أو ينغمس فيها بحكم إرادته ورغبته في استذكار أو تحقيق مكانته في الوجود ومهماته الموكلة إليه، كما تؤيد ذلك الدكتورة بنت الشاطئ في تفسير الإنسان "استبعد كذلك تأويل الإنسان في آية الأحزاب بالكافر أو المنافق، فلا وجه اطلاقا لهذا التخصيص، والبيان القرآني يقضي بأنه مطلق الإنسان، على مألوف استعمال الكتاب المحكم للفظ الإنسان معرفا (بال)، لعموم جنسه" (2).

توجه جديد في تفسير الأمانة:

كنت قد ذكرت فيما سبق ان إقحام موضوع الأمانة في فصل ماهية الإنسان هذا كان لطبيعة العلاقة الخاصة بين هذه الأمانة وهذه الماهية، فالأمانة هي التي تثبت تميز هذه الماهية عن غيرها من جواهر المخلوقات الأخرى، فهي النتيجة الحتمية لتفضيل الإنسان

(1) روح المعاني للالوسي، المجلد الحادي عشر، ص271
(2) القران وقضايا الإنسان، مرجع سابق، ص74 .

وتمايزه عن سائر المخلوقات، إلى هذا أشارت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها: "وإذا نص القران الكريم في مواضع ورود أمانة وأمانات على ما هو لله منها وما هو للناس، فقد تعين ان إفراد "الأمانة" معرفة بال في آية الأحزاب، والتصريح لحمل الإنسان لها في العموم المطلق للفظ الإنسان، ومنه المؤمن وغير المؤمن، تعيَّن ان تكون الأمانة في مثل هذا السياق اختصاصا مميزا، يتصدى لحملها الإنسان". (1)

ومن الناحية الثانية فان ذكر الأمانة في هذا الفصل يعود أيضا إلى ما تبناه الدكتور فاروق الدسوقي بأنها هي الروح ، وبذلك تكون جزءا لا يتجزأ من ماهية الإنسان وجوهره، ويدلل على رأيه هذا والذي قد تفرد به بمجموعة من الأدلة فهو يعتبر ان الأمانة أمر غيبي لان عملية العرض والتخيير "كانت في الوجود الغيبي الأول للإنسان حيث جمع عز وجل المخلوقات كلها ومنحها لحظة تخيير وجودية، وعرض عليهم جميعا بلا استثناء الأمانة ، وهذا يستتبع ان الأمانة أمر غيبي".(2) ويستنتج ان كافة المخلوقات قد رفضت حمل الأمانة ما عدا الإنسان، ذلك انه فسر العرض على السموات والأرض والجبال "أي السموات ومن فيها، والأرض ومن فيها وما فيها بما في ذلك الجبال، أي العالمين أو المخلوقات جميعا".(1) وينبني على هذا "ان الإنسان تميز عن سائر المخلوقات جميعا لحمل الأمانة".(2) ويعتبر ان الأمانة هي جوهر الإنسانية أو سرها باعتبار ان "الإنسانية هي مجموعة الخصائص أو الخاصية التي تتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات... فيستبعد من ذلك الخصائص والأحوال المشتركة بينه وبين الكائنات الأخرى، وحيث انه قد ثبت ان الإنسان ينفرد عن سائر المخلوقات بحمل الأمانة، فان الأمانة تكون هي جوهر الإنسانية أو فيها يكمن سر الإنسانية".(3) وبناءا على شرحه هذا فانه يضع لمعرفة الأمانة أو سر الإنسانية شروطا ثلاثة: "1- ان تدخل كمكون أساسي وجوهري في حقيقة الإنسان وليست عرضا من أعراضها، 2- ان تكون خاصة بالإنسان فلا يشاركه فيها غيره 3-ان تكون شيئا قابلا للضياع كما يكون في استطاعة بني آدم ومكنتهم المحافظة عليها... لان المفهوم من الآية ان الله عز وجل عرض شيئا على المخلوقات وهذا الشيء أمر غيبي، وهو ذو شأن خطير بالنسبة لمن يحمله في حاضره ومستقبله وبالرغم من كونه غيبياً ، فانه لا بد ان يتصف بالمعنى الخاص في

---

(1) المرجع السابق، ص72 .
(2) مفاهيم قرانية حول حقيقة الإنسان، مرجع سابق، ص51
(1) المرجع السابق، ص50
(2) المرجع السابق، ص51
(3) المرجع السابق، ص52

الارض، ونعني به الوديعة المستردة التي يحاسب حاملها على الإفراط كما يجازي بالمدح والثناء، وغير ذلك على المحافظة عليها وتأديتها" [4].

وعليه فهو يؤكد ان الروح هي التي تتحقق فيها هذه الشروط بناءا على أمور عدة نجملها فيما يلي:

أولا: ان آدم قد خُلق على مرحلتين، المرحلة الطينية التي صار بها بشرا ويعتبرها مرحلة التسوية، والمرحلة الثانية مرحلة نفخ الروح حيث يفرق بين التسوية ونفخ الروح على أساس ان مصدر حياة الإنسان هي النفس وليس الروح "ومنذ بدء تكون الجنين.. وهذا المخلوق كائن حي ودلالة حياته التغذي والنمو حتى انه بعد ان كان خلية حية لا ترى بالعين المجردة اصبح في حجم المضغة أي قطعة اللحم الصالحة للمضغ ثم يخلقه الله طورا بعد طور حتى يأخذ هيئة والديه الجسدية بعد ان يكسو الله العظام لحما...".[1] وذلك كله قبل عملية النفخ للروح، ويرفض رفضا قاطعا القول بان التسوية في قوله تعالى: **"وإذ قال ربك للملائكة أني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين"** هي ما قاله السابقون من أنها تعني "تشكيل الطين تمثالا على هيئة البشر المعروفة، ولما نفخ الله فيه من روحه دبت الحياة في الطين وصار آدم إنسانا".[2] ، لانه كما يقول " ان 1 - التسوية في اللغة تعني تمام صنع الشيء أو تمام الفعل.

2- الضمير الغائب في "سويته" "الهاء" عائد على "بشرا" في الآية.

3- ليست الروح مصدر حياة الإنسان.. وثبت لنا ان النفس هي مصدر حياة الإنسان".[3]

"على ذلك فان قوله تعالى، فإذا سويته يعني فإذا اتممت خلقه بشرا سويا كامل الحياة، فيه قلب ينبض ورئة تتنفس وعين ترى وأذن تسمع ومصدر ذلك كله عند آدم البشر في

المرحلة الأولى من خلقه هو النفس".[1] أضف إلى ما قلناه سابقا عن قوله تعالى: "ثم انشاناه خلقا آخر" في آية المؤمنون، فان الأستاذ الدسوقي يتساءل عن هذا الإنشاء ماذا كان آدم قبله، وماذا صار بعده، ويرى انه كان بشرا بالتسوية ثم صار إنسانا وذلك بنفخة الروح المتمثلة في هذا الإنشاء "فإذا تبين لنا هذا فانه يتحتم علينا ان نسأل عن المرحلة الثانية في خلق آدم، أي

(4)المرجع السابق، ص52-53
(1) المرجع السابق، ص71
(2) المرجع السابق، ص68
(3) المرجع السابق، ص68
(1) المرجع السابق، ص68

عن النفخة الإلهية الكريمة ماذا أعطى الله بها لادم، إذا كان حيا قبل ان يتلقاها، وهنا تجئ الإجابة الواضحة بان النفخة الإلهية الكريمة هي التي رفع الله بها آدم من مستوى البشرية الذي كان فيه مجرد كائن حي إلى مستوى الإنسانية الذي هو أحسن تقويم.

وعلى ذلك تكون النفخة الإلهية الكريمة أو الروح هي سر الإنسانية وهي جوهر الإنسان، وحيث ان آدم تلقاها وهو حي فانه يمكن ان تضيع منه وهو حي".[2] وبهذا يستنتج ان الروح هي ذاتها الأمانة فهي جوهر الإنسان وينفرد بها عن سواه من المخلوقات "حيث ان الله لا ينفخ الروح في أجنة الحيوانات ولم يرد ما يثبت ذلك".[3] والروح وديعة مستردة "ان بني آدم يتلقون الروح وهم أحياء ومن ثم إذا فقدها أو ضيعها بعضهم فانهم لا يموتون بل يظلون أحياء ، فهي بذلك وديعة مستردة قابلة للضياع والمحافظة عليها " .[4] تماما كما الأمانة وديعة مستردة من "قبل الإنسان حملها في لحظة

تخيير في مرحلة وجودية غيبية فهي أمانة غيبية والروح أمر غيبي" .[1]

عود على بدء :

ولا زلنا مع الدكتور الدسوقي في انطلاقته من هذه النقطة بالذات إلى تفسير آيات سورة التين فيقول: و "إذا حافظ ابن آدم على الأمانة (الروح) ظل إنسانا في احسن تقويم وإذا فقدها ارتد إلى مستوى البشرية الذي هو في مستوى الحيوانية أو إلى مستوى أدنى واسفل من ذلك كل بحسب عمله".[2] فعندما يفقد الإنسان سر الإنسانية فانه يرتد إلى اسفل سافلين، وهذا يدل على ان ابن آدم لم يبدأ حياته كانسان بل كان كائنا حيا فقط ثم رفعه الله إلى احسن تقويم فإذا كفر أو أشرك ضاع فيه سر التقويم الأحسن فارتد مرة ثانية اسفل سافلين ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال تعالى "ثم رددناه" ولكان استخدم لفظ ثم حططناه أو سفّلناه أو أنزلناه، لان رددناه يعني أعدناه إلى ما كان عليه من درجة وجودية هابطة متسفلة أحط من الدرجة التي رفعناه إليها أي إلى احسن تقويم" .[3]

---

(2) المرجع السابق، ص69
(3) المرجع السابق، ص73
(4) المرجع السابق، ص73
(1) المرجع السابق، ص73
(2) المرجع السابق، ص73
(3) المرجع السابق، ص73

كما يصف الله عز وجل الكافرين بأنهم موتى القلوب لان النفس هي مصدر حياة جسد الإنسان أما الروح فهي حياة قلبه ومضيع الروح ميت القلب قال تعالى " **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) " (سورة النمل)** ، و "ان ساعة وفاة العبد هي ساعة تسليم الأمانة، وبذلك فان المؤمن هو الذي يحافظ على روحه ومن ثم تصعد نفسه تُنيرها الروح وترجع إلى ربها راضية مرضية أما الكافر الذي ضيع الأمانة وفقد الروح فانه عندما يموت فان نفسه فقط تخرج من جسده مظلمة معتمة خبيثة ليلقى جزاءه على إفساد ذاته والإفراط في أمانته " (1).

ان مثل هذا التفسير الحديث للأمانة ليثير التساؤل والدهشة، وعلى ما فيه من أدلة مقنعة، واستنباطات لطيفة، إلا انه يثير في النفس الكثير من التساؤلات: فهل يمكننا فعلا ان نُفعِّل جانب المجاز إلى هذا الحد في الآية التي اعتمدها الكثير من المفسرين والمفكرين واعتبروها على الحقيقة، وإذا كان كذلك فهل يمكننا التيقن المطلق بان نفخة الروح في الإنسان هي خاصية مميزة له، فالآيات التي تحدثت عن الروح بأجمالها لم تحدد ذلك وان كانت لم تثبت هذه النفخة لغير الإنسان، ثم ان قوله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين" كان فيها إشارة إلى ان هذه النفخة كانت للإنسان بدون تخيير وهو الأمر الذي أسس الدسوقي رأيه على ضده بان الإنسان قد عرضت عليه هذه النفخة فقبلها.. بعد ان لم تقبلها المخلوقات كافة، وقد يقال ان التفاصيل لم تذكر في الآيات، مما لا يلغي أنها كانت نفخة تخييرية باعتبارها الأمانة، أمرت الملائكة بالسجود لها بعد ان تتم، لعلم الله بقبول الإنسان لها، ولكننا لا نستطيع التثبت من ذلك على أي وجه .. والله اعلم، اللهم إلا إذا كثرت الدراسات وامعنت في التدقيق إلى ابعد الحدود .. وسيبقى القران كتاب الله المعجز.

ومع كل هذه المحاولات لتفسير الأمانة من قبل القدماء والمحدثين فأنها بالضرورة أمانة واسعة شاملة لا تخرج عن إطار الائتمان على كل شئ، سواء فُسِّرت الآية على المعنى المجازي أو على الحقيقة, فالإنسان قد خلق لاداء دور ومهمة، تأسست عملية خلقه من مبدأها إلى منتهاها في هذا الإطار ، وتناسبت طبيعته لهذه المهمة المنوطة به، فهو مؤتمن على كل صغيرة وكبيرة في حياته إلى أن يلقى ربه، فيحاسب على ما ائتُمِنَ عليه من أن يتتبع بجد وصبر ومثابرة الطريق الذي رسمه له خالقه ، فالجسد والنفس والروح والعقل وتبعة

(1) المرجع السابق، ص75.

التكاليف والنعم المتحصلة له، كل ذلك واكبر من ذلك واصغر منه أمانة وعهد وذمة في عنق الإنسان بحكم انه اصبح إنسانا، فهو في نهاية المطاف مؤتمن على هذه الإنسانية أن يحافظ عليها في أحسن تقويم .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

رؤية متكاملة للإنسان

الإنســـــان في دائـــــرة الصــــــراع

بعد أن صدرت الإرادة الإلهية السامية بجعل الإنسان خليفة لله في الأرض, لم يعد الإنسان كيانين منفصلين متباعدين, لا يقدر على كبت جماح شهوة تثور في نفسه أو تلبية دافع غريزي ينقدح كالشرر أمام ناظريه, ولا غدا يقدس ذاته بالنظر إلى أن روحاً من روح الله قد حل فيه فتقدس كما قد تقدس خالقه, أو تصور انه صاحب الشأن يتصرف في الملكوت كيفما يشاء ، ذلك "ان الروح وهو داخل الجسد ومع نزوعه الكامل إلى أعلى (أي إلى الإله) لم يعد بإمكانه ان يعبر "الهوة" العميقة التي فصلت بينه وبين مصدره ، تلك "الهوة" التي أسهم في تعميقها وترسيخها المنحى الثنائي في فلسفة الخلق ، ان تأليه الإنسان غير جائز وفقاً لهذا المنظور ، بل يتعارض تعارضاً أساسياً مع أحد أهم أهداف الخلق في الحديث النبوي ، حيث أُريد للإنسان أن يكون عابداً لا متألها، ولهذا وجدنا ان الوجهة التي على الإنسان ان يسلكها في تطوره الروحي بل وفي تكامله وجهة تعبدية تأخذ منحى تنازلياً تقنيتها إحكام الفرائض زائد النوافل والطاعات وهذه وتلك أعمال تعبدية وتنفذ على الأرض ، ومن هذا المنطلق يصح القول بإن الاتصال الحقيقي بين الإنسان والإله يتم عن طريق "الفعل" وبالتحديد عن طريق الفعل التعبدي". [1]

لقد اصبح الإنسان كلاً متكاملاً موحداً من مجموعة من القوى عليه هو أن يوفق بين دوافعها ومتطلباتها حتى لا تتجزأ إنسانيته وتتشتت بطغيان قوة فيه على أخرى، فالنفس والروح والعقل كلها قوى في الإنسان هو مجموعها المريد، أي صاحب الإرادة الفعالة في الحفاظ على توازناتها, وهنا مكمن إنسانيته: "تعتبر النفس وفقاً للحديث النبوي حقيقة الإنسان الجوهرية، ومع ذلك فهي ليست الإنسان لان الإنسان مأمور بمحاسبة النفس ونهيها ، مما يفترض وجود قوة أخرى في الإنسان غير النفس تقوم بمهمة محاسبة النفس وتوجيهها وتلك

(1) صورة الإنسان في الحديث النبوي الشريف، تأليف الدكتور كامل حمود، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ص 29.

القوة المنوط بها ذلك العمل ليست معروفة لنا بالتحديد، فلا ندري هل هي العقل وهذا شأنه، أم الروح وهو من "روح الله" . ولكن الملاحظ انه بالإمكان رصد الحقيقة بهذا الصدد خاصة وان المعطيات الأساسية قد أبرزت لنا.. حقيقتان هامتان: أولاهما ان النفس بفطرتها تحتاج إلى الهداية، ويتم لها ذلك باستلهام الروح، وثانيتهما ان محاسبة النفس لا تتم إلا بعمل عقلي، وذلك لان بناء الأعمال على وزن نتائجها القريبة والبعيدة أو استقامتها وانحرافها، هو بالذات العقل ومعناه، وهذا المعنى أكده الرازي قائلاً: هو "الشيء الذي لولاه كانت حياتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين" ويضيف: وإذا كان الاحتكام إلى العقل هو أحد وجهي العملية – كما يقال- فلابد ان يكون الوجه الآخر هو قمع الهوى وردعه, لان هذا مكمل ضروري لذلك ، فلئن كان الإنسان بعقله مدركاً للأمور إدراكاً صحيحاً ، فهو بقمعه لهواه صاحب "إرادة" والعقل والإرادة جانبان متلازمان أحدهما له

النظر والآخر عليه التنفيذ". (1)

وإذا كانت "الأحكام تجري بإرادة الإنسان واختياره، والإنسان حر في تنفيذ أوامر العقل أو عصيانها، وهذه هي أعظم مائز للبشر بالنسبة إلى جميع الموجودات في عالم الأحياء الأخرى, فهي لا تملك اختياراً في سلوكها " .(2) فالإنسان أذن هو صاحب كلمة الفصل بين هذه القوى ان أراد أن يحافظ على إنسانيته موُحدة متكاملة تتجانس فيها دوافعه وغرائزه فلا تغلب واحدة على الأخرى ليشبع حاجاته ومتطلباته في الإطار الإنساني المميز بنفخة الروح فلا يرتد إلى همجية الخصائص الطينية فيه ومعاندته لقوى الإنسان الأخرى لتلبية رغباتها بطغيان مستبد، كما شبه عز وجل هذه المادة التي خلق منها بعد ان تجف بالفخار في قوله تعالى في سورة الرحمن **"خلق الإنسان من صلصال كالفخار"** ولذلك دلالة على تشبيه طباعه الناتجة من مادة خلقه الأولية كما فسرها المفسرون "إلا انه شبهه ههنا بالفخار وهو الخزف بياناً لغاية يبس طينه وكزازته والتركيب يدل عليه، ومنه الفخور ولولا يبس دماغه لم يفخر, ومنه الفرخ لانه تنشق البيضة عنه وكل يابس عرضة للتشقق ، ومنه الخزف لغاية يبوسة

(1) صورة الإنسان في الحديث النبوي الشريف، المرجع السابق، ص 32-33.
(2) غرائز النفس البشرية وأمراضها ومنهج الإسلام في معالجتها تأليف الدكتور مرسى شعبان السويدي، ص 152.

مزاجه " .[3] "والفخار: الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف".[1] "وظاهر كلام المفسرين ان قوله "كالفخار" صفة لـ "صلصال" ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف، والذي يظهر لي ان يكون كالفخار حالاً من الإنسان أي خلقه من صلصال، فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابته، والمعنى: انه صلصال يابس يتشبه بيبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به".[2] كما نجد اثر هذه المادة الطينية في طباع الإنسان وطريقته في تلبيه غرائزه الحيوانية حين نتوقف على الحمأ المسنون والذي هو الطين الأسود الذي تغيرت رائحته بالنتن " فلعله أظهر في الإنسان ظلمة الطبع، وكدرة النفس وخلوها من الوضوح والصراحة, ولأمر ما كان من مهمة الرسل إخراج الناس من الظلمات إلى النور: ظلمات الطبع وكدرة الحمأ في الجبلة، فالسواد الحسي في الطينة يقابله السواد المعنوي في الطبع، وكان من فضله سبحانه انه لم يكل المرء إلى ظلمته الجبلية فجعل له من الروح التي نفخها فيه نوراً يستضيء به في عالم المعنويات كما تستضيء العين بنور الشمس في عالم المحسات، وكثيراً ما نرى آيات القرآن الكريم حين تتحدث عن الظلمات والنور تتضمن الإشارة إلى الظلمة الحسية والمعنوية وتنبه إلى المقابلة بين النور في الباطن والنور في الظاهر، والله سبحانه يقول " **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) " (سورة الأنعام)** ، فإذا لاحظت في هذا القول الكريم صنفي الظلمات وصنفي النور انكشف لك وجه جديد من وجوه المعاني حين المقابلة بين خلق السماوات وخلق الأرض وبان لك سر من حكمة ختام الآية بقوله عز وشأنه ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" .[1]

والإنسان في دائرة صراعه هذه بين قواه المختلفة واستجابته لنداءاتها المتباينه يبقى مختلفاً وبشكل جذري عن استجابات الحيوانات لذات الدوافع فقد فُضِّل بهذا التمازج بين قواه على كثير من مخلوقات الله وما سريان نفخة الروح فيه وإنشاءه خلقاً آخر الا الدليل على ذلك: "أنه لم يعد طيناً بحتاً.. ولا يمكن ان يعود كذلك ولا هو أيضاً روح بحت.. ولا يمكن ان يكون،

---

(3) غرائب القرآن، مرجع سابق, المجلد السادس، ص 299.
(1) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 444.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء السابع والعشرين، ص 245.
(1) آدم، البهي الخولي، ص 23-24.

فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان.. يتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات أو مزدوج الصفات، وتلك حقيقة كبرى في الكيان البشري، تتبني عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة. وقد انبنى عليها بادئ ذي بدء ان الإنسان في حالته السوية يؤدي نشاطه الجثماني على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان، ويؤدي نشاطه الروحاني على طريقة الإنسان كذلك لا على طريقة الملائكة أي انه يؤدي كلا نشاطيه بكيانه المزدوج الموحد، لا بأي من عنصريه منفصلاً عن الآخر ومستقلاً عنه".(2)

"الإنسان يأكل وتلك عملية مشتركة بينه وبين الحيوان، عملية يقوم بها الجهاز الجثماني وتحكمها تفاعلات الكيمياء وعناصر الطين، ولكن الإنسان لا يأكل على الطريقة الحيوانية, ولا ينحصر الفارق في تعداد أنواع الطعام التي يسيغها الإنسان وتنوعها، بينما الحيوان لا يسيغ إلا نوعاً محدداً من الطعام، تحدده الغريزة لكل نوع معين على حده ، فلا يتجاوزه ولا يتعداه ، وإنما تختلف كذلك "طريقة" الطعام "وأهدافه".

ابرز وجوه الاختلاف ان الإنسان "يختار" سلوكه نحو الطعام صحيح انه مدفوع إليه بدفعة الغريزة، دفعة المواد التي تتفاعل داخل الجسم، وانه مضطر اضطراراً قاهراً أن يستجيب لهذا الدافع، ومع ذلك فهو "يملك" أشياء كثيرة في أثناء الاستجابة لهذا الدافع القهري يملك ان ينظم مواعيد لتناول الطعام يختارها بمحض إرادته (فرداً أو جماعة) ويملك أن يمتنع باختياره عن الطعام فترة من الوقت تطول أو تقصر (كفترات الصيام أو الحمية..الخ) ويملك أساليب شتى في تناول الطعام يختار من بينها ما يروق له: يتناوله باختياره ، التهاماً شرهاً كالحيوان ، أو تناولاً مهذباً لطيفاً ، أو تناولاً متأنقاً مبالغاً فيه ، ويتناوله حراماً أو حلالاً، ويتناوله في عزلةٍ أثره أو في صحبه مؤثرة ، حسبما يتراءى له من "قيم" الحياة، وإذن فهو يستجيب لنفس الدافع القهري الذي يدفع الحيوان لتناول الطعام ولكنه فيما بين الدافع والاستجابة يعبر طريقاً طويلاً مملوءاً "بالاختيارات" نشأ من وجود الروح وامتزاجها بالطين وتلبسها به "فالإرادة" و "الاختيار" صفتان من صفات الروح، تتمثلان في صورتهما المطلقة

(2) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار الشرق 1415ه,1995م, ص 47.

فـي ذات الله سـبحانه ، الـذي نفخ فـي الإنـسان مـن روحـه ، وتتمـثلان فـي صـورتهما المحـددة المقيدة في الإنسـان بمقدار ما تطيق قبضـة الطيـن ان تقبس من روح الله. (1)

والإنسان هو صـاحب القرار في الحفـاظ علـى تـوازن هذه القوى فيه بمـا يحفظ عليـه إنسانيته من خلال ترشيد الاستجابة لدوافعها وضبطهـا بمـا يتلاءم مع الحكمـة من عمليـة خلقـه أصـلاً، فـإذا كـان أكلـه علـى سـبيل المثـال لا الحـصر علـى الطريقـة الإنـسانية مـن مراعـاة الاختيارات المتعددة في ذلك فإنها لا تكون على الطريقة الإنسانية في احسن تقويم ان لم تـرتبط بذكر اسم الخالق عليه، ضبطاً لغرائزه من ان تنفلت فيعتقد أنه صاحب الفضل في هذا الـرزق، هو جالبه دون يد ترعاه وتيسر له.

ان اختـلاف الإنـسان عن بقيـة المخلوقـات بطريقتـه الإنسانية لاداء وظـائفـه المتعـددة لا يكفي فـي التـصور الإسـلامي للخـروج بـه مـن دائـرة الهمجيـة البشرية أو درجـات مـن درجـات "أسفل سافلين" ان لم يكن هذا الأداء محكوماً بأهداف الخلـق ابتداءً لان احسن تقويم الـذي قـام عليه خلق الإنسان تأسس على الاعتراف بالخضوع للخالق ولأحكامه في كل سكنة وحركـة فـي معاش الإنسان، هذه الغرائز والـدوافع والتـي ان " نظرنـا إلـى أنهـا مجرد قـوى وطاقـات يمكـن استخدامها في الخير وفي الشر معاً، فإنها كالآلة، لكن إذا علمنا ان صـانع الآلـة صـنعها لتحقيـق الخير فإننا نقول أنها آلة خير، وتأتي بـالخير إذا استخدمت فـي الغايـة التـي صـنعت مـن أجلهـا، وكذلك هذه الطبيعة بما فيها من ميول ودوافع مختلفة خلقت مـن أجل الخير وتـصبح خيرة إذا استخدمت في الخير، والشر يأتي من سوء استخدامها في الغايات التي لم تخلق لأجلها، أو يأتي الـشر منهـا نتيجـة الجهل بهـا وبعدم معرفـة طريقـة استخدامها للاهتمـام الزائـد ببعض الميـول والدوافع اكثر من غيرها أو إهمال بعضها تماماً وتجاهلهـا ولهـذا يجب إعطـاء كل دافع حقه بقدر ما قُدِّر له من الحقوق دون الزيادة أو النقصـــان ، ولهذا أيضاً يدعو أفلاطون إلى ان يكون الإنـسان عـادلاً فـي معاملـة غرائـزه ودوافعـه كعدالـة الحـاكم فـي أفـراد مجتمعـه ، فيقـول: "ان العدالـة لا تتنـاول مظـاهر أداء الإنـسان لعملـه الخـاص فحـسب ، و إنمـا تتنـاول البـواطن التـي تخص الرجل نفسه ومصالحه الخارجيـة بحيث لا يـسمح الرجـل العـادل لعناصـره المتعددة ان

(1) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، ص 47-49.

تعمل عملاً غير عملها ولا للطبقات المميزة في نفسه ان يتدخل بعضها في بعض ، ولكنه ينظم بيته حقاً وبالتحكم في نفسه ينظم خلقه" .[1]

وحتى يدرك الإنسان طبيعته النابعة من تلك الماهية التي خُلق عليها ، ما فتأ القرآن يكرر له في قصة الهبوط من الجنة دوافعه التي تنازعت وتدافعت للاستجابة للوسواس الخارجي من خلال مُعينها من الوسواس الداخلي ففي قوله تعالى : **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) " (سورة قّ)** ، دليل على تلك القوى المتصارعة في الإنسان تجذبه تارة إلى الخير وتارة إلى الشر ، والوَسْوَسَةُ كما في الراغب: "الخَطْرَةُ الرَّدِيئَةُ ، وأصلُه من الوَسْوَاسِ ، وهو صوْتُ الحَلْيِ والهمْسُ الخَفِيُّ. قال تعالى: **" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ (120) " (سورة طه)** ، وقال **: " مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) " (سورة الناس)** ، ويقال يَهْمس الصَّائِدِ وَسْواسٌ" .[2] فإذا كان المعتبر ان الشيطان وهو تأثير قوة خارجية على الإنسان هي التي تصدر عنها أفعال الوسوسة وهي أصوات تدعو إلى الشرور والآثام بأنواعها فإن الآية قد أثبتت مثل هذه الوسوسة لقوة داخلية في الإنسان تتمثل في النفس والتي قد وصفت في بعض أحوالها بالامارة بالسوء، "وهذه النفس الامارة تأخذ موقعها في علم النفس عند أحد جوانب اللاشعور والمعروف باسم (الهو) وهو المنطقة المنزوعة السلاح والتي تحوي الأفكار التسلطية، والغرائز العدوانية كما أنها منعمة بالمتفجرات التي تحاول الظهور دائماً متى سنحت لها الفرصة" .[1]

والإنسان بلا شك واقع تحت تأثيرات داخلية خارجية شريرة خيِّرة ، والخيِّرة منها تلك النفس اللوامة التي ما كان قسم الله بها في كتابه العزيز إلا دليلاً قاطعاً على أهميتها فهي تقف بالمرصاد لمواجهة كل الشرور بالتأنيب واللوم وإيقاع الإحساس بالذنب في أعماق الإنسان ليتصدى هذا الإحساس فيه لوقف التطاول بالآثام، وهي ما يسمونها في علم النفس الحديث الانا الأعلى أو الضمير، وتُعين هذه النفس في الدعوة نحو الخير القوى الخارجية المتمثلة بالملائكة التي ما تفتأ تستغفر للإنسان وتؤدي دورها بإيقاع الهامات الوحي الإلهي في داخله لإتباع سبيل الرشاد.

---

(1) علم النفس التربوي، د. يوسف القاضي د. مقداد بالجين، مرجع سابق، ص 64.
(2) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 869.
(1) غرائز النفس البشرية وأمراضها ومنهج الإسلام في معالجتها، د. مرسى شعبان السويدي، مرجع سابق، ص 61.

وإذا كان القَسَمُ بالنفس اللوامة في سورة القيامة جاء مرتبطاً بالقسم بيوم القيامة في قوله تعالى : **" لا أقسِمُ بيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلا أقسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) " (سورة القيامة)**، تنبيهاً على إدراك النفس اللوامة لذلك اليوم وشدته على الإنسان ، فتبقى في عمل دؤوب مع الإنسان تأتيه من كل وجهة وناحية موبخة لائمة له حتى ينتبه فان ما جاء في آية سورة (ق) عن وسوسة النفس الامارة بالسوء فيه التحذير الشديد للإنسان لان ينتبه إلى وساوس نفسه فلا يتركها تتحكم فيه حتى تنتقل من حالة الهمس إلى حالة الفعل بالجوارح ، وقد تعدت الآية الحديث عن علم الله إلى قربه من الإنسان وإن كان علمه مطلقاً بما توسوس به النفس ولكنها أشارت وذكرت القرب وما لذلك من دلالات عميقة في تفسير هذه الآية حتى ينتبه الإنسان إلى وساوسه ، " والقرب مجاز عن العلم التام كقولهم "هو مني معقد القابلة والأزرار" وما في الآية أدل على الإفراط في القرب، لان الوريد جزء من بدن الإنسان يريد ان علمه ينفذ في بواطن الأشيــاء نفوذ الدم في العروق". [(1)] وجاء "الإخبار عن فعل الخلق بصيغة المعني الظاهر، وأما الأخبار عن علم الله ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على ان تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدد غير منقص ولا محدد لإثبات عموم علم الله تعالى والكفاية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله" .[(2)] كما ان تشبيه الله تعالى شدة قربه بأنها تتجاوز حبل الوريد لدعوة للمتأمل للنظر في أهمية هذا الحبل الوريدي للإنسان خاصة إذا علمنا ان مجرى هذا الحبل الوريدي في العنق هو مقتل بالنسبة للإنسان وفي تفسير الآلوسي "الوريد عرق متصل بالكبد والقلب وفيه مجاري الروح وقال في الآية أي نحن اقرب إليه من روحه".[(3)] ولا شك ان النظر لمعرفة هذا الحبل الوريدي سيكشف لنا ولو مستقبلاً شيئاً جديداً عن طبيعة العلاقة بين قوى الإنسان ولربما طبيعة تحركاتها في الجسد خاصة إذا دققنا النظر في الآية:" **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) " (سورة ق)** ، ولاحظنا هذا الترابط بين ذِكر خلق الإنسان ووسوسة النفس وتشبيه قرب الله بقرب حبل الوريد، وفي الآية الشيء الكثير مما لم يقله المفسرون، ولقد قيل في حبل الوريد "الحبل: هنا واحد حبال الجسم، وهي العروق الغليظة المعروفة في الطب بالشرايين.. وتعرف

(1) غرائب القرآن، ، النيسابوري مرجع سابق ، المجلد السادس، ص 175.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء السادس والعشرون، ص 299.
(3) تفسير الآلوسي، مرجع سابق، المجلد الثالث عشر، ص 329.

بالعروق الضوارب ومنبتها من التجويف الأيسر من تجويفي القلب ، وللشرايين أعمال كثيرة في حياة الجسم لأنها التي توصل الدم من القلب إلى أهم الأعضاء الرئيسة.. وللشرايين أسماء باعتبار مصابها من الأعضاء الرئيسية، والوريد : واحد من الشرايين وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب ، واسمه في علم الطب "أورطي" ويتشعب إلى ثلاث شعب ثالثتهما تنقسم إلى قسمين ، قسم اكبر وقسم اصغر.. وكل هذه الأقسام يسمى الوريد، وفي الجسد وريدان وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يَرِدَان من الرأس إليه ، وقد تختلف أسماء أجزائه باختلاف مواقعها من الجسد فهو في العنق يسمى الوريد ، وفي القلب الوتين ، وفي الظهر يسمى الابهر ، وفي الذراع والفخذ يسمونها الأكحل والنّسا، وفي الخنصر يدعى الأسلم" .[1] "وإضافة "حبل" إلى "الوريد" بيانية ، أي الحبل الذي هو الوريد ، فإن إضافة الأعم إلى الأخص إذا وقعت في الكلام كانت إضافة بيانية كقولهم: شجر الأراك" .[2] "ومن لطائف هذا التمثيل ان حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد".[1] وإذا كان المفسرون قد ذهبوا إلى ان القرب "هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لان القرب يستلزم الاضطلاع ، وليس قرباً بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ، تشبيه معقول لمحسوس، وهذا بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز".[2] إذا كان المفسرون قد ذهبوا هذا المذهب في تفسير القرب وهو بلا شك صحيح، الا ان هذا لا يمنع من القول بان مثل هذا التشبيه يلفت النظر بما يوحيه بان حبل الوريد كأنه شيء آخر منفصل عن الإنسان فهو قريب منه، فهذا الجوهر الذي يتحرك في مجاري حبل الوريد يعلم بقربه من الإنسان ما يدور من الوسواس والخطرات والأفكار لكن علم الله أكبر منه وأشد مع وجود هذا الجوهر بشكل دائم في تلك المجاري والعروق.

وبين هذه القوى الإنسانية من مراقب إلى مؤنب إلى موسوس تندفع غرائز الإنسان وحوافزه بحثاً عن تلبية الحاجة وإشباع الرغبة والتي حاول علماء النفس تعدادها فاختلفوا

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء السادس والعشرون، ص 300.
(2) المرجع السابق، ص 300 الجزء السادس والعشرون.
(1) المرجع السابق، الجزء السادس والعشرون ص 301.
(2) المرجع السابق، الجزء السادس والعشرون، ص 301.

وتباينوا في ذلك، فقسمها بعضهم إلى غريزتين وآخرون إلى أربع وغيرهم قسمها إلى أربعة عشرة غريزة ، في حين أجملها القرآن في أربعة، شملت كل غرائز الإنسان الفرعية الأخرى.

فكانت غريزة الزوجية في الإنسان ، والتي ما زال الإنسان في سعيه يبحث من خلالها عن زوجه ومكمل روحه ، لا لإشباع شهوة جنسية على ضرورتها أو لارواء نزوة عابرة لا تبث فيه طمأنينة أو سكينة ، كانت تلك الغريزة أول نداء خاطب به رب العباد آدم عليه السلام لدخول جنته اثباتاً لضرورتها للإنسان بما في ثناياها من إشباعات نفسية جسدية روحية لا مفر ولا مهرب للإنسان منها ان كان يريد ان يحقق إنسانيته بصورتها السوية.

وكانت غريزتيَّ حب الملك وحب الخلود من دوافعه الأساسية فيه والتي دُقَّ من خلالها ناقوس الخطر المؤذن ببداية العصيان واسُتغلت في جانبها السلبي من قبل الشيطان في قصة الهبوط بمساهمة النفس التي أيدت ذلك الوسواس, ولكل غريزة جانبان أو طريقان قد يهتدي الإنسان إلى ضبطها أو يتركها لتنفلت وتتحكم, فالملك على سبيل المثال غاية كل إنسان قد يقنع منه فرد بملك قليل على وجه هذه البسيطة ذلك إذا ما اشرأبت روحه لملك لا يفني في دار الخلود ، وقد يهتاج آخر سعياً حميماً مغموساً بالآثام لتلبية رغبته في الملك في دار الفانية، كل بحسب أهدافه وتطلعاته فتستقيم إنسانية أحدهم وترتد إنسانية الآخر، انطلاقاً من نفس الغريزة ونفس الدافع مع التغاير في الهدف والطريق.

وتأتي الغريزة الرابعة إعلانا عن ذلك الهدف الذي على الإنسان ان يسعى إلى تحقيقه من العودة الدؤوب لما هو مركوز في الأعماق من الاعتراف للخالق بالتوجه إليه والتوبة بين يديه كلما حاد عن الطريق أو وثبت رغبة في داخله للإعلان عن نفسها مدفوعة بوساوس بعض القوى الداخلية والخارجية على السواء, برزت على النقيض من تلك القوى قوة الإيمان تلك أو غريزة التدين ، في عراك شديد مع غرائزه الأخرى حتى تتراءى للإنسان مجموع النداءات فيه ، فيحدد ويختار أي نداء يريد ان يُلبي ، تماماً كما في عودة آدم عليه السلام إلى بارئه تائباً مستغفراً بعد ان تراءت له حقيقة ما في داخله وحقيقة من حوله .

من هنا كان تعريف القرآن للإنسان على نفسه من لحظة وجوده إلى منتهاه خير معين له لإدراك الوسيلة التي تعينه على تحقيق أهدافه العليا، وما الحديث عن ماهية خلقه وطبائعه

المركوزة فيه بحكم هذه الجبلةِ ورغباته المشبوبة من دوافعه المختلفة، وعيوبه ونواقصه، وظنونه وأوهامه.. وأصول علاقته بخالقه المبثوثة في فطرته.. وطبيعة العدواة بينه وبين الشيطان.. ومسؤوليته بعد هذا كله تجاه نفسه وتجاه أمانته.. ما الحديث عن هذا واكثر من هذا في كتاب الله أو في كتاب الله للإنسان إلا لرسم معالم الصورة واضحة بيِّنه أمام ناظريه, فلا يعتذر يوم الميعاد بأنه لم يعرف مبدأه الطيني ولم يستشف كيانه الروحي ، فاستجاب لظنونه بأنه قادم من المجهول عائد إليه .

عدو الإنسان المبين:

ولم يقتصر القرآن في تعريف الإنسان على دوافعه في قصة الخليقة الأولى بل لقد عرفه على شراهة الاستجابة لها عندما تخرج عن المرسوم الإلهي الذي أودعها في باطن الإنسان والعالِم بحالها ، لتستجيب لقوى النفس الامارة بالسوء والمدفوعة بوسوسة الشيطان عدو الإنسان المبين.

فالإنسان في دائرة صراعه مع قواه المختلفة حتى تتآلف وتتناغم ضمن المنظومة الإلهية (احسن تقويم) لا يزال محفوفاً بالمخاطر الخارجية من عدو اقسم وتوعد وتهدد ، لم يفتأ القرآن يُذكّر به وينبهِّه إلى مكائده ، ويمنِّيه بالجنة الموعودة ان تثبَّت وتمسَّك بتحقيق إرادة الخالق في الكون بتحقيق الاستخلاف له.

ولا نستطيع ان نُحدد السبب الحقيقي وراء هذه العداوة التي قد تأججت في نفس الشيطان لحظة أن أمرت الملائكة - وكان من بينهم- بالسجود لآدم هل هي نفخة الروح التي نفخت فيه أم أنها طبيعة المكانة التي ساد بها آدم الأرض واستُخلف عليها.

لقد تعارفنا على ان نفخة الروح هي السبب في ذلك الاستخلاف وكنت قد ذكرت في موضوع تلك النفخة في الفصل السابق ان الشيطان لم يجرؤ على ذكرها وتهرب من ذلك وحاول تبرير عدم سجوده بأنه افضل من حيث الأصل في طبيعة الخلقة تحقيراً للإنسان فهو من مارج من نار والإنسان من صلصال من حمإ مسنون.. تُبين ذلك سورة الرحمن في المقابلة بين خلق الإنسان وخلقه ، قال تعالى: " **خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)** " **(سورة الرحمن)** ، " والجان أبو الجن ، وقيل هو إبليس.. والمارج

اللهب الصافي الذي لا دخان فيه من مرج إذا اضطرب ولعلها المخلوطة بسواد النار من مرج الشيء اختلط ، وقوله "من نار" بيان لمارج كأنه قيل: من صاف من نار ويجوز ان يكون ناراً مخصوصة فيكون صفة" [1]. ولكني هنا أعود فأتساءل بعد البحث والتأمل ،هل يمكننا القول ان نفخة الروح هي أمر مشترك بين بني الإنسان وبين الجن والشياطين وكذلك الملائكة؟! ولذلك استبعد الشيطان في تبريره لعدم السجود هذا الأمر المشترك وذهب في احتجاجه إلى أصول الخلق!!

قد يقابل مثل هذا التساؤل بالرفض الشديد، غير أنني قد وجدت انه لا يوجد ما ينفي هذا لانه لا يوجد أيضاً ما يُثبت ان نفخة الروح شيء خاص بالإنسان وان تعارفنا على ذلك واقره المفسرون والعلماء دون مناقشتم إننا دائماً نقول ان نفخة الروح هي السبب الرئيسي الذي صار بها الإنسان إنساناً مميزاً ولذلك اصبح مُكلّفاً ومحاسباً، ولكننا رأينا في الفصل السابق أيضاً ان النفس هي التي تحاسب ، وهي التي قد أُلهمت فجورها وتقواها وما إلى ذلك من أنها مصدر الحياة وسبب الموت ، ونعود فنقول جُزافاً ان الروح هي مؤهل الخلود وهي أساس تطلعات الإنسان النورانية ، ولكننا بلا شك لا نستطيع ان نجزم بشيء من هذا، فالروح سيبقى أمر من أمر الله.. والسؤال الذي يطرح نفسه أليس معشر الجن والشياطين مكلفون ومحاسبون؟! أليس منهم المؤمن والكافر؟! ألم يقل الله عز وجل في كتابه "وما خلقت الإنس والجن الا ليعبدون" فهل هذا يعني ان فيهم من روح الله ؟ لا لأنهم محاسبون فحسب بل لان فيهم تلك التطلعات النورانية نحو الأفق الأعلى يسعون لتحقيقها في ذواتهم من خلال ما يكمن في أعماقهم من نفخة الروح !! وهل نفخة الروح هذه موجودة في كل شيء أم أنها اختصاص خُص به الإنسان ؟ أو ما الذي يمنع ان يكون الكون كله قد قام واستقام على تلك النفخة ؟!

ومجموع هذه الأسئلة يصعب على هذا البحث الإجابة عليها، ولكنها قد تُلقي الضوء على مناطق كانت مظلمة فتساهم في إنارتها وتؤسس لبنية جديدة في التفكير قد تصل بنا إلى نتائج حديثة لم تكن لتعرف ، فتعيد تفسير الآيات بشمولية وسعة لم تكن لتتحقق من قبل فكثيرة هي الآيات التي يكمن فيها الكثير من التحليلات التي تساهم في إدراك حقيقة الإنسان وطبيعة

---

(1) غرائب القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 229.

عداوة الشيطان له و أسباب تلك العدواة لنعرف كيف نواجهها ونتحداها، فإذا لم تكن نفخة الروح هي سبب تلك العدواة بما ميزت به الإنسان فلم يبق إلا ان تكون مكانة الإنسان الوجودية ومفاتيح السيادة التي قد سُلّمت له ، وفي ذلك يقول الدكتور الدسوقي في كتابه "الإنسان والشيطان" عن الجن والشياطين: "وهو نوع من الخلق مبتلى ومكلف بالعبادة كالإنسان ، ولكنه ليس مخلوقاً لخلافة الأرض ، ومن ثم يتميز الأنس عن الجن بالخلافة في حالة قيام كل منهما بطاعة الله وعبادته".[1] ويتابع الدسوقي قائلاً: "و إقرار الملائكة بعدم معرفة الأسماء، يتضمن إقرار الجن ممثلاً في إبليس بعدم معرفتها أيضاً، حيث كان معهم إبليس – وهو من الجن- كما اخبرنا الله عز وجل ومعنى هذا ان الإنسان يتميز عن الملائكة والجن معاً بعلم الأسماء، وهذا العلم هو سر تفضيل الإنسان وتميزه عليهما، وهو مؤهل الخلافة وجوهرها".[1] وكذلك نجد في تفسير التحرير والتنوير لآيات سورة الرحمن عن خلق الإنسان ومقابلته بخلق الجان "وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازل قبل هذه السورة من تفضُل الإنسان على الجان ، إذ أمر الجان بالسجود للإنسان وما ينطوي في ذلك من وفرة مصالح الإنسان على مصالح الجان، ومن تأهله لعمران العالم لكونه مخلوقاً من طينته ، إذ الفضيلة تحصل من مجموع أوصاف لا من خصوصيات مفردة".[2] فتميُّز الإنسان حاصل لمجموع تركيبته، والاهم من ذلك لإرادة الله في تسليمه دور السيادة في الأرض.

غير ان هذه التحليلات والتساؤلات لا تنفي تلك العداوة المستحكمة التي قابل بها إبليس وجود الإنسان ممثلاً بسيدنا آدم عليه السلام حسداً وغيظاً، سواء تعلق ذلك بتميزه بنفخة الروح أو بمكانته الوجودية أو حتى بإرادة الله المطلقة بتفضيل الإنسان عليه وعلى كثير من الخلق.

وكلمة شيطان في الراغب مأخوذة من الجذر شطن و"النون فيه أصلية، وهو من شطن أي تباعد، ومنه: بئر شطون، وشطنت الدار، وغربة شطون، وقيل: بل النون فيه من النار كما دل عليه قوله تعالى: **" وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) " (سورة الرحمن)** ، ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة ، وامتنع من السجود لآدم ، قال أبو عبيدة: الشيطان اسم لكل عارم من الجن والانس والحيوانات قال تعالى: **" شَيَاطِينَ الْإِنْسِ**

---

(1) الإنسان والشيطان الدكتور فاروق الدسوقي، الطبعة الثانية 1406هـ- 1986م ، ص 28.
(1) المرجع السابق، ص 29.
(2) التحرير والتنوير، الجزء السابق والعشرون، ص 245.

وَالْجِنِّ (112) " (سورة الأنعام) ، وقال : " **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ (121) " (سورة الأنعام)** ، وقال : " **وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14) " (سورة البقرة)** ، أي أصحابهم من الجن والإنس.. وسمي كل خُلُقٌ ذميم للإنسان

شيطاناً ، فقال عليه السلام: "الحسد شيطان ، والغضب شيطان". (1)

ولقد أعلن القرآن مراراً وتكراراً عن تأصُّل تلك العداوة في الشيطان وأساليبها ليحذر الإنسان منها ويتقيها، وما يهم هذا البحث ما اختص به من استقراء لكلمة إنسان من دونها وقد وردت بذلك أربع آيات تجمع بين طبيعة تلك العداوة وكلمة الإنسان أتناولها بالشرح على ما فيها من ترتيب يثير الإعجاب والخضوع لحكمة الله تعالى ، بحسب ما وردت مرتبة في سور المصحف الشريف: ففي السورة الأولى سورة يوسف يقول تعالى: " **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) " (سورة يوسف)** ، وفي سورة الإسراء قال تعالى : " **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (53) " (سورة الإسراء)** ، وفي السورة الثالثة: " **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29) " (سورة الفرقان) .**

والآية الأخيرة في قوله تعالى في سورة الحشر: " **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) " (سورة الحشر) .**

فنلحظ الآيات الأربع كيف تدرجت في شرح أساليب إثارة الشيطان لنوازع الإنسان حتى يصل به إلى مرحلة التصعيد الأخير، وهي الدعوة الصريحة للكفر الذي هو مبتغاه الحقيقي والنهائي، وتأتي الآيات الثلاث الأولى لتذكر حالات أو معاني معينة ، أو علاقات خاصة بين فئات من الناس يدخل الشيطان فيها كوسيط لإثارة الحنق والنزغ ، كما تبين ذيل كل آية ان ما يحدث هو بسبب من تلك الوسوسة وذلك التدخل الشيطاني.

ففي آية يوسف كان توغير الصدور بين الأخوة وإثارة حالة الحسد وما يترتب عليه من نتائج أوضحتها بقية السورة هي وسيلة الشيطان الأولى ، فالناظر في هذه الغيرة والتي تؤدي إلى هذا الحسد الشديد يلحظ ان مثل هذا الخُلُق نابع من غريزة حب التملك ، حتى لإن الأخوة

---

(1) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 454-455.

وفي بيت النبوة لم يستطيعوا ان يقاوموه فعمدوا إلى ما عمدوا إليه لانهم يريدون أن يمتلكوا حب أبيهم ، وفي هذا تنبيه على ضبط مثل هذه المظاهر النابعة من غريزة التملك، بالتأكيد والتنبيه على ان الشيطان لها بالمرصاد بمحاولاته لاستفزازها حتى تصبح ثورة عارمة تعد صاحبها للقتل كما حدث في قصة ابني آدم كذلك ، وذلك التنبيه يأتي من خلال ذكر ان الشيطان هو العدو المبين في قوله تعالى في ذيل الآية "ان الشيطان للإنسان عدو مبين" أي " ظاهر العدواة بيِّنُها لا تفوته فرصة لها فيضيعها ، هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو انه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرض له داعية من هوى النفس وشرها والحسد غريزي في الإنسان، كما عبر عنه يوسف عليه السلام بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله (من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) ".[1] وهذا العداء المبين من الشيطان للإنسان وعدم تفويته الفرص ، هو الذي دعى سيدنا يعقوب إلى تحذير ابنه يوسف من قص رؤياه على اخوته ، وان كانت رؤيا يوسف تلك وما توحي من تملكه مكاناً مرموقاً لا زالت في حيز الرؤى ولعل هذا أدل على شدة فتك الحسد بالإنسان خاصة وأن وافقه وساوس العدو المبين ، " فلا يشكُل كيف حذر يعقوب يوسف عليهما السلام من كيد أخوته ، وذلك عقب كلامه بقوله **(ان الشيطان للإنسان عدو مبين)** ليعلم انه ما حذره إلا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته، وهذا كاعتذار النبي – صلى الله عليه وسلم - للرجلين من الأنصار الذين لقياه ليلاً وهو يشيِّع زوجته أم المؤمنين إلى بيتها فلما رأياه ولَّيا ، فقال: "على رسلكما ، أنها صفية ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، واكبرا ذلك ، فقال لهما: ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم واني خشيت ان يقذف في نفوسكما " فهذه آية عبرة بتوسم يعقوب عليه السلام أحوال أبناؤه وارتيائه ان يكف كيد بعضهم لبعض ، فجملة "ان الشيطان للإنسان" الخ واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته ، وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى اضرار بعضهم بعض".[2] وفي الآلوسي: "فلا يألو جهداً في تسويل اخوتك وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على ما لا خير فيه وان كانوا ناشئين في بيت النبوة".[3] ولاجل هذا عبر سيدنا يعقوب عن هذا التسويل بقوله "فيكيدوا لك كيداً" أي "فيفعلوا

---

(1) المنار، محمد رشيد رضا ، المجلد الثاني عشر ، دار المعرفة بيروت/ لبنان، ، ص 254.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء العاشر ص 214.
(3) روح المعاني للألوسي، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 375.

(لك) أي لأجلك ولاهلاكك (كيدا) متيناً راسخاً لا تقدر على التفصي عنه أو خفياً عن فهمك لا تتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير".[1] " والْكَيْدُ:

الْخُبْثُ والْمَكْرُ... وكل شيء تعالجهُ فأنت تكيده ، والْكَيْدُ التدبير بباطل أو حق" .[2]

"وكاد له إذا دبر الكيد لاجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لإبقاء أخيه عنده (كذلك كدنا ليوسف) ".[3]

وإذا كانت هذه الآية قد قصت عداوة الشيطان للإنسان بهذه القوة من خلال تعبيراتها بقوله "فيكيدوا لك كيدا" وبحكم أنها واقعة بين الإخوة وفي بيت النبوة، فإن آية سورة الإسراء قفزت خطوات واسعة إلى بيان نزغ الشيطان في المجتمع عموماً بين فئاته المختلفة متمثلة في فئة المؤمنين والمشركين عند مجادلاتهم في قضايا الاعتقاد وغيرها، ليستبين للمرء ذلك الشوط الطويل من هذا النزغ الشيطاني المريد الذي لا يكل ولا يمل في الاحتيال على الإنسان بعمومه لإثارة وجه الخلاف دائماً في مختلف العلاقات حتى تمتنع صور الهداية عن البروز والتجلي بوضوح وصفاء ، فبينت الآيات محاور هذا التدخل الشيطاني المفسد لكافة العلاقات ابتداءً من العلاقات الأخوية مروراً بالعلاقات الاجتماعية العامة ومنتهياً بعلاقات المؤمنين مع غيرهم ممن يحيطون بهم أو ما يمكن ان نسميه اليوم علاقات القوى السياسية المختلفة في المجتمع الواحد لتقريب وجهات النظر وتوحيد الصفوف.

ومن هنا نتبين الأهمية البالغة في التصدي لذلك العدو، عدو الإنسان حتى ولو كان نزغه مع أولئك المشركين ، لما يترتب عليه من فائدة هدايتهم بالقول الحسن أو حتى

مصالحتهم على خير المجتمع فيقول تعالى في ذلك: **" وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (53) " (سورة الإسراء) .**

---

(1) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، الجزء الثالث والرابع ص 253.
(2) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص456 - 457.
(3) المنار، مرجع سابق، المجلد الثاني عشر، ص 254.

"والنزغ: دخول في أمر لافساده ".[1] "اصله الطعن السريع ، واستعمل هنا في الإفساد السريع الأثر ".[2]

وقد فسر الرازي قوله تعالى: "عبادي" على قولين ان الخطاب موجه للعباد المؤمنين الذي يحاورون المشركين وذلك بحسب سياق الآيات السابقة لهذه الآية في السورة ، والثاني على ان العباد هم الكافرون أضافهم إليه " ليصير ذلك سبباً لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قبول الدين الحق".[3]، واذكر هنا تفسير الآية على الوجهين للإيضاح ، ففي قوله العباد هم المؤمنون قال: "وقل يا محمد لعبادي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن وهو ان لا يكون ذكر الحجة مخلوطاً بالشتم والسب ونظير هذه الآية قوله (**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**) ، (**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**) وذلك لان ذكر الحجة لو اختلط به شيء من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال (**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم**) ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود ، و أما إذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالي من الشتم والإيذاء اثر في القلب تأثيراً شديداً فهذا هو المراد من قوله (**وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن**) ثم انه تعالى نبه على وجه المنفعة في هذا الطريق فقال: (**ان الشيطان ينزغ بينهم**) جامعاً للفريقين أي متى صارت الحجة ممزوجة بالبذاءة صارت سبباً لثوران الفتنة".[1]

وعلى الوجه الثاني باعتبار ان العباد هم المشركين "يا محمد قل لعبادي الذين أقروا بكونهم عباداً لي ، يقولوا التي هي أحسن، وذلك لانه قبل النظر في الدلائل والبينات نعلم بالضرورة ان وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والأضداد احسن من إثبات الشركاء والأضداد ، ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت احسن من وصفه بالعجز عن ذلك ، وعرفهم انه لا ينبغي لهم ان يصيروا على تلك المذاهب الباطلة تعصباً للاسلاف ،

---

(1) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 768.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثامن عشر، ص 132.
(3) التفسير الكبير للفخر الرازي، مرجع سابق، الجزء التاسع، ص 229.
(1) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر ص 228-229.

لان الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان، والشيطان عدو فلا ينبغي أن يلتفت إلى قوله".[2]

ومن الملفت للانتباه ان هذه الآية قد جاءت معاكسة لما في آية يوسف من طريقة الشيطان في إثارة الضغائن والأحقاد بين الناس ففي آية سورة يوسف جاءت الإشارة إلى شعور داخلي في باطن الإنسان يستغله الشيطان فيؤججه ، ولذلك كانت نصيحة يعقوب لابنه بان يكتم الخبر فلا يثير به الضغائن الداخلية ، وفي أمثال هذا جاءت الأحاديث النبوية من مثل "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" أما هذه الآية فتوحي ان الشيطان يحاول إثارة العداوة بين الناس من خلال التخاطب المباشر عن طريق اللسان، لتشتد الفرقة وتستغلظ القلوب وتأخذ العزة بالإثم طريقها على الإنسان فتحجب عنه الرؤيا ، ولذلك جاءت الآية هادية مرشدة إلى "تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر عنه"[1] ، ولا شك ان مثل هذا التأديب وان جاء بحق المؤمنين مع أعداءهم فهو فيما بينهم أولى ، "والمقصود الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضاً بحسن المعاملة والآنة القول ، لان القول ينم عن المقاصد بقرينة **"ان الشيطان ينزغ بينهم"**، ثم تأديبهم في مجادلة المشركين وعدم تصلبهم فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم، قال تعالى "ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" [2] ، وذلك لان الأجواء قد تستقر في المجتمعات من خلال الحوارات الهادفة البناءة، فتتشكل مساحات واسعة من خلال الإصغاء والانتباه لنداءات الخير التي يسعى الشيطان إلى تشويشها ولذلك " جاءت جملة **(ان الشيطان ينزغ بينهم)** تعليل للأمر بقوله **(التي هي احسن)** والمقصود من هذا التعليل ان لا يستخفوا بفاسد الأقوال فأنها تثير مفاسد من عمل الشيطان"[3] ، وكأنه قد قيل لماذا يتم النقاش بالتي هي احسن فكانت الإجابة لان الشيطان لا زال موجوداً بشروره، وذكرت "كان" في تتمة الآية **" ان الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً "** " للدلالة على ان صفة العداوة أمر مستقر في خلقته قد جُبل عليها

---

(2) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر ص 229.
(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثامن عشر ص 131.
(2) التحرير، مرجع سابق، الجزء الثامن عشر، ص 132.
(3) التحرير، مرجع سابق، الجزء الثامن عشر، ص 132.

، وعداوته للإنسان متقررة من وقت نشأة آدم عليه السلام "[1]، فهي قديمة قد استُحِكمت فيه ، ينتهز كل فرصة للإيقاع بالإنسان في شراكه .

وقد جاءت الآية الثالثة لإيضاح الوتر الأخير الذي يضرب عليه الشيطان لإيصال الإنسان بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة من الكفر البواح ، وأعرض الآية هنا في سياقها من سورة الفرقان حيث يقول تعالى **" وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30) " (سورة الفرقان)** .

فقد شبهت الآية هذا الخليل بأنه الشيطان بأم عينه فقد كان كما الشيطان تماماً يُضِلُّ عن السبيل ويأتي من كل زاوية وصوب بوساوسه ووعوده الكاذبة مدعياً نصرة صديقه ، وما هو بالناصر ولا المعين ، وجاءت " فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.. لقد كان شيطاناً يضل أو كان عوناً للشيطان" .[2] فبينت الآية انه ليس هنالك فارق يذكر بين صديق السوء أو حتى ما يمكن وصفه بالخليل وبين الشيطان حيث يشتركان في الإضلال ثم الخذلان عند النتائج ، وقد جاء في الكشاف ان "الشيطان إشارة إلى خليله ، سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة ، أو أراد إبليس وانه هو الذي حمله على مخاللة المُضل ومخالفة الرسول ،ثم خذله أو أراد الجنس، وكل من تشيطن من الجن و الإنس" ،[1] و "الخاذل: ضد الناصر، خَذَله خَذْلاً وخِذْلاناً، تَرَكَ نُصْرته وعَوْنه ، وفي الحديث: المؤمن أخو المؤمن لا يَخْذُله.. والخَذُول التي تتخلف عن القطيع وقد خَذَلتْ وخَذرتْ ".[2] والخذل كما في تفسير التحرير " ترك نصرة المستنجد مع القدرة على نصره، فإذا أعان على الهزيمة فهو أشد الخذل ، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان، يخذل الإنسان لان الشيطان يكيد للإنسان فيورطه في الضر فهو خذول".[3] وهو عموماً ما جاء في الآية الأخيرة عندما دعى الإنسان للكفر ثم تبرأ منه عندما

(1) التحرير، مرجع سابق، الجزء الثامن عشر، ص 133.
(2) في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص 2560.
(1) الكشاف، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 282.
(2) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 232.
(3) التحرير، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر، ص 16.

كفر في قوله تعالى: **" كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) " (سورة الحشر)** ، فلعل هذه الآية تبين شدة عداوة الشيطان للإنسان وخذلانه له خاصة عندما نرى التشبيه أو العودة بسبب الضلال من قبل الخليل لخليله، عندما نرى العودة بالسبب على الشيطان وكأنه الأصل في خذلانه ، و النزغ في تلك العلاقة الحميمة بإفساد طرف وجذب الطرف الثاني إلى ذات الطريق المهلك بعدما ارتسمت معالم الهداية لهذا الأخير، وجاءه الذكر وكاد ان يتمكن منه لذلك " تمنى ان لا يكون اتخذه خليلاً دون تمني ان يكون عصاه فيما سوّل له قصداً للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الاضلال من أحوالها".[4] " والذكر هو القرآن: أي نهاني عن التدبر فيه والاستماع له بعد ان قاربت فهمه ، والمجيء في قوله "إذ جاءني" مستعمل في أسماعه القرآن فكأن القرآن جاء فحل عنده وفيه قولهم أتاني نبأ كذا ".[1] والآية التالية تؤكد ان الذكر هو القرآن في قول الرسول – عليه الصلاة والسلام - فيها "وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً" "وإذ: ظرف للزمن الماضي ، أي بعد وقت جاءني فيه الذكر، والإتيان بالظرف هنا دون ان يقال: بعدما جاءني، أو بعد ان جاءني للإشارة إلى شدة التمكن من الذكر لانه قد استقر زمن وتحقق، ومنه قوله تعالى: **" وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ (115) " (سورة التوبة)** ، أي تمكن هديه منهم "،[2] وقد اعتبر ابن عاشور تذييل الآية **" وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29) " (سورة الفرقان)** ، من كلام الله في حين اعتبر الزمخشري احتمالين " ويحتمل ان يكون "كان الشيطان" حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله" ،[3] وعلى ما قاله ابن عاشور فان في هذا "تنبيهاً للناس على ان كل هذا الاضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسّول لخليل الظالم إضلال خليله لان الشيطان خذول للإنسان ، أي مجبول على شدة خذله " ،[4] ومن تشبه بصفات الشيطان في الإضلال أصبح مثله خذولاً لكل من حوله حتى لإعز الناس عليه متضمناً ذلك إخلائه وأصفيائه ، وإن كان التذييل من كلام الظالم، فهو اعتراف صريح من الإنسان بان طبيعة علاقته مع اخلاء السوء من بني جنسه تعتبر تماماً كعلاقته مع عدوه الأول

---

(4) التحرير، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر، ص 14.
(1) المرجع السابق، الجزء التاسع عشر، ص 16.
(2) المرجع السابق، الجزء التاسع عشر، ص 16.
(3) الكشاف، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 282.
(4) التحرير، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر، ص 16.

الشيطان في تماثلها وتطابقها ، فهو بهذا الاعتراف يعترف انه غير غافل عن هذا العدو و أساليبه و نهايته البئيسة لاستجابته له ، ولكن هذا الاعتـراف يتغافل عنه في حياته الدنيا ويذكره بعد فوات الأوان عند مشاهدة العذاب ، وحتى لو كان التذييل من كلام الله فلا يمنع هذا المعنى من حيث أن هذا الاعتراف القرآن يصور للإنسان ويوضح له طبيعة علاقته مع عدوه بمختلف الأساليب والتشبيهات والتنبيهات ، ومن خلال استشراف المستقبل الآخروي أيضاً أمام ناظريه في حياته الدنيا ليستضطلع وضعيتها ووضعيته فيها ويتأملها فيتعظ.

ومن هنا نلحظ كيف اجتمعت الأضداد في هذه الآية والآيتين السابقتين لها مما يؤكد على بيان القرآن الشامل لهذا العدو وأساليبه وطرقه وطبيعته ، حيث تجد هذا التضاد في التحاسد بين الأخوة والمفترض هو عكس ذلك تماماً من الألفة والمحبة وهو من عمل الشيطان وتجده في التناحر بين فئات المجتمع والأصل ان تسعى جميعها للاعتقاد السديد الذي يقوم حياتها ويؤسس بنيتها، وهو من عمل الشيطان بعدم تفويت فرصة النزغ بينها فكان النداء الإلهي لتقريب المسافة بين هذه الفئات في التوجه والاعتقاد وتفويت الفرصة على عدو الإنسان القديم الحديث من تهيج فتيل الفتنة من خلال المكابرة واذكاء شعلة الانتصار للنفس مما يمنع الهداية ، وتجد هذا التضاد والتنافر في أسمى و أرقى العلاقات الإنسانية حيث ان الأصل ان علاقات الإخلاء من اقدس العلاقات التي يسعى فيها الناس إلى عون الخليل لخليله نحو طريق الخير والرشاد والوقوف معه ونصحه نحو ما ينفعه في أحواله كلها ، فيحولها عدو الإنسان بمكائده والاعيبه إلى علاقة خذل وإضلال وهزيمة.

هذه هي الخطوط التي رسمها القرآن لطريقة الشيطان في تحطيم الإنسـان وتدميره ، فلا يجد سكينة في أسرة تأويه وتحميه ولا مجتمعاً بعد ذلك يحتضنه بتماسكه ونداءات الداعين والموجِّهين بأحسن القول وأحسن الطرق ، ولا صديقاً ناصراً بعد يأسه وتخبطه يلجأ إليه يستأمنه فينصح له وينصره بعد ان تكالبت عليه الدوائر الأوسع في حياته حتى خنقته ، فينهار في براثن العدو المبين حتى يكفر بكل شيء.

هذه هي الخطوط الثلاثة التي رسمها القرآن لطريقة الشيطان واضحة بيِّنه ، فلا يغفل عنها الإنسان ولا تكون له حجة على الله يوم القيامة، انه تركه لعدوه غَرٌ كريم ، بلا هادي ولا معين

، بل لقد جاءت هذه الآيات وغيرها الكثير بتعريفها للإنسان على عدوه سلاحاً اشد فتكاً من أي سلاح ، وزادت الأمر إيضاحاً عندما أعلنت عن الهدف الأخير للشيطان في الآية الرابعة في دراستنا في قوله تعالى في سورة الحشر: **" كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17) " (سورة الحشر)** . والآية جاءت بمناسبة انحياز المنافقين ليهود بني النضير "بقولهم (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) ثم خذلوهم وما وفوا بوعدهم".[1] "والتشبيه في الآية "كمثل الشيطان" أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان "إذ قال للإنسان اكفر" أغراه على الكفر اغراء الأمر المأمور "فلما كفر قال اني بريء منك" تبرأ منه مخافة ان يشاركه في العذاب ، ولم ينفعه ذلك كما قال **" إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17) " (سورة الحشر) "** ،[1] "والمراد: اما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر، واما إغواء الشيطان قريشاً يوم بدر بقوله: "لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم – إلى قوله- اني بريء منكم" ،[2] ونأخذ بعموم هذه الدعوة لا بخصوصها وهذا ما يثبته القرآن نفسه عندما طلب الشيطان منه عز وجل ان يمهله حتى يوم القيامة لإغواء الإنسان فهي ليست في موقف معين ولمجموعة معينة بل في كل وقت ومكان ، وجاءت الآيات التالية في نفس السورة تنبيهاً للمؤمنين الذين لم يستجيبوا لنداء الكفر على القيام بمسؤولياتهم المناطة بهم بالنظر في ما قد قدموه لمستقبل حياتهم الأخروي في قوله تعالى: **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) " (سورة الحشر)** ، ولعل هذا هو الذي جعل الشيطان يشتاط حقداً وغلاً على الإنسان ، فالإنسان بحكم مركزه الوجودي مسؤول، وعليه لاجل ذلك ان يتوخى الحيطة والحذر من كل قوى تعمل على التصدي له ، فتثنيه عن عزيمته وتلهيه عن أداء مهماته ، فصلاح العلاقات الأخوية رمز لقوة الأسرة ومتانتها مما ينبني عليه قوة في المجتمع ، واستقطاب المخالفين من المجموعات المتباينة في المجتمع ما هو إلا تدعيم لإرساء راية الخلافة في المجتمعات الإنسانية ، وتوخي مخاللة الصالحين تأكيداً

(1) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 290.

(1) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الخفاجي على تفسير البيضاوي الأمام أبى سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبد الرزاق المهدي، الجزء التاسع ص145.

(2) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 291.

للقيام بتلك المسؤوليات الإنسانية في مستوياتها الأهم بدلاً من الجري وراء الخراب والدمار بالإفساد في الأرض.

الإنسان المسؤول

طبيعته و طبيعة حياته :

وللوقوف على طبيعة حياة الإنسان لابد من الوقوف على قوله تعالى في سورة النساء "خلق الإنسان ضعيفاً" وإذا ما حاولنا وضع الآية في سياقها فستتضح لنا كثير من الصور يقول تعالى بعد الآيات التي وضَّحت كثير من الأحكام الشرعية وخاصة فيما يتعلق بالنكاح وشؤون العلاقات الزوجية: " **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً (28) (سورة النساء)** ، فنرى ان الإرادة الإلهية العليا كلها قد اتسمت بالرحمة المطلقة للإنسان من خلال إرادة البيان والهداية والتوبة والتخفيف لأجل طبيعة هذا الإنسان الذي خُلِق ضعيفاً ، وما الدستور الإلهي من تشريع ما قد شُرِّع للإنسان من أحكام وقوانين وسنن يدعوه ليلتزم بها إلا لصالح هذا الضعف الإنساني حتى تستقيم بنية دنياه ويستحق الجزاء الطيب في أخراه.

كما نرى في هذه المقابلة في الآيات بين الإرادة العليا الحكيمة الرحيمة وإرادة متبعوا الشهوات زيادة في الرحمة لتنبيه الإنسان على محيطه ، مثلما ذكرنا من قبل في دائرة صراعه ومع عدوه ، يقول الأستاذ سعيد حوى في ذلك "ثم يبين الله عز وجل في الآيات الأخيرة، ان له إرادة وللكفار والفساق إرادة ، فإرادته تعالى ان يُبيِّن لنا الحلال والحرام وان يدلنا على الطرائق الحميدة لمن قبلنا من الأنبياء والمرسلين والصالحين والشهداء وان يُطهرنا من ذنوبنا بتوبته علينا وهو العليم الحكيم، يظهر علمه وحكمته في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله، وإما إرادة الكفار والفساق ممن يتبعون الشهوات فهي ان ننحرف انحرافاً كبيراً عن الصراط المستقيم ، وما نراه في عصرنا من تواطؤ الكافرين والفساق على إضلال أهل الإيمان تجسيد عملي لما ذكرته الآية ، ثم يبين الله عز وجل ان إرادته بنا ليست لإرهاقنا وعنتنا بل أراد بنا فيما بين وشرع وهدى ، التخفيف علينا في شرائعه وأوامره ونواهيه ، وذلك لان الله الذي خلق

الإنسان وعَلِم ضعفه وتهالكه أمام الشهوات انزل له شريعة تناسب هذا الضعف في نفسه وعزمه وهمته فكانت شريعة يسر ، وشريعة تخفيف ، وقد جاءت الآيات الثلاث الأخيرة عقب التخفيف علينا بإباحة تزوج الإماء وفي ذلك إشارة واضحة إلى ان المجتمع الإسلامي النظيف يحتاج إلى وجود إماء كعامل مساعد على نظافته من الزنا والفاحشة" ،[1] وقد بين ابن عاشور انه لا يمكن بالطبع حصر الآية أنها تيسير فقط في قضايا الإماء والنكاح بقوله: "وقد فسر بعضهم الضعف هنا بأنه الضعف من جهة النساء ، قال طاووس "ليس يكون الإنسان في شيء اضعف منه في أمر النساء" وليس مراده حصر معنى الآية فيه، ولكنه مما روعي في الآية لا محالة ، لان من الأحكام المتقدمة ما هو ترخيص في النكاح" [2]، كما أورد ابن كثير في تفسيره مثالاً على هذا الضعف الشمولي براوية ما حدث ليلة الإسراء والمعراج عند فرض الصلاة "وقال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى فقال له : ماذا فرض عليكم ربكم ، فقال : أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف: فأن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا وان أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً فرجع فوضع عشراً ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمس.. الحديث " .[3]

وكما قد تناسبت هذه الإرادة الإلهية المطلقة من التبيين والهداية والتوبة والتخفيف مع الضعف الشمولي في الإنسان فقد تناسبت ايضاً مع طبيعة حياته من السعي والكدح والكبد ، فنبهه من خلال ما ذكره في سورة النجم والانشقاق والبلد إلى انه مسؤول عن أعماله كلها ان خيراً فخير وان شراً فشر ، ما دام الدستور الإلهي مُشرَّع بحسب ضعف طبيعته ، ومشرع للتخفيف عليه في كدحه ومكابدته في حياته والتي لا فكاك عنها ومُشرَّع للتبين له في سعيه وكسبه طرق الهداية وأساليبها ، فهو مغموس في هذا الكبد شاء أم ابى صلحت أحواله أم فسدت، فعليه ان يختار بعد ذلك أي وجه يريد في عمله وجه الدنيا ام وجه الآخرة ، على أساس من التحقق من ان هذه هي طبيعة حياته قائمة على السعي الدؤوب والكدح والمكابدة لا على

(1) الأساس في التفسير، سعيد حوي، المجلد الثاني ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 1037.
(2) التحرير، مرجع سابق، الجزء الثاني عشر، ص 22.
(3) تفسير القرآن العظيم للإمام إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، الجزء الأول، ص 479.

الظنون والتمني و الأوهام، قال تعالى في الآيات على التوالي - في سورة النجم: **" أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25) (سورة النجم)** ، وفي الآيات الأخر في السورة **" وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) " (سورة النجم) .**

وفي سورة الإنشقاق : **" يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (11) وَيَصْلَى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (15) " (سورة الانشقاق) .**

وفي سورة البلد : **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)** إلى آخر السورة.

وتوضح آيات سورة النجم تصورات الإنسان الخاطئة، بالنسبة لعلاقته مع خالقه وأثرها على نظرته لسلوكياته في الدنيا والآخرة ، فهو يتصور من جانب انه يستطيع ان يحقق ما يريد بناءاً على الأمنيات والتمني حتى على الصعيد التعبدي والذي هو أخطر الأصعدة ، ولا يمكن بناءها الا على الحقائق التامة الوافية القادمة من وحي السماء ، خاصة إذا ما تلمسنا الآيات في سياق السورة والتي اختصت بالحديث عن الملائكة ومنزلتها مبتدأة بتصوير مشهد سيدنا جبريل عليه السلام في تنزُّله بالوحي على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - ثم مُعرِّجة على تصورات المشركين والكفار والتي تروي الروايات انهم اتخذوا للملائكة رموزاً يعبدونهـا في الأرض كاللات والعزى ومناة والتي ذكرتهم السورة ، وما لها من مكانة تؤهلها للشفاعة لهم ان تحقق فعلاً اليوم الآخر بحسب تصوراتهم ، ومن هذا المنطلق يريدون ان يعملوا على حصر حقيقة الحياة والموت وما بينهما من الكدح للقاء الله بناءاً على ظنونهم وأهواءهم وأمنياتهم من الفوز المحقق ، غير ان "الحق حق ، والواقع واقع ، وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان في الحقائق ، إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بمناه ، وهو

اضعف من ان يغير أو يبدل في طبائع الأشياء و إنما الأمر كله لله يتصرف فيه كيف يشاء في الدنيا والآخرة سواء " فلله الآخرة والأولى " .[1]

فللأشياء طبيعتها التي تسير بحسب السنن التي وضعت عليها من لدن الحكيم العليم ، حتى سعى الإنسان في حياته الدنيا لتحقيق مجموعة من أمنياته لا يتم له على إطلاقه إذا كان يخالف تلك السنن والقوانين الربانية ، فكيف إذا تعلق الأمر بالآخرة وهي دارٌ للجزاء وينتهي بها العمل والسعي فما بالنا بالأماني والظنون ، ولذلك ضرب مثالاً "من الأماني التي هي اعظم أماني المشركين وهي قولهم في الأصنام (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبين إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب وهو ان الملائكة الذين لهم شرف المنزلة. لا يملكون الشفاعة الا إذا أذن الله ان يشفع إذا شاء ان يقبل الشفاعة في المشفوع له " ،[1] وفي هذا تصحيح لتصورات الإنسان الباطلة ، فالإرادة المطلقة هي الإرادة الإلهية ، والملك المطلق لله وحده ، والإنسان خاضع لا محالة لهذه الإرادة وذاك الملك يتحصل على ما يريده ضمن الناموس الإلهي لا بناءاً على الأماني والأهواء ، وإذا كان الله عز وجل يحقق بعض الأمنيات للناس في دنياهم فإن ذلك قد يكون أما ابتلاءً لهم أو تذكيراً بِنَعِمَه أو امداداً لكفارهم واملاءً ، ولذلك قدَّم الآخرة على الأولى في قوله "فلله الآخرة على الأولى" لان العطاء في الآخرة قائم على العدل المطلق فلا أماني ولا أهواء ، وتبطل فيها كافة الحالات التي يتم بها العطاء في الدنيا "وتقديم المجرور في قوله (فلله) لإفادة الحصر أي لله لا للإنسان"[2] ، و(أم) في الآية الأولى "هي ام المنقطعة ومعنى الهمزة فيها للإنكاراي : ليس للإنسان ما تمنى والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة وهو على الله في غاية البعد"[1] ، ولعل هذا على قصر الأمر على أماني الآخرة ، وقد نوه الفخر الرازي إلى جواز اتصالها "كأنه قال " **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (21) (سورة النجم)**، على الحقيقة أو تجعلون لانفسكم ما تشتهون وتتمنون ، وعلى هذا فقوله **: " تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) " (سورة النجم)** ، وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين .... وقوله تعالى : **" أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) " (سورة**

---

(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3409.
(1) التحرير، مرجع سابق، الجزء السابع والعشرون، ص 112-113.
(2) التحرير، الجزء السابع والعشرين، ص 112.
(1) الكشاف، المجلد الرابع، ص 424.

النجم) ، أي لا يستحقان العبادة ، أم للإنسان ان يعبد ما يشتهيه طبعه وان لم يكن يستحق العبادة وعلى هذا فقوله أم للإنسان أي هل له ان يعبد بالتمني والاشتهاء ويؤيد هذا قوله تعالى (وما تهوى الأنفس) أي عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة فهل لكم ذلك"[2]، وهذا يوضح تلك التصورات الإنسانية الباطلة القائمة على التمني.

وتعريف (الإنسان) "تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار المساوي للنفي جعله عاماً في كل إنسان "[3]، وفي هذا كله "تأديب وترويض للنفوس على تحمل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفاً للهوى ، وليحمل نفسه عليه حتى تتخلق به "[4]، ولتنبيه هذه النفوس بعد ذلك على انه ليس لها في الآخرة إلا نتيجة ما سعت إليه في دنياها ، سواء أكان هذا السعي قائماً على الأوهام والظنون وارادة التبجح والتفلت ، أو كان قائماً على الحقائق والاعتقادات السوية المُبَيَّنَة من لدن الخالق، وارادة الاستعلاء على الأهواء والأماني بالعمل الجاد والسعي الدؤوب ، ففي قوله في ذات السورة **" أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) "(سورة النجم)**، تأكيد وضبط للعملية برمتها في حياة الإنسان فيعلم علم اليقين ان هذا الأمر كما هو محسوم في هذه الرسالة الخاتمة فهو كذلك قد حسم في الرسالات السابقة، سعي مشهود عند الله لا يملك الإنسان الآه ، ولا يجزى إلا به.

ويجدر بالذكر هنا ما قيل في اشكالية مضاعفة الحسنات من لدن العزيز الحكيم، فقد جاء في تفسير سورة الرحمن من الكشاف ما رواه الطاهر عاشور في تفسيره "أن عبد الله بن طاهر قال للحسين بن الفضل: أشكلت عليّ ثلاث آيات فذكر منها قوله تعالى **"وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(39) " (سورة النجم),** فما بال الاضعاف أي قوله تعالى: "فيضاعفه له اضعافاً كثيرة" فقال الحسين: معناه انه ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي ان اجزيه بواحدة الفاً ، فضلاً"[1]، وفي هذا تشديداً على ملك الله للأمور جميعها حتى مبدأيه الرحمة والعفو عند

---

(2) التفسير الكبير، الجزء الثامن والعشرون، ص 302.
(3) التحرير، الجزء السابع والعشرون، ص 111.
(4) التحرير والتنوير، الجزء السابع والعشرون، ص 111.
(1) التحرير والتنوير، الجزء السابع والعشرون، ص 138.

الجزاء على السعي ، ولا يملك الإنسان شيئاً فوق سعيه وهذا كُلُّهُ ليتعمق الشعور في الإنسان بالخضوع لخالقه ، وهو ذات الأمر الذي يحاول الإنسان التفلت منه دائماً بأمانيِّه وحساباته ، وتعمل الآية على تأكيده في نفسه ، وسنأتي على هذه المسألة في المواضيع اللاحقة ان شاء الله .

ويجدر بنا هنا التنويه إلى بعض الأحاديث والآيات التي يظن أنها ليست من سعي الإنسان ولا يستفيد من ثوابها إذا ما مات فـ"هذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى ، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل إلا ما نص عليه حديث رسول – صلى الله عليه وسلم - في قوله "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له أو صدقه جارية من بعده، أو علم ينتفع به "وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله"[(1)]، "وهو عام (أي الحديث) في كل ما يعمله الإنسان ، ومعيار عمومه الاستثناء فالاستثناء دليل على أن المستثنيات الثلاثة هي من عمل الإنسان ، وقال عياض في الإكمال هذه الأشياء لما كان هو سببها فهي من عمله "[(2)]، وفي معنى السعي "يقال : سعى في كذا إذا أسرع إليه ، والسعي في قوله تعالى "إلا ما سعى" معناه العمل يقال سعى فلان أي عمل" [(3)]، "والسعي العمل والاكتساب ، وأصل السعي: المشي ، فأطلق على العمل مجازاً مرسلاً أو كناية" ،[(4)] "وليس المراد منه ان له عين ما سعى ، بل المراد ليس له إلا ثواب ما سعى أو إلا اجر ما سعى" ،[(5)] وقد بين المفسرين ان هذه الآية مختصة بثواب الأعمال الصالحة لأنها أولاً جاءت في مقابلة آية " **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** " "وبذلك يكون ذكر هذا تتميماً لمعنى " **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** " احتراساً من ان يخطر بالبال ان المدفوع عن غير فاعله هو الوزر وان الخير ينال غير فاعله"،[(1)] وبسبب من دخول لام الاختصاص على الإنسان ، يشرح ذلك الفخر الرازي في تفسيره الكبير ويبين ان الأمرين محتملين بان يكون السعي لعموم الأعمال وليس للأعمال الصالحة فقط: "المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل ،

---

(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3415.
(2) التحرير والتنوير، الجزء السابع والعشرون، ص 133.
(3) التفسير الكبير، الجزء التاسع والعشرون، ص 15.
(4) التحرير والتنوير، الجزء السابع والعشرون، ص 132.
(5) التفسير الكبير، الجزء التاسع والعشرون، ص 15.
(1) التحرير والتنوير ، الجزء السابع والعشرون ص132 .

فالقول المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به، والظاهر انه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى " للإنسان " فان (اللام) لعود المنافع (وعلى) لعود المضار ، تقول هذا له ، وهذا عليه ، ويشهد له ويشهد عليه ، في المنافع والمضار ، وللقائل الأول ان يقول بان الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور ، وأيضاً يدل عليه قوله تعالى : **" ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) " (سورة النجم:41)** ، والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية "،[2] ولكن يبدو والله اعلم أن الآية عامة في الجزاء على السعي كله فالجزاء الأوفى هو الكامل غير المنقوص على الجميع من الأعمال ويبقى بعد ذلك ان مضاعفة الثواب أو العفو عن السيئ هي رحمة راجعة للإرادة الإلهية فهو المالك الحقيقي للآخرة والأولى ، و أما القول لأنها جاءت في مقابلة آية "ولا تزر.." فتلك وان شرحت ان الإنسان لا يتحمل مسؤولية غيره وان التبعة فردية فان هذا لا يعني ان آية "له ما سعى" مختصة بالحسنات التي يعملها ، بل هي عامة في سعيه كله ، ولا يوجد ما ينفى ذلك بمعنى انه لا يتحمل ذنب غيره ولا يملك إلا عمله خيراً أو شراً وبذلك "يتحدد مبدأ فردية التبعة إلى جانب عدالة الجزاء ، فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية ، القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ، كي تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له بذلك الطمأنينة على الجزاء" .[1]

أما لام الاختصاص فقد رد النيسابوري في رده على من قال ان المقصود بالإنسان هو الكافر بما يصلح للرد هنا ايضاً بقوله "ولو أراد الكافر لقال "وليس على الإنسان" وهذا بالحقيقة غير وارد فإن اللام قد تستعمل في مثل هذا المعنى قال تعالى : **" وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا (7) " (سورة الاسراء)** ،[2] ولم يقل وان أسأتم فعليها.

فالإنسان لا يملك إلا سعيه وكدحه ومكابدته في الحياة هذه هي طبيعتها وهذا هو ملكه فيها وأما غير ذلك فهو الخضوع التام لله والعودة في المنتهى إليه، ومن البداهة القول ان سعي الإنسان أيضاً هو في نهاية المطاف في دائرة الملك لله ولكن من منطلق الجزاء عليه ، يقول

---

(2) التفسير الكبير ، الفخر الرازي، الجزء التاسع والعشرون، ص 15.
(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3415.
(2) غرائب القرآن للنيسابوري، المجلد السادس، ص 210.

تعالى : **"يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6) " (سورة الانشقاق)** ، ثم يبين الفريقين من جنس هذا الإنسان ، فيشرح امتلاك كل واحد منهم لاعماله من خلال كتابه ومن ثم جزاءه على ذلك فمن سعى للقاء ربه بالعمل الصالح امتلك كتابه بيمينه ومن سعى للقاءه بالعمل السيئ امتلك كتابه وراء ظهره ، والضمير في (ملاقيه) عائد إلى الرب "فملاق له لا محالة ، لا مفر لك منه، وقيل الضمير في (ملاقيه) عائد للكدح"،[1] "الا ان الكدح عمل وهو غرض لا يبقى فملاقاته ممتنعه ، فوجب ان يكون المراد ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال ، ويتأكد التأويل بقوله بعد هذه الآية "فأما من أوتي كتابه.."،[2] ولكن آيات آتيان الكتاب ما هي الا "تفصيل الإجمال الذي في قوله "انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه" أي رجوع جميع الناس أولئك إلى الله",[3] ومن ثم تحدث عملية توزيع الكتب فاللقاء هو لقاء الله وهذا هو مغزى الآيات جميعاً في كل من سورة النجم والانشقاق والبلد، بان الإنسان عائد إلى الله بحكم خضوعه له لا خيار له في ذلك، ففي سورة النجم كما مر معنا "وان إلى ربك المنتهى" وفي سورة البلد **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) " (سورة البلد)** ، ففيها تصحيح لتصورات الإنسان وحساباته ، بأنه مقدور عليه ، تحت رقابة ربه ، خاضع له ، عائد إليه ، تسبقه أعماله كلها ، ويراها في نهاية المطاف نصب عينيه كما يرى نفسه واقف بين يديه.

ولعل في طبيعة هذا النداء للإنسان ما يلفت الانتباه إلى هذه الربوبية, والدعوة للعودة إليها عودة ميمونة ، بما يوحيه هذا النداء التحببي من بلاغة في الخطاب وذلك بما فيه من التخصيص لكل فرد فيه، في قوله تعالى "يا ايها الإنسان انك كادح إلى ربك.." فـ"ان المراد جنس الناس كما يقال يا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل فكذا ههنا وكأنه خطاب خص به كل واحد من الناس ، قال القفال: وهو ابلغ من العموم لانه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام فانه لا يكون كذلك" ،[1] فهي دعوة تمتلئ شفقة ورحمة بالإنسان ليعود إلى ربه بما تحمله كلمه الرب من معاني العناية والرعاية ، عودة لا

(1) الكشاف، المجلد الرابع، ص 727.
(2) التفسير الكبير للرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 105.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 221.
(1) التفسير الكبير للفخر الرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 105.

يكون بها خاسراً بما كسبت يمينه على قاعدة الأماني والأوهام بعد هذا العناء والكدح والمكابدة في حياته الأولى ، والتي لا مناص من حصولها. ويتضح لنا هذا العناء من هذه المعاني المتباينة في الآيات فالكدح هو "جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها ، من كدح جلده إذا خدشه " ،[2] وفي لسان العرب "كَدَحَ يَكْدَحُ كَدْحاً ، وكَدَحَ لأهله كدحاً : وهو اكتسابه بمشقة ، وكدح جلده وكدَّحه فتكدَّح : كلاهما: خدَّشه فتخدَّش ، وتكدّح الجلْدُ : تَخَدَّش ، والكدوح: الخدوش ، وكل أثر من خدش أو عض فهو كدح ، ويجوز ان يكون مصدراً سمي به الأثر ، وكدح فلان وجه فلان إذا عمل به ما يشينه، وقيل الكدح اكبر من الخدوش " .[3]

وكذلك تأتي كلمة الكبد تعبيراً دقيقاً عن طبيعة حياة الإنسان فإن معناه وحده يوحي بهذا العناء الشديد الذي يحياه الإنسان بعمومه, وجاء تفسيرها في لسان العرب: "كبد كل شيء وسطه ومعظمه يقال: انتزع سهماً فوضعه في كبد القرطاس, وتكبدت الشمس وسط السماء: صارت في كبدها. وكبد السماء وسطها الذي تقوم فيه الشمس عند الزوال، والكبد: الشدة والمشقة ، ومُكَابَدةُ الأمر: معاناة مشقته وكَابَدْت الأمر إذا قاسيت شدته. وفي حديث بلال : أذَّنتْ في ليلة باردة فلم يأت أحد، فقال رسول لله -صلى الله عليه وسلم - : أَكَبَدَهَمُ البرد ؟ أي شق عليهم وضيق أو أصاب أَكْبَادهَمُ, وذلك أشد ما يكون من البرد، لان الكبد معدن الحرارة والدم ولا يخلص إليها إلا أشد البرد، وفي حديث الخندق : فعرضت كَبْدَةٌ شديدة ، هي القطعة الصُّلْبة من الأرض ، وأرض كَبْدَاء وقَوْسٌ كَبْدَاء أي شديدة" ،[1] وفي الكشاف " أصله قولك : كبد الرجل كبداً : إذا وجعت كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى

استعمل في كل تعب ومشقة, ومنه اشتقت المكابدة ". [2]

كما واذكر معاني الكبد كما جاءت في كل من تفسيري الرازي وسيد قطب لما فيهما من وصف دقيق لمكابدة الإنسان في حياته وانغماسه في ذلك فقد ذكر الرازي: "وهو انه ليس في هذه الدنيا لذة البتة, بل ذاك الذي يظهر انه لذة فهو خلاص عن الألم ، فأن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع ، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن

(2) الكشاف، المجلد الرابع، ص 727.
(3) لسان العرب، الجزء الخامس، ص 38.
(1) لسان العرب، الجزء الخامس، ص 364.
(2) الكشاف، المجلد الرابع، ص 758.

ألم الحر والبرد ، فليس للإنسان إلا الم أو خلاص عن ألم أو انتقال إلى آخر ، فهذا معنى قوله : **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (40) " (سورة البلد)**، ويظهر منه أنه لابد للإنسان من البعث والقيامة ، لان الحكيم الذي دبر خلق الإنسان ان كان مطلوباً منه ان يتألم ، فهذا لا يليق بالرحمة ، وان كان مطلوبه ان لا يتألم ولا يلتذ ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب ، وان كان مطلوبه ان يلتذ ، فقد بينا انه ليس في هذه الحياة لذة ، وانه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة ، فإذن لابد بعد هذه الدار من دار أخرى،لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرمات" ،[1] ففسر بذلك طبيعة حياة الإنسان وهدف الوجود الآخروي من إسعاده وإكرامه ان أدرك مسؤولياته وقام بها .

وفي الظلال يقول الشهيد سيد قطب في قوله تعالى: **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (40) " (سورة البلد)** ، ان الإنسان يعيش "في مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح كما قال في السورة الأخرى "يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه".

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة ، والغذاء بإذن ربها ، وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج ، فتذوق من المخاض – إلى جانب ما تذوقه الوالِدة- ما تذوق ، وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق من مخرجه من الرحم ؟ ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر, يبدأ الجنين يتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة . ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد . وكل خطوة بعد ذلك كبد، وكل حركة بعد ذلك كبد. والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة, وعند بروز الأسنان كبد. وعند انتصاب القامة كبد. وعند الخطو الثابت كبد. وعند التعلم كبد. وعند التفكر كبد. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء.

(1) التفسير الكبير الفخر الرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 181.

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ، هذا يكدح بعضلاته وهذا يكدح بفكره ، وهذا يكدح بروحه ، وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء، وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف.. وهذا يكدح لملك أو جاه ، وهذا يكدح في سبيل الله، وهذا يكدح لشهوة ونزوة، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة ، وهذا يكدح إلى النار ، وهذا يكدح إلى الجنة ، والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه ؟ وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء وتكون الراحة الكبرى للسعداء.

أنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا.. تختلف أشكاله واسبابه ، ولكنه هو الكبد في النهاية، فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى وافلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تُنهي عنه كبد الحياة، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله " . (1)

فالإنسان مغموس مغمور في هذا الكبد لا مناص، وقد جاءت بداية سورة البلد بالقسم الإلهي بالبلد الحرام وما بعده على ذلك في قوله تعالى: **" لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (4) (سورة البلد)** ، كما ان حرف "في" في الآية "يدل على ان الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف "،(1) وسورة البلد بحث مستقل بحد ذاته اذكر منها المعنى العام للآيات فهي تصف طبيعة حياة الإنسان ثم ظنونه وحساباته وادعاءاته ومزاعمه وتغافله بهذا الادعاء عن خضوعه لمراقبة الخالق في قوله تعالى: **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) " (سورة البلد)** ، فهو يزعم مراعاته للقضايا الإنسانية والتي ركزت عليها السورة واعتبرتها العقبة التي عليه تجاوزها لتحقيق إنسانيته، يزعم ذلك بقوله انه صرف الأموال المتلبدة تلبد الصوف من كثرتها على صناعة حياة أفضل لأخيه الإنسان ، ويتدارك القرآن هذه المزاعم بتنبيه الإنسان على قوة الخالق واقتداره على اخذ الظالم بكذبه وادعاءه, وبتذكير الإنسان بأنه مسؤول عليه أداء ما عليه تجاه الإنسانية بذكر المدارك المُعِينة له على تحقيق مسؤولياته بقوله **" أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9)**

---

(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3909-3910.

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الحادي والثلاثين، ص 182.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) " (سورة البلد) ، ليختار بعد ذلك أما المزاعم المكشوفة المفضوحة لخالقه، واما العمل الجاد الذي يضعه في زمرة الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، لما في هذا التواصي من استمرار التثبيت على اقتحام العقبة من فتح نوافذ الحريات والتكافل الاجتماعي نرى ذلك في بقية السورة في قوله تعالى: " **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20) " (سورة البلد) .**

ومن الملاحظ هذه الدعوة القرآنية للإنسان لمراعاة المجموع من حوله ، واعتبار ذلك من أهم مسؤولياته ، فالقضايا الإنسانية في المفهوم القرآني هي الأولى في عملية الإعمار من جانب ، والاهتمام بها من الجانب الآخر يُطَهر النفوس ويرققها من خلال العطاء وبذل الجهد بتحرير الرقاب ومقصوده هو النضال لاجل تحقيق حريات الناس، والتكافل الاجتماعي فلا تعيش الجموع الإنسانية من الأيتام والمساكين في ضيق المجاعات وبرد العراء. وتلحظ في الآيات ان الحديث كان إلى فرد الإنسان القادر ليتوجه إلى فرد الإنسان المحتاج، ثم انتقل إلى حالة الجمع في قوله " **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) " (سورة البلد)** ، وذلك للانتقال بهذه المساءل من الصعيد الفردي إلى عناية الصعيد الجمعي ، وما التشديد على مسألة التواصي إلا لحاجة هذه الأمور إلى ذلك فلا ينكمش الإنسان على نفسه طامعاً في تحقيق ملذاته وحده.

وقد تساءل كثير من المفسرين عن مسألة تأخير الإيمان وتقديم فك الرقاب والإطعام مع ان الإيمان هو السبب في مثل هذه العناية الخاصة بالفقراء والمساكين وتداولوا المسألة على اعتبار ان "ثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت لان الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به".(1) وما إلى ذلك من تفسيرات (ثم) وان كنت أضيف انه لربما كانت عناية الإنسان بأخيه الإنسان باقتحام مثل هذه العقبات ، لمما يؤدي إلى شفافية في الضمير تزيل الران وترقق القلوب بما يتكشف عن

(1) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 760.

هذه الشفافية من رؤية للحقيقة بالتوجه الصادق إلى ما في باطن هذه الفطرة من التصديق والإيمان ، وان هذا هو مقصود حديث حكيم بن حزام لا ما ذهب إليه المفسرون حيث حللوه كالتالي : " ان من أتى بهذه القرب تقرباً إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد – صلى الله عليه وسلم - ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فعند بعضهم انه يثاب على تلك الطاعات ، قالوا ويدل عليه ما روى "ان حكيم بن حزام بعدما أسلم قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم - : إنا كنا نأتي بأعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام أسلمت على ما قدمت من الخير" ،[(2)] فاعتبروا انه يثاب على ما قدم من خير بعد ان اسلم ولكني أرى ان عبارة رسول الله تعني ان هذه الشفافية التي تحققت في نفسه بسبب من مراعاة الضعفاء ومعاونة المحتاجين هي التي أدت إلى هذا الإيمان وكشف الران عن القلب ، ولعله أي حكيم بن حزام تحصَّل على خيرها بجذبها له إلى الإسلام والاهتداء إليه وذاك افضل من خيرية الثواب الحرفي على تلك الأعمال وهذا مضمون قوله عليه السلام: "أسلمت على ما قدمت من خير" فهو سبب إسلامك ومقدمة الهداية.

والمسألة في سورة البلد على العموم مسألة خضوع الإنسان للخالق، فلا خير في الأعمال ومكابدة الحياة ان لم تكن في الإطار التعبدي كما تبين من قوله تعالى في الآيات الأولى من السورة ، ولذلك أيضاً ذُيلت بذكر الفريقين من هذا الإنسان "الذين آمنوا" و "الذين كفروا" وأوصافهم بالنسبة للدار الآخرة "أصحاب الميمنة" و "أصحاب المشئمة"عودة دائمة لتذكير الإنسان بهذا الخضوع المصيري لخالقه فلا يتفاخر بإنجازاته ومكابدته في هذا الإنجاز سواء أأهلك الأموال أم لم يهلك ، فالخالق هو الذي أعطى الإنسان مؤهلات هذه المكابدة فلا ينفع العمل بعد ذلك إن لم يكن ضمن سننه، هادفاً للإصلاح، نابعاً من الإيمان.

موقف الإنسان من خالقه:

" إنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أفلا يَعْلَمُ إذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُور (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُور (10) إنَّ رَبَّهُمْ بهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11) " (سورة العاديات).

---

(2) التفسير الكبير للرازي، مرجع سابق، الجزء الحادي والثلاثون، ص 186.

بهذا الوضوح والمباشرة تحدد سورة العاديات موقف الإنسان من ربه، و" الكنود: الكفور وعند الكلبي : الكنود بلسان كندة : العاصي ، وبلسان بني مالك: البخيل ، وبلسان مضر وربيعة: الكنود يعني انه لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران" ،[1] "وقال الحسن : لوّام لربه يعد المصيبات وينسى النعم ، وقال أبو عمرو : كنـود ، كفور للمودة ، وأرض

كنود : لا تنبت شيئاً ". [1]

"والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراق غالباً، أي ان في طبع الإنسان الكنود لربه ، أي كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكُمَّل أهل الصلاح لأنه عارض ينشأ عن إيثار نفسه وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره ، وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله ، والإنسان يحس بذلك في نفسه في خطراته ، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه والأنفس متفاوتة في تمكين هذا الخلق منها ، والعزائم متفاوتة في

استطاعة مغالبته .

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى " **وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) " (سورة العاديات)** ، فلذلك كان الاستغراق عرفياً أو عاماً مخصوصاً، فالإنسان لا يخلو من أحوال مآلها إلى كفران النعمة ، بالقول أو القصد، أو بالفعل والغفلة فالإشراك كُنود ، والعصيان كُنود ، وقلة ملاحظة صرف النعمة فيما أعطيت لأجله كُنود ، وهو متفاوت ، فهذا خلق متأصل في الإنسان فلذلك أيقظ الله له الناس ليريضوا أنفسهم على إماتة هذا الخلق من نفوسهم كما في قوله تعالى: **" إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً "** الآية وقوله **" خلق الإنسان من عجل "** وقوله **" كَلَّا إنَّ الإنسان لَيَطْغَى أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى "**.[2]

فهذه الآية وما بعدها تحدد الكثير من طبائع الإنسان ومواقفه، كما تتوافق مع كثير من الآيات المبثوثة في السور الأخرى والتي تُفصِّل بعض الأوجه في هذه الآيات ، فكُنود الإنسان

(1) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 795.
(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص 439.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثلاثون، ص 503.

لربه ككفر النعمة والتغافل عن هيمنة الخالق ومحاولة التفصي من الخضوع له ، والاعتراف بيوم الحساب كلها مواضيع سنعرض لها في الصفحات اللاحقة كما عرضنا إلى بعض منها في الصفحات السابقة ، وهنا تكمن صعوبة هذا البحث في عملية ترتيبه وتصنيفه لما في الآيات المتحدثة عن الإنسان من التداخل والتشابك وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: **" وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ "** ، فهي تتوافق مع قوله تعالى في سورة القيامة **" بَلِ الإنسان عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ "** ، ولكن أعرض هذه الأخيرة في سياقها من آيات سورة القيامة عند الحديث عن ظنون الإنسان وحساباته ليتكامل المعنى هناك، والمعنى هنا شهادة الإنسان على نفسه وإدراكه لما يعتمل في داخله وما تأتيه جوارحه وصواب هذا أو خطأ ذاك من أفعاله وتصوراته ورؤاه ، وفي التحرير "ان الإنسان مقر بكُنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار، وذلك في فلتات الأقوال

مثل قول المشركين في أصنامهم قال تعالى : **" مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (3) " (سورة الزمر)** ، فهذا قول يلزمه اعترافهم بأنهم عبدوا ما لا يستحق ان يُعبد و أشركوا في العبادة مع المستحق للانفراد بها، أليس هذا كنوداً لربهم ، قال تعالى: **" وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ "** ، وفي فلتات الأفعال كما يعرض للمسلم من المعاصي"،[1] "والمقصود من هذه الجملة تفظيع كُنود الإنسان بانه معلوم لصاحبه بأدنى تأمل في أقواله وأفعاله" .[2]

ومن الملاحظ أيضاً في آيات هذا البحث المختص بالإنسان ان الحديث عن اليوم الآخر كان يَردُ دوماً وفي الأغلب الأعم بعد التنويه بالإنسان سواء لمكانته الوجودية أو لماهية خلقه أو مواقفه وطباعه أو حتى طبيعة حياته الدنيا مما يوحي بأن هذه المفاتيح التي تساهم في إدراك الإنسان لنفسه في المفهوم القرآني تريد به إلى نتيجة محددة واضحة: هي ان للإنسان لحظة لقاءٍ مع خالقه يتحدد مصيره النهائي فيها بحسب ما قدمه في الأولى ، فهي عملية إيقاظ وتذكير للإنسان ليستعد لذلك اللقاء ، وهذا هو الهدف النهائي لهذا

التعريف القرآني للإنسان بالإنسان.

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 503.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 503.

ورجوعاً إلى موقف الإنسان من خالقه وموجده نجد أن الآية الثامنة وان لم تكن تعليليه بل على الأكثر تعريفيه ففيها مع ذلك إيحاء بتحليل موقف كنود الإنسان هذا من ربه، وهو شدة حبه للخير في قوله " **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)** " **(سورة العاديات)** ، فهو هذا الولع بامتلاك الخير والحصول عليه على أي وجه ، ييتئس عند فقدانه ولكأنه يعتبر ان سبب فقدانه هو خالقه فيتخذ لذلك منه موقفاً معادياً باليأس منه والقنوط من رحمته، نجد ذلك صريحاً في قوله تعالى عن الإنسان " **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)** " **(سورة الفجر)** ، ولا يلتفت إلى طباعه هو من حيث شدة حرصه ومنعه للخير عند الحصول عليه، فيغير مواقفه لتكون أليق بإنسانيته المُكَرَّمة ، ففي تتمة الآيات في سورة الفجر " **كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً (20)** " **(سورة الفجر)** ، ففي هذه الآيات تنبيه للإنسان على مواقفه حتى يتداركها حيث يريد الإنسان ان يتفرد وحده بسلطة الملك عن الآخرين ولا يريد حساباً لذلك أو نقاشاً، فهو ومع اعترافه الضمني بالخالق إلا انه لا يريد لهذا الخالق هيمنة عليه ، يعطيه ويمنعه بحسب تقدير الابتلاء ولذلك تجد موقفه كنوداً وجحوداً لربه الذي يرعاه ويحقق له مصلحته بما تقتضيه الحكمة.

وما قَسَمُ الله بالخيل في بداية السورة وأوصافها في حالات الحرب والإغارة وقوتها وشدتها ثم إذعانها لسيطرة الإنسان عليها إلا تحذيراً للإنسان من موقفه من ربه بهذا الكنود فيأبى الإذعان له ، وله من خيله خير مثال فهو قوي شديد ومذعن أيضاً له وعليه ان يكون كذلك لخالقه ، يقول الرازي في هذا القَسَمْ " إنما اقسم بالخيل لان لها في العَدْوِ من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب فأنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر ، فإذا ظننت ان النفع في الطلب عَدَوْنَ إلى الخصم لتفوز بالغنيمة ، وإذا ظننت ان المصلحة في الهرب قدرن على أشد العَدْوِ ، ولا شك ان السلامة إحدى الغنيمتين".(1) ولا شك أيضاً ان الإنسان أولى بإن يعدو نحو سلامته فقال في الآية التاسعة، مذكراً مخوفاً مستنكراً عليه غفلته عن لحظة الميعاد " **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)** " **(سورة العاديات)** ، فقوته يجب ان لا تمنعه من الإذعان المطلق لسيده .

---

(1) التفسير الكبير، الجزء الثاني والثلاثون، ص 64.

كمـا أشـار الـرازي إلـى معنـى آخـر يـرتبط بالإنـسان فـي قولـه "والعاديـات ضـبحا" "والضبح: هو أصوات أنفاس الخيل إذا عدت، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس"،[1] فبين انه "إنما قال (ضبحاً)لأنه إمارة يظهر به التعب وانه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب، فكأنه تعالى يقول: انه مع ضعفه لا يترك طاعتك، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضاً "،[2] فلا يكفر النعم بعدم شكرها عند حصولها اعتقاداً بأنها اوتيها بسبب من علمه وقوته أو باليأس عند زوالها فيهزل ويشعر بالضعف في ذاته فإن لذلك حكم تقتضيها طبيعة حياة الإنسان، وان كان الله عز وجل من الناحية الأخرى قد بين للإنسان انه قد انعم عليه من كل النعم التي يحتاجها في حياته سواء طلبها بلسان الحال أو بلسان المقال، ولكن الإنسان يظلم نفسه بهذا الموقف من خالقه قال تعالى: **"وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) " (سورة إبراهيم) .**

" فقد وردت صفات الإنسان ظلوم كفار بصيغ المبالغة وذلك لما اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله "وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها", إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذ اعرضوا عن عبادة المنعم ما لا يغني عنهم شيئاً، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره". [1]

"والإنسان للجنس, فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان فيه"،[2] فالإنسان الظلوم هو الذي "يظلم النعمة بإغفال شكرها" ،[3] "أو يظلم نفسه بتعرضها للحرمان بترك الشكر"،[4] وهو كفار "أي شديد الكفران لها" ،[5] خاصة بعد بيان انه تعالى قد انعم عليهم من النعم ما لو أرادو عده واحصاءه ما استطاعوه " فجملة "وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها" " تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيهاً على ان ما آتاهم الله وكثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم ، فمعنى "أن تعدوا " إن

(1) التفسير الكبير، الجزء الثاني والثلاثون، ص 63.
(2) المرجع السابق، الجزء الثاني والثلاثون، ص 64.
(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ص 238.
(2) الكشاف، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 523.
(3) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 523.
(4) روح المعاني للآلوسي، مرجع سابق، المجلد السابع، ص 216.
(5) الكشاف، الجزء الثاني، ص 523.

تحاولوا العد وتأخذوا فيه".[6]

"وبمناسبة هذه الآية نقول: ان الشكر هو المخلص من مقام الظلم والكفران ، ولكن الشكر نفسه هو من نعم الله فهو محتاج إلى شكر"،[7] ولعل الشكر هو الصفة التي تقابل الكفران والظلم وتعمل على محوها لما فيها من الإعتراف بمنة الخالق على الإنسان بالنعم فهي منفذ الإنسان الوحيد لإستقامة طريقته مع خالقه، فهي الصفة التي توجب محبة الله تعالى وتعظيمه في دخيلته بسبب من الآئه ونعمه الظاهره والباطنة على الإنسان.

خاصة نعمة الإيجاد والتي يمتن الله بها على عباده في قوله تعالى **" وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ (66) " (سورة الحج)** ، وصفة الإنسان هنا بالكفور لما في إنكار هذه النعمة من جحود بيِّن واضح أو هي " زجر لهم عن الكفران بطريقة التوبيخ "،[1] فإن نعمة الإيجاد بالإحياء الأول نعمة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير، كما أن نعمة الآخرة علينا بما فيها من خلود ونعيم مقيم لا يمكن إنكارها للصالحين من بني الإنسان ولذلك كان ما بين ذكر الإحياء الأول والإحياء الثاني مع المنة بالنعم تنبيه ضمني على العلاقة التي يجب على الإنسان ان يسلكها مع خالقه ليحيا النعمتين، نعيم الدنيا بقوله : " لئن شكرتم لأزيدنكم " ونعيم الآخرة الذي لا نعيم بعده، إن تقوَّم موقف الإنسان من مُوجِده وسيده ، ومن هنا كانت الآية اللاحقة لهذه الآية قوله تعالى **" لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) "(سورة الحج)**، إلى ما بعدها من الآيات عودة "إلى بيان أن أمر التكليف مستقر على ما في هذه الشريعة فقال "لكل أمة" الآية ،[2] فكأنه أراد بعد بيان النعم في الآيات السابقة لآية **" وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ..."** ان من يريد ان يكفر فليكفر ولكن الشرع حاصل مستمر أمره و النسك وارد فمن استجاب فلنفسه ومن لم يستجيب فعليها ، فالأمر ماضٍ على حسب سننه وحكمته لا حسب أهواءهم ، ويكفيهم حتى يستجيبوا لخالقهم ان يتذكروا انه الأصل في وجودهم وبهذا الإيجاد تسقط كل الحجج بالكفر والتغافل.

(6) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، ص 236.
(7) الأساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص 2813.
(1) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، القمي النيسابوري، ص 99.
(2) المرجع السابق، ص 99.

ولا يمكن اعتبار الإنسان في هذه الآية بالكافر كما ذهب إليه البعض فقد بين الرازي انه "لما فصل تعالى هذه النعم قال (ان الإنسان لكفور) وهذا كما قد يعد المرء نعمه على ولده ثم يقول ان الولد لكفور لنعم الوالد زجراً له عن الكفران وبعثاً له على الشكر، فلذلك أورد تعالى ذكر الكفار فبين انهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى **(وقليل من عبادي الشكور)** " (1)، فإن هذا القليل الشاكر يقابله الكثير من غير الشاكرين ولكنهم ليسوا بالكافرين على الحقيقة ، ولكن مع إيمانهم فهم على درجة من درجات كفر النعمة ،وفي التحرير "والتعريف في الإنسان تعريف الاستغراق العرفي المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب قوله ، جمع الأمير الصاغة ، أي صاغة بلده ، وقوله تعالى " **فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38)** " **(سورة الشعراء)** ، ويجوز كون الكفور مأخوذ من كفر النعمة وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر، وحينئذ يكون الاستغراق حقيقياً " (2).

وهذا يعني ان عدم شكر الإنسان للنعم وجحدها واحدة تلو الأخرى تُبْقِى على العلاقة في صريح قوله تعالى " **إنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنود** " وعلى عكس ذلك فان الشكر إيذان بالاعتراف ثم الخضوع ثم السكينة والطمأنينة لأقدار الابتلاء بالشكر تارة والصبر تارة أخرى.

جدل الإنسان وعنجهيته:

ولكن مشكلة الإنسان الكبرى تبقى في عدم رغبته في الخضوع ، الم يقل تعالى في آية سورة القيامة " **بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)** " **(سورة القيامة)** ،هذه الآية التي سنشرحها بعد قليل وتدلل على الصورة الحقيقية لإرادة الإنسان، ولذلك يبقى الإنسان في حالة المجادلة المستمرة والمناظرة الدائمة سواء مع خالقه أو في مجمل حياته العامة مؤمناً كان أو كافرا، يقول تعالى في سورة الكهف بعد ما ضرب الأمثلة وعددّها في تلك السورة للإنسان ليعتبر ويرتدع ويتنبه إلى حقائق الوجود وطبيعة الحياة " **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)** " **(سورة الكهف)** ، كما أورد كل من آياتي النحل ويس لبيان كيف ينتصب الإنسان من لا شيء إلى مستوى المخاصمة والمناورة

(1) التفسير الكبير – مرجع سابق – الجزء الثالث والعشرون ص64 .
(2) التحرير والتنوير، الجزء السادس عشر والسابع عشر، ص 327.

الواضحة البيِّنة ، يقول تعالى في النحل " **خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) (سورة النحل)** ، وفي يس " **أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) (سورة يّس) .**

وقد اختلف العلماء في شرح هاتين الآيتين على أي وجه هي، هل جاءت للامتنان على الإنسان بنقله من نطفة مذره إلى صاحب قدرة عقلية عالية في المخاصمة والمجادلة أم جاءت لبيان مخاصمة الإنسان لربه ومعاندته له بإبائه الخضوع له و الدينونة لحكمه فيخاصم ويجادل في الله وهو شديد المحال, ولقد ذكر القمي النيسابوري في تفسيره هذين الوجهين وفصّل معناهما، واذكر قبل إيراد تفسيره أنني وجدت ان آية النحل احتملت الامتنان على الإنسان وذلك بحسب سياقها في السورة حيث عدد عز وجل نعم كثيرة قد سخرها للإنسان ثم وجهه إلى نفسه للامتنان عليه بنعمه عليه في ذاته، أما آية يس فقد احتملت الوجه الآخر وهو ذم الإنسان على مخاصمته لربه وتحدِّيه له بحسب سياق الآية أيضاً في السورة, فقد تحدثت عن مشركي قريش الذين تحدُّوا سيدنا محمد بإحياء الله للعظام وقد رمّ وبلى فجاءت الآية على نحو تذكيري للإنسان بخلقه وبالتعجب من عنجهيته ووقفته المتحدية بقوله تعالى: " أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين " فجمعت ووفت, فلا تناقض فيما ذهب إليه المفسرون من شرح هذه المُخاصمه باحتمالها للمعنيين كل آية بحسب سياقها, يقول النيسابوري " (فإذا هو خصيم مبين) فقد ذكروا فيه وجهين: الأول فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مُبيِّن للحجة بعد ان كان نطفة لا حس به ولا حراك، وتقرير ذلك ان النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهماً وذكاءً من نفوس سائر الحيوانات الا ترى ان ولد الدجاجة عندما يخرج من البيضة يعرف الصديق من العدو ، فيهرب من الهرة ويلتجئ إلى الأم ، ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والذي لا يوافقه ، وحال الطفل بخلاف ذلك فانتقاله من تلك الحالة الخسيسة إلى ان يقوى على معرفة الإلهيات والفلكيات والعنصريات وعلى إيراد الشكوك والشبهات على النتائج والمقدمات ، إنما يكون بتدبير إله مختار قدير ينقل الأرواح من النقصان إلى الكمال ومن

الجهالة إلى المعرفة ، والوجه الثاني: ان المراد فإذا هو خصيم لربه مُنْكر لخالقه قائل من يحيى العظام وهي رميم".[1]

ويؤيد ابن عاشور احتمال الآية الواحدة للمعنيين بشرحه حرف الفاء في قوله تعالى "فإذا هو خصيم مبين" بقوله "فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مفهماً أمرين هما: التعجيب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئين عن التفكير والتعقل, والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه ، فالجملة في حد ذاتها تنويه ، وبضممية حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب ، ولو قيل فهو خصيم ، أو فكان خصيم لم يحصل هذا المعنى البليغ"[2]، "(فإذا) للمفأجاة: ووجه المفاجأة ان ذلك الإنسان خلق ليعبد الله ويعلم ما يليق به، فإذا لم يجر على ذلك فاجأ بما لم يكن مترقباً منه ، مع إفادة ان الخصومة في شؤون الإلهية كانت بما بادر به حين عقل "،[3] "والخصيم: الكثير المخاصمة"،[4] " والخَصْمُ مَصْدَرُ خَصَمْتُهُ ، أي: نازَعْتُهُ خَصْماً ،.. وأصل المُخاصَمَةِ : أنْ يَتَعَلَّق كلُّ واحِدٍ بِخُصْمِ الآخر، أي جانِبِه ، وأنْ يجذِبَ كلُّ واحِدٍ خُصْم الجَوالِق منْ جانِب" .[5]

وفي لسان العرب: "الخُصومَةُ الجَدَلُ ... ويَخْصِمهُ خَصْماً غلبه بالحجة... وأَخْصَمْتُ فلاناً, إذا لقنته حُجته على خَصْمِهِ "،[1] وفي الرازي "فقوله (خصم) أي ناطق وانما ذُكِرَ الخصم فكان ناطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فان الناطق مع نفسه لا يُبين كلامه مثل ما يُبيِّنه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصما لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصيمه ، وقوله "مبين" إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لان العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لان المبين بان عنده الشيء ثم أبانه "[2].

(1) تفسير غرائب القرآن، القمي النيسابوري، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 243.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ص 103.
(3) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثالث والعشرون، ص 74.
(4) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 285.
(5) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 284.
(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 266.
(2) التفسير الكبير، مرجع سابق، الجزء السادس والعشرين، ص 108.

ومن هنا تتضح صورة الإنسان عند محاولاته إيراد الحجة على مبتغاه كيف يناور ويحاور ويسلك كل مسلك حتى يحصل على ما يريده من إرادة خير أو شر، نفع أو ضر وقد وصفت آية سورة الكهف هذا الخُلق المتأصل في الكينونة الإنسانية، كما دلل على ذلك الحديث النبوي الشريف في هذا المجال وهما على التوالي:

قوله تعالى: **" وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54) " (سورة الكهف),** " وما ثبت في الصحيح عن علي: "ان النبي – صلى الله عليه وسلم - طرقه وفاطمة ليلا فقال: الا تصليان ؟ فقال علي: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ان شاء ان يبعثنا بعثنا ، قال : فانصرف رسول الله حين قلت له ذلك ولم يرجع إليَّ شيئا ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقرأ **"وكان الإنسان اكثر شيء جدلا"** يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ان الأولى بعلي ان يحمد ايقاظ رسول الله اياه ليقيم من الليل وان يحرص على تكرر ذلك وان يُسر بما في كلام رسول الله من كلام، ولا يستدل بما يحبذ استمرار نومه، فذلك محل تعجب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من جواب علي رضي الله عنه "[1].

وهذا يبين لنا شدة تمكن هذا الطبع والخلق من النفس الإنسانية فهو متمركز فيها تختلف مساربه وطرقه، فالكافر يجادل في الله ووجوده ، والمسلم يجادل فيما هو دون ذلك واصغر، ولكن الجدل والمخاصمة والمناورة تبقى في الطبيعة الإنسانية، يختلف حسن هذا الخلق أو عدمه بحسب الهدف الذي يوجه إليه، فمفهوم الجدل في القرآن الكريم مفهوم واسع يحتمل الوجه الحسن والوجه القبيح، الم يقل الله تعالى: **" وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (125) " (سورة النحل)** ، فهو حيناً مطلوب وأحيانا أخرى مذموم ترى ذلك في قوله تعالى أيضاً : في نفس سورة الكهف **" وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً (56) " (سورة الكهف)**، ولا شك ان مفهوما كهذا وكما هو الحال مع غيره من المفاهيم القرآنية يحتاج إلى استقراء للكلمات المختصة به للخروج منه بعد ذلك برؤية واضحة شاملة.

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الخامس عشر، ص 349.

وقد جاءت كلمة الجدل في مفردات الراغب الأصفهاني بمعنى " المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، واصله مِنْ : جَدَلْتُ الحبل ، أي أحكمت فتله، ومنه: الجديل (وهو الارض) ، وجدلتُ البناء : أحكمتُه ، ودرع مجدولة ، والاجدل : الصقر المُحكم البنية والمِجْدَل: القصر المحكم البناء ، ومنه الجدال : فكأنَّ المتجادلين يفتل كلٌّ واحد الآخر عن رايه ، وقيل الأصل في الجدال : الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة ، وهي الارض الصلبة .

قال تعالى: " **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (125)** " **(سورة النحل)** ، " **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ (35)** " **(سورة غافر)** ، " **وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) (سورة الحج)** ، " **قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا (35)** " **(سورة هود)** ، " **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً (58)** " **(سورة الزخرف)** ، " **وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)** " **(سورة الكهف)** ، وقال تعالى : " **وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)** " **(سورة الرعد)** ، " **يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) (سورة هود)** ، " **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ (5)** " **(سورة غافر)** ، "**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3)** " **(سورة الحج)** ، " **وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ (197)** " **(سورة البقرة)** ، " **قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا (32)** " **(سورة هود)** "،[(1)] وفي لسان العرب: "ان الجدل : شدَّة الفَتْل، وجَدَلْتُ الحَبْل أجدِلُه جَدْلاً إذا شددت فَتْله فتلاً محكماً......

والجدل: اللَّدَدُ في الخصومة والقدرة عليها: وقد جادله مجادله وجِدالاً ورجل جَدِل ومِجْدَل ومِجْدال: شديد الجَدَل ويقال: جَادَلْت الرجلَ فَجَدَلته جَدْلاً أي غلبته. ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخصام" .[(1)]

ويذهب الزمخشري في الكشاف كما يؤيده كثير من المفسرين إلى ان قوله تعالى: " **وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)** " **(سورة الكهف)**, أي "اكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحدا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل"،[(2)] وان "انتصاب (جدلا) على

(1) مفردات الراغب، مرجع سابق، ص 189-190.
(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 391.
(2) الكشاف، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 680.

التمييز، يعني: ان جدل الإنسان اكثر من جدل كل شيء ونحوه " **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(4) (سورة النحل)** .[3]

في حين غاير العلامة ابن عاشور رأي المفسرين في ذلك المعنى واعتبر بناءا على الحديث الذي رويناه في الموضوع ان " (جدلا) تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان، والمعنى: وكان الإنسان كثيرا من جهة الجدل أي كثير جدله ... ولا يحسن ان يحمل التفضيل في الآية على بابه بان الإنسان اكثر جدلا من الشياطين والجن مما يجوز على حقيقته الجدل لانه محمل لا يراد مثله في مثل هذا، ومن انبانا ان للشياطين والجن مقدرة على الجدل "[4]، وان "المراد هنا مطلق الجدل وخاصة ما كان منه بباطل، أي ان كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف باحقية معتقده أو عمله وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل" .[1]

ولا باس من اعتبار المعنيين على ان الإنسان هو اكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل، وان كنا لا نستطيع ان نجزم ما هي هذه الأشياء التي تجادل وتخاصم وتناور فهذا لا يعطينا الأحقية في إلغاءها، فكيف يمكن لنا ان ننكر ان الشياطين تجادل ؟ ولنا في قصة سجود إبليس لآدم خير مثال في المحاورة التي دارت بين إبليس والله سبحانه ، كما انه لا باس من القول بان معنى الآية شدة تمكن هذا الخُلق من الإنسان فهو كثيرٌ من جهة الجدل أي كثير جدله وهذا أيضاً واضح من حديث علي رضي الله عنه، وما ورود كلمة (شيء) إلا للتدليل على هذا المعنى أيضاً كما شرحها الطاهر بن عاشور " (اكثر شيء) اسم مفرد متوغل في العموم، ولذلك صحت إضافة اسم التفضيل إليه أي اكثر الأشياء، واسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة مثل قوله: "رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه" وإنما أتى بصيغته لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما ترك الجدال في شأنه احسن ، بحيث ان شدة الوصف فيه تشبه تفوقه في الوصف على كل من يعرض انه موصوف به"[2].

---

(3) المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 680.
(4) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر، ص 348.
(1) المرجع السابق، الجزء الخامس عشر، ص 349.
(2) المرجع السابق، الجزء الخامس عشر، ص 349.

ولقد أوضحت الإرادة الإلهية السامية هذه الطبيعة الإنسانية من شدة التوغل في المجادلة ، بقصد ان يتدارك الإنسان نفسه فيكبح جماحها ولذلك جاءت بداية الآية "ولقد صرّفنا في هذا القران من كل مثل" فينتبه ويستوعب هذه الأمثال القرآنية التي صُرِّفت إليه ليرتقي في علاقته مع الكون وما سخر له منه وما سخر هو لاجله من الاستخلاف والإعمار فيه ، فلا يتغافل عن هذا التصريف القرآني للأمثال التي تلفت نظره لسنن الحياة ومآل الوجود بإبراز قدراته في المخاصمة والمجادلة ، فطبائعه هذه في كثير من الأحيان ما تخونه ان أساء استخدامها ، والأولى له ان يوجهها الوجهة التي تحقق له النتائج المحمودة ، ففي قوله تعالى "ولقد صرّفنا" دليل على شدة الرعاية الإلهية لهذا الإنسان في محاولة لجذبه للاستفادة من هذه الطبائع المخزونة فيه على الوجه الصحيح ، ولذلك يشرح النيسابوري قوله "ولقد صرّفنا" " أي بينا احسن بيان لان من حاول بيان شيء فإنه يصرّف كلامه من نوع إلى نوع ، ومن مثال إلى مثال حتى ينتهي به إلى ما هو مراده من الإيضاح " ،[1] وموقع الآية من سورة الكهف يدلل على ذلك بما فيها من القصص الكثيرة وضروب الأمثال المتنوعة فقوله "من كل مثل" " من جملة ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقون بالقبول " ،[2] "ولقد رأينا في هذه السورة ، كم من مثل ضربه الله لينقل الإنسان إلى الحال الأعلى، ورأينا نموذجا في كل ما سبقه من السورة ، وإذا قرر الله في الآية خاصية هذا القرآن ، وطبيعة هذا الإنسان ، بين في الآيتين اللاحقتين انه جل جلاله ، ما ترك مانعا يمنع أحداً من الإيمان إلا هدمه ".[1]

كما نوه في الآيات السابقة من سورة الكهف إلى عصيان الشيطان أمر الله بالسجود لادم ونبه بعد ذلك على عدم اتخاذه وليا من دونه عز وجل، وتظافرت كل هذه الآيات في هذا المقام لمساندة الإنسان في التغلب على وساوس عدوه الذي يستغل قدرات الإنسان العقلية في الإبانة والإفصاح والمجادلة لينفث فيه غرورا عاما في تعاملاته الحياتية التي يحيا حتى يوصله

(1) تفسير الغرائب القرآن ورغائب الفرقان العلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات، المجلد الرابع، ص 353.
(2) تفسير أبى السعود، مرجع سابق، الجزء الخامس والسادس، ص 229.
(1) الأساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 3199.

إلى عنجهية تسود وتطغى على أصالة الخير في نفسه فيستكبر ويتحدى خالقه ذاته، من خلال العزف على أوتار مخزونة فيه من الطبائع والغرائز، يدعوه القران للتعرف عليها وتصريفها كما صرَّفت له الأمثال على احسن وجه لتلتقي هذه التصريفات في عملية بناء شاملة تسير بالإنسان نحو السلامة.

طبائع في خلقه النفسي: -

لقد آثرت تحت هذا العنوان ان أصنف معنيين اثنين وجدتهما قد التصقا التصاقا حميما بطبيعة الإنسان, لأنهما قد ذكرا في الآيات من باب ان الإنسان قد خلق بهذه الصفة أو منها، ففي سورة المعارج يقول تعالى : **" إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً (19) إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) (سورة المعارج)** ، وفي سورة الأنبياء قال تعالى في الآية السابعة والثلاثين: **" خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) " (سورة الأنبياء) .**

فالإنسان هلوع وهذا خُلُقٌ ملازم لخَلقهِ وهو كذلك عجول بطبيعة هذا الخَلق أيضاً, ومن هنا وجدت ان هذه الصفات أو هذا الخُلُق قد يكون له علاقة قوية بعملية خَلق النفس ، فإذا كان الإنسان قد خُلِقَ من قبضة الطين ونفخة الروح وما ينتج عنهما من تمازج في الصفات لتتشكل بعد ذلك نفسيته وطبيعته ، فان أساس وجوده ومصدر حياته وأنفاسه هو هذه النفس ، ومما لا شك فيه أنها مَخْلُوقة خَلقاً خاصاً تماماً كما تَشكَّل الإنسان ببشريته من الطين وتشكل أشكالا مختلفة حتى وصل إلى مراحله النهائية كما مر معنا في الفصل السابق، مما لا يمنع ان تكون النفس قد مرت مبدئيا بأطوار تشكلت خلالها طبيعتها و أخلاقُها - كما ترتبت العين والأذن وما إلى ذلك في الوجه ، كذلك ترتبت مجموعة الطبائع في النفس- وهذا الذي اثر في تقلباتها كما نعرف من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة ومنها إلى المطمئنة، ولا يجب علينا ان نستبعد مثل هذا الأمر ولكنه بضرورة الحال يحتاج منا إلى بحث طويل وتقصي دقيق ، كما أنه يجب ان لا نقف كثيراً على القول بان الآيات ذكرت ان الإنسان هو الذي خُلِقَ بهذه الشكلة فان النفس هي المقصودة بأنها خُلقت بهذه الطباع ، فقد مر معنا الإجابة على مثل هذا في الفصل السابق عند شرح آيات السجدة والمؤمنون فالاعتبار بالتدرج والأطوار التي مرت بها عملية

الخَلق حتى وصلت إلى نهايتها الإنسانية الكاملة كمـــا قال تعالى : **" وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) " (سورة السجدة)** ، فالبداية طينية لكن المشروع مشروع إنسان، ولا شك ان مثل هذا الخَلق راعى أيضاً خلق الطبائع والغرائز في النفس فهو خلق معنوي نفسي له طريقته وطبيعته الخاصة والتي تختلف جذريا عن الخلق الطيني المادي للإنسان.

ونلحظ الفارق عند تصنيف هذا الموضوع بناء على الفارق بين قوله "خُلق الإنسان" وقوله "وكان الإنسان" فتذييل الآيات بقوله على سبيل المثال لا الحصر "وكان الإنسان قتورا" ووصفه بأوصـــاف كقوله "فان الإنسان كفور" يختلف عن تحديد ماهية الخَلق كقوله **" إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً "** ، أو قوله **" خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ "**.

ولابن عاشور رأي في قوله تعالى **" خُلَقَ الإنسان "** " واعلم ان كلمة (خُلق الإنسان) إذا تعلق بها ما ليس من المواد مثل **" إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (2) " (سورة الإنسان)** ، بل كان من الأخلاق والغرائز قد يُعنى بها التنبيه على جبلة الإنسان،وأنها تسرع إلى الاعتلاق بمشاعره عند تصرفاته تعريضا بذلك لوجوب الحذر من غوائلها نحو **" خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) " (سورة الأنبياء)** ، **" إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) " (سورة المعارج)** ، وقد ترد للعذر والرفق نحو قوله **" يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28) (سورة النساء)** ، وقد ترد لبيان اصل ما فُطر عليه الإنسان ، وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله كما في قوله تعالى **" لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) " (سورة التين)** ، ففعل الخَلق

من كذا استعارة لكثرة الملابسة قال عروة بن اذينة:

ان التي زعمت فؤادك ملّها

خُلِقَتْ هواك كما خُلِقتَ هوىً لها

أراد ابطال ان يكون ملّها بحجة أنها خُلقت حبيبة له كما خُلق محبوبها, أي أن محبته إياها لا تنفك عنها ".[1]

وكذا رأي بعض المفكرين من ان الفرق بين "خلق الإنسان" وبين "كان الإنسان " انه في الأولى مجبول جَبْلاً بهذا الخُلُق وانه في الثانية قد اكتسب هذا المعنى أو الصفة اكتسابا, وأنني قد وجدت ان تعبيرات الآية عندما تأتي في مجال الخَلْق وكأنها تتحدث عن الينبوع الأصلي في النفس الإنسانية، وأنها عندما تصف الإنسان أو تعبر (بكان) فكأنها تتحدث عن الجداول والأنهار التي تتفرع من هذا الينبوع فهي نتيجة عنه ومظهر من مظاهر وجوده، تماما كما أورد الرازي في شرحه لهلع الإنسان فقال "واعلم ان الهلع لفظ واقع على أمرين: 1- الحالة النفسانية التي لاجلها يقدم الإنسان على الجزع والتضرع.

2- تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية. أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث لخَلْق الله تعالى ، لان من خُلِقَت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه ، ومن خُلِقَ شجاعا لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه ، بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها فهي أمور اختيارية ، أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخْلوقة على سبيل الاضطرار "[1] ، فهذه الحالة النفسانية أو الخَلْق النفساني هي ما اعتبرها الينبوع لكثير من الصفات المنبعثه كالجداول والأنهار في النفس الإنسانية ، وعلى هذا الأساس فضلتُ تقسيم الموضوع إلى قسمين ، الأول منها الإنسان الهلوع والثاني الإنسان العجول ، مع ما تضمنه موضوع الهلع من موقف الإنسان من العطاء والمنع ، وقد آثرت ان أعنون بالأصل واترك المواقف النابعة من هذا الأصل لتأتي في الشرح .

أـ الإنسان الهلوع:

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 169.
(1) التفسير الكبير للفخر الرازي، مرجع سابق، الجزء الثلاثون، ص 129.

قال تعالى في سورة المعارج محددا الطبيعة الإنسانية وما ينبع عنها وكيفية تدارك سالبها: " **إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً (19)إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)** " (**سورة المعارج**) ، والهلع الذي وصف فيه الإنسان جاء في اكثر التفاسير كما في لسان العرب على ما ذكره الزمخشري في كشافه بأنه "سرعة الجزع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير ، وعن احمد بن يحيى (وهو ثعلب) قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسيراً أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس"،[(1)] ولقد اعترض ابن عاشور على هذا التفسير بهذا الحديث واعتبر ان حديث احمد بن يحيى قد أوقف علماء اللغة والمفسرين عن ضبط كلمة هلع ، وهي لفظ كما قال "غامض من غوامض اللغة قد تسائل العلماء عنه حيث "سارت كلمة ثعلب مسيرا منع كثيرا من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع ، وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى لأنه إذا كان قول الله تعالى " **إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً** " ، تفسيرا لمدلول الجزوع ، تعين ان يكون مدلول الكلمة معنى مركبا من معنى الجملتين لتكون الجملتان تفسيرا له وظاهر ان المعنيين ليس بينهما تلازم ، وكثيرا من أئمة اللغة فسر الهلع بالجزع ، أو بشدة الجزع ، أو بافحش الجزع ، والجزع: اثر من اثار الهلع وليس عينه "،[(2)] "والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع ان الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراض ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه ، و أما الجزع فمن اثار الهلع ، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره ،

(1) الكشاف، المجلد الرابع، ص 614.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 167.

وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح ، وبعضهم بالجوع ، وبعضهم بالجبن عند اللقاء ، وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها ثار لصفة الهلع"،[1] "ومعنى (خلق هلوعا) : ان الهلع طبيعة كامنة أو مخلوقة فيه مع خلقه تظهر عند ابتداء شعوره بالمنافع والمضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعه البشرية".[2]

"والجزوع : ضد الصبور على الشر، والجزع يقتضي الصبر......، والجزع : قطعك واديا أو مغارة أو موضعا تقطعه عرضا ، وناحيتاه جزعاه ، وفي حديث الأضحية: فتفرق الناس إلى غنيمة فتجزعوها أي اقتسموها واصله من الجزع القطع ".[3]

أما منوعا فهو: "ان تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده ، وهو خلاف العطاء ، ويقال هو تحجير الشيء ...... ورجل منوع ومانع ومناع : ضنين ممسك "،[4] أي ان الإنسان قد "خلق هلوعا في حال كونه جزوعا إذا مسه الشر ومنوعا إذا مسه الخير"،[5] فهذه الآيات قد وضحت صورة الإنسان الأصلية عند خوائه من الإيمان وشرائعه وتشريعاته وموقفه مما حوله بحسب ما زرع فيه من حبي التملك والرغبة في الخلود ورفض الفناء فيجزع عندما يصيبه الشر خوف ان ينقص ذلك من عمره وخلوده ويمنع ان أصابه الخير رغبة في ان يحقق ملكا اعظم لا ينافسه فيه مالك، ولقد أوضحت آيات كثيرة تختص بكلمة الإنسان هذه الطبيعة الإنسانية بصور مختلفة وتعبيرات متباينة ولكنها في النهاية تصب في موقف الإنسان هذا من الشر والخير في حياته وكيفية مواجهته لهما ، أسردها ابتداءً ثم أتناولها بالشرح . يقول تعالى في سورة هود:

" وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) " (سورة هود) .

---

(1) المرجع السابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 167.
(2) المرجع السابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 168.
(3) لسان العرب، الجزء الأول، ص 420.
(4) لسان العرب، الجزء السادس، ص 98.
(5) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 165.

ويقول تعالى في سورة الإسراء في الآية الثالثة والثمانين : **" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً (83) " (سورة الاسراء) .**

وفي الآية المائة : **" قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً (100) " (سورة الاسراء) .**

وفي فصلت **: " لا يَسْأَمُ الإنسان مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49) (سورة فصلت) .**

ويقول تعالى **: " وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) " (سورة فصلت) .**

أما الآية الثامنة والأربعين من الشورى: **" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ (48) (سورة الشورى) .**

وتُوجِّت هذه الآيات كلها بموقف عنجهي صادر من هلع هذا الإنسان عندما يمتلك أو يتملك بقوله تعالى في العلق **" كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) " (سورة العلق) .**

فهذا الإنسان يريد أن يكون صاحب القول الفصل في جلب النعم ودفع المضار، ولا يريد لأي إرادة علوية أن تتدخل في مصائر الخير تجلبه أو تمنعه ، ولذلك ترى موقفه مضطرب متذبذب عندما لا يملك من شأنه خلوداً لنعمة أو هروباً من نقمة ، فهو في لحظة يكفر وفي أخرى يفتخر وفي ثالثة يعرض ويُقتّر ، ثم يعود أدراجه يدعو اعترافاً بالخالق تارة وطمعاً في رزقه تارات أُخر ، وهكذا تشرح الآية تلو الآية هذه المواقف الهلعة للإنسان والتي إما أن تنفلت لتنطلق بإرادة الإنسان نحو الفجور المطلق ، وإما أن تنضبط وتتحدد بحدود الصبر والعمل الصالح .

والإنسان في هذه الآية وما يليها من الآيات هو جنس الإنسان لا بعينه يثبت ذلك ويوضحه الإستثناءات التي تمر معنا في الآيات ففيها عرض لسلوك الإنسان النابع من طبيعة كامنة فيه قد تُهذب وتُنقب أو تتفرع وتتشعب حتى تتشابك وتتعقد . فقد جاءت آية هود هذه على سبيل المثال بعد وصفه لحال الكافرين أولاً بقوله **"... وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ**

لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (9) " (سورة هود) ، ففي هذه الآيات حدد الله سبحانه وتعالى أن القائلين هم الكفار ثم تعدى الحديث عن الكفار وعن البعث وتكذيبهم اياه كما تعدى حديث الكفار عن استعجال العذاب ليصف مواقف للإنسان بشكل عام تتوافق مع مواقف الكفار ، وكأن هذه المواقف قد تصل بالإنسان إلى الحد الأقصى من التمرد ، فهي تشكل انطلاقة للكافرين في اعتقاداتهم، اعني كأن جحود الإنسان أو يأسه بعد نزع النعمة وفرحه بعد حدوثها ، وإحساسه وطمعه في الخير الدائم اعتقاداً منه انه الأفضل والأعظم والأهم ، هذه المواقف النابعة من طبيعته الهلعة هي انطلاقة للكفر -إذا لم تُهذب- بمُحْدِث وخالق هذا الكون العظيم الجبار ، وهي ذاتها طبيعة قابلة للتهذيب بمقومات الدين وبمعطى الصبر خاصة في قوله تعالى : " **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ".

فهذين المعطيين على الأخص الصبر وعمل الصالحات يُخْرِجَان الإنسان من ضيق طبيعته الطينية إلى سعة العقل ووزن الأمور بتبعاتها ، وفي الآلوسي أن قوله تعالى : " **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** " الآية "استثناء من الإنسان وهو متصل أن كانت أل منه لاستغراق الجنس وهو الذي نقله الطبرسي مخالفاً لابن الخازن عن الفراء، ومنقطع أن كانت للعهد إشارة إلى الإنسان الكافر مطلقاً ". (1)

وفي الفخر الرازي: "أن لفظ الإنسان في هذه الآية فيه قولان:

1- أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه ، الأول: أنه تعالى استثنى منه قوله: " **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** " ، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر ، وذلك يدل على ما قلناه.

الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى : " **وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)** " **(سورة العصر)** ، وموافقة أيضاً لقوله تعالى : " **إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19)** " **(المعارج)**

(1) روح المعاني للالوسي، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 216.

.... الآيات .

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز ، قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور فإذا نزعت منك فيؤوس قنوط.

2- أن المراد منه الكافر ويدل عليه وجوه، الأول: أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع، وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة.

الثاني: أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لانه وصفه بكونه يؤوسا ، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى: " **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** " ووصفه أيضاً بأنه كفور ، وهو تصريح بالكفر ، ووصفه أيضاً عند وجدان الراحة يقول: " **ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي** " وذلك جراءة على الله تعالى ، ووصفه أيضاً بكونه فرحاً " **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** " ووصفه أيضاً بكونه فخور ، وذلك ليس من صفات أهل الدين.

ثم قال الناظرون لهذا القول: وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات ". [1]

وقد أجبنا على بعض هذه الاعتراضات ونجيب على بعضها الآخر بما قاله صاحب المنار مؤيداً، أن هذا الاستثناء في آية هود هو استثناء من جنس الإنسان فيما يذكر من حاليه في الآيتين من قبله ، يدلل على ذلك بذيل الآية في قوله تعالى: " **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** " ، " فان الإنسان ، وان كان مؤمناً باراً لا يسلم في الضراء والمصائب من ضيق صدر ، قد ينافي كمال الرضى أو يلابس بعض الوزر ، وفي حالة النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر وكل منهما يغفر له بصبره وشكره وإنابته إلى ربه "،[2] ثم انه يبين لماذا تكررت كل هذه الآيات في المعنى الواحد من موقف الإنسان هذا من العطاء والمنع بقوله: " تعلم أن هذه المعاني المكررة بالأساليب المختلفة البديعة ما أنزلت الا لهدايتك لما تُزكي به نفسك وتثقف طباعها وعاداتها الضارة ، والجامع للمراد هنا بأخصر عبارة وأبلغها سورة " **وَالْعَصْرِ**

(1) التفسير الكبير للرازي ، مرجع سابق ، الجزء السابع عشر ، ص190-191، الطبعة الأولى .
(2) تفسير المنار ، مرجع سابق ، الجزء الثاني عشر ، ص29.

(1) إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ (3) " (سورة العصر) " .[3]

ويؤيد هذا ما شرحه محمد جواد مغنيه في التفسير الكاشف وان كان قد ارتأى أن المقصود بالإنسان هو الكافر ولسنا نوافقه في ذلك "أن هذه الأوصاف ليست تحديداً لطبيعة الإنسان وماهيته ، و إنما هي تفسير لسلوكه في بعض مواقفه ، ويدلنا على ذلك أن كل صفة ذكرها القرآن مقرونة بحادثة من الحوادث ، فلقد وصف الإنسان باليأس إذا نزلت به نازلة ، وبالفرح والبطر إذا استغنى ، وبالجزع والهلع إذا مسه الضر ، ونحو ذلك، وقد خُفيت هذه الحقيقة على كثيرين ، وظنوا أن هذه الأوصاف وردت في القرآن تحديداً لحقيقة الإنسان وماهيته وأخذوا ينعتونه بها في غير المناسبات التي جاءت في كتاب الله ، ولو صدق ظنهم لما جاز أن يؤاخذ الله على الكفر والطغيان وكان قوله تعالى : **" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ "** تكريماً للكفر والظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً".[1]

كما أن آيات سورة المعارج لأشد تدليلاً وإفصاحاً وبياناً عن أن المقصود بالإنسان مطلق الإنسان ، فهي تُبين طبيعة كامنة فيه قد تكون خُلِقَت مع خَلقِه النفسي عند خلق النفس، ثم نرى كيف تَدْكُر عن طريق الاستثناء مجففات هذه الطبيعة فلا يرفد منها أي رافد من روافد الجزع والمنع ، والأجمل من هذا كله للمتأمل في هذه الآيات أن الاستثناء وان قام على استثناء المصلين فهو لم يعتبر أن كل مصلي قادر على ضبط هذه الطبيعة مما يؤكد على أن الإنسان المقصود هو الإنسان بإطلاقه وليس فقط الكافر ، فإن المصلين الموفقين في عملية التغيير هذه ، أو في عملية التجفيف لروافد الهلع لهم مواصفات خاصه تذكرها الآيات ونوردها على وجه الاجمال في قوله تعالى :

"الا المصلين :

1- " الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ "

---

(3) تفسير المنار ، مرجع سابق ، الجزء الثاني عشر ، ص29

(1) التفسير الكاشف، مرجع سابق، المجلد الرابع ، دار العلم للملايين ، ص 213.

2 - " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ "

3- " وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ "

4- " وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ "

5- " وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ "

6- " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ "

7- " وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ "

8- " وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ " (سورة المعارج) .

ونلحظ كيف أن صفات المصلين ابتدأت بالدوام على الصلاة وانتهت بالمحافظة عليها فهم في عناية دائمة ومستمرة بالصلاة, وما بينهما من الصفات لا يتحقق خارج إطار هذه العنايتين ، " فالدوام على الشيء عدم تركه ، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً فيه كما تقرر في أصول الفقه في مسألة إفادة الأمر التكرار" ،[1] فقوله " **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** " ، أي مواظبون على صلاتهم لا يتخلفون عن أدائها ولا يتركونها "،[2] وقوله في نهاية هذا الاستثناء وإيضاحاته " **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** " ، "ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها ، لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ ،مثل:عافاه الله وقاتله الله ، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها. وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به ، وبذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة " **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** " بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين" .[3]

ولا دليل أبلغ من هذا ، فإن الإنسان بخَلْقِهِ في صور معينة أرادها الخالق قادر على أن يُرَوِّض نفسه لتتهذب إن وضعها في الإطار الذي أراده الخالق باتباع نظامه والسير على هداه ، ولذلك فإن كانت آية هود وسورة العصر ذكرت الصبر كمعطى لتحقيق عملية الضبط

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 171.
(2) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 171.
(3) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص 174.

والترويض ، فإن آيات المعارج قد بينت للإنسان على أي شيء سيصبر بثماني بنود تتحقق في المصلي من الناس ، أن واظب عليها استقرت نفسه وملك زمامها.

ويهمني هنا أن اذكر ما شرحه ابن عاشور عن وجود الشيء وضده في هذا الإنسان وقدرته على تغليب جانب على آخرعندما عَلّق على آيات المعارج من انه "ليس في اتصاف

صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها, وقد تكون للشيء الحالة وضدها باختلاف الأزمان والدواعي ، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حال مع تحقيق تمكن ضدها من المنهي لان عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائض وإزالتها عنه ، وإذ ذكر الله الهلع هنا عقب مذمة الجمع والإيعاء ، فقد أشعر بان الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب ، فيكون في قوله **"خلق هلوعا"** كناية بالخَلْقِ عن تمكن ذلك الخُلُق منه وغلبته على نفسه.

والمعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع. بيان ذلك أن تركيب المدراك البشرية رُكِزَ بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف, وساعية إلى الملائم ومعرضة عن المنافر، وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المقدرة البدنية التي أعطها النوع والتي أعطها أفراد النوع ، كل ذلك ليصلح الإنسان لاعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه ليصلحه إصلاحاً يشمله ويشمل من معه في هذا العالم إعداداً لصلاحيته لاعمار عالم الخلود ، ثم جعل له إدراكاً يميز الفرق بين آثار الموجودات وآثار أفعالها ، بين النافع فيها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضر ، وخلق فيه الهاماً يحب النافع ويكره الضار ، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضار فيبتغي ما يظنه نافعاً غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل ، أو شاعراً بذلك ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجح عنده تناوله الآن لعدم صبره على تركهُ مقدرًّاً معاذيرَ أو حِيَلاً يقتحم بها ما فيه من ضر آجل .

وان اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنه ضر الضار ونفع النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، وقد لا تستر عنه ذلك ولكنها تحدث فيه إيثاراً لاتباع

الضار لملائمة فيه ولو في وقت أو عند عارض, إعراضاً عن اتباع النافع لكلفة في فعله أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتمال تركيب قواه الباعثة والصارفة والآتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها، فحدثت من هذا التركيب البديع صلاحية للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهد الإنسان وصلاحية لإفساد ذلك وبعثرته.

غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمه أن هو أحسن استعمالها تحلت صفاته, وثقفت من قناته, ولم يُخلِهِ من دعاة الخير يصفون له كيف يريض جامح نفسه ، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه ، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء .

فإذا أخبر عن الإنسان بشدة تلبسه ببعض النقائص وجعل ذلك في قالب انه جبل عليه, فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه, لانه فرَّط في إراضة نفسه على ما فيها من جبلة الخير،وأرخى لها العنان إلى غاية الشر ،وفرَّط في نصائح الشرائع والحكماء ".(1)

وما يستفيض به علماؤنا المفسرون هنا من قدرات الإنسان التغييرية يذكره ويؤيده

ما يذهب إليه علماء النفس الغربيين المحدثين, فإن مكدوجال يرى: "أن الإنسان قادر على تعديل غرائزه بسب قدرته على التعلم وما يتمتع به من ذكاء وقدرة على الفهم، ويكون التعديل قوياً في مظهرين فقط من المظاهر الثلاثة للغريزة وهما المظهر الادراكي والمظهر النزوعي ، فالجانب الادراكي الذي يتعلق بالمثير الخارجي والجانب النزوعي الذي يتعلق بالسلوك والفعل ، يمكن أن يتغيروا مع نمو الإنسان وتعلمه وخبراته وقدرته على الفهم ، أما الجانب الوجداني ، وهو جانب ذاتي غير إرادي فيصعب التحكم فيه وتغييره .

ويمكن التمثيل للتعديل في الجانب الادراكي بطفل المدينة وطفل الريف فالأول إذا رأى جاموسة أو بقرة خاف وجرى لأنها حيوان ضخم يثير لديه غريزة الخوف. أما منظر الجاموسة في الريف مألوف لدى الأطفال لا يثير لديهم الفزع .

وأصوات المدافع والقنابل تثير الفزع والخوف في نفس المُجنَّد الحديث ثم لا يلبث حتى يعتاد عليها.. وهكذا يمكن أن يتغير المثير من حيث نوعية إدراكه". (2)

---

(1) التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرين، ص 169.
(2) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، د. نبيل محمد توفيق السمالوطي، دار الشروق، الطبعة الثانية، 1984، ص96.

وبنفس الطريقة يعمل معطى الصبر والعمل الصالح فإن الإنسان بالمثيرات الخارجية من أمثال تحقق النعمة أو نزعها أو نزول البلاء أو دفعه يعتاد بمعطى الصبر والعمل الصالح على أمثال هذه المثيرات الخارجية حتى تصبح عنده كما هي أصوات المدافع والقنابل في نفس المُجنَّد ، فلا يجزع لما تثيره من ضجيج في حياته ولا يمنع ويبخل أن تبدلت الأحوال وتبدلت أصوات المدافع بأصوات أغاريد الطيور فيحبس ألحانها عن أسماع من سواه كما يحبس ماله عن العطاء "وإذا ما انتقلنا إلى التغيير في الجانب النزوعي للغريزة نجده اكثر اتساعاً فغريزة السيطرة يمكن أن تتحول من السيطرة على الإنسان إلى السيطرة على الطبيعة ، وغريزة حب الاستطلاع تحول جانبها النزوعي من التجسس على أخبار الناس إلى التضطلع إلى معرفة أسرار الطبيعة والكون المادي بالبحث العلمي ، ويتحول الغضب للذات إلى الغضب للحق أو الغضب لله ، والنزوع للقتال دفاعاً عن النفس فقط إلى النزوع للدفاع عن الحق وانتشار كلمة الله وسيادة الإسلام". (1)

كما أن "هناك أسلوبان لتعديل الغرائز هما الإبدال والإعلاء ويقصد بالإبدال توجيه الطاقة الغريزية إلى مجالات تختلف عن المجال الطبيعي الذي يُرضي الغريزة ، أو استنفاد طاقتها بممارسة أنشطة بعيدة عن مجالها الأصلي، كما هو الحال عندما يوجه الشباب إلى ممارسة الرياضة البدنية والأنشطة الاجتماعية وهوايات معينة لاستنفاد الطاقة الجنسية والحيلولة دون ممارستها في مجالات انحرافيه ، ولقد أشار رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفكرة عندما نصح معشر الشباب بالزواج (من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجَّاء) ، ويقصد بالإعلاء السمو بالدوافع الغريزية وممارستها بشكل مشروع يرضى عنه المجتمع ويقره، كما عليه ممارسة النشاط الجنسي وممارسة غريزة القتال بالقتال في سبيل الدين.."(2)

ولكن الإنسان لا يريد أن يعيش في رحاب الطاقة التي أُعطى فيشتغل على نفسه بالتغيير والترويض ودفع الضار من مواقفه بالنافع منها حتى تعتاد نفسه على الانضباط والإنصات لسبل الهداية المُنَزَلة إليه قرآن يتلى، وتراه أبداً يزج بنفسه في ضيق الفجور،ظناً

(1) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، مرجع سابق، ص 96.
(2) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، مرجع سابق، ص 97.

منه أن في ذلك حريات هو مستحق لها ، ولا يدرك سنن الحياة ، وقوانين الكون فتتبعثر مشاعره بين تلك السنن الواقعة به وبمن حوله لا محاله ، وبين معاندته على الباطل في طريقة فهمها وتناوله إياها ، فيبقى أبداً متذبذب لا يستقر به قرار، ولعل أكبر مثال على هذا التذبذب وهذا الرفض لسنن الخلق في الحياة مواقفه من العطاء الإلهي أو المنع فهو في آيات هود حسبما تذكر الآية " **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10)إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(11)"(سورة هود)** ، فهو في هذه الآيات ليهلع هلعاً شديداً ويجن جنونه عندما تُنْزَع الرحمة منه ، فهذا السلب للرحمة لا يشكل طامة قد أحلت به بل أكثر من ذلك فهو وَقفٌ لحريته من التمتع المطلق بالنعم والخيرات وفي هذا مس بالكرامة والعنفوان ، لذلك تراه يؤوس كفور كاره للحقيقة مريد طمسها ، فهو لا يريد أن يعيش ضمن إرادة عليا تتحكم بمشاعره وتبتليه وما أدل على ذلك الا حالته في الآية التي تليها عندما يذاق النعمة بعد الضراء فهو يعبر بصريح القول عن مكنون نفسه بقوله: " ذهب السيئات عني " فارحاً فخوراً لذهاب حال الابتلاء الذي يرفضه ، والذي يُرْهِقُ عنفوانه وكبريائه ، ويوقف إحساسه بالحرية المطلقة من القيود والحدود فهو لا يحمد الله ويشكره على إزالة البلاء بل يبتهج وينتعش.

وفي ذات الإطار تأتي آية سورة الإسراء ، يقول تعالى: " **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً (83) " (سورة الإسراء)** ، أما الأعراض والنأى بالجانب فجاء في مقابل النعمة في تعبير مغاير لرفض هذا الإنسان أن تهيمن عليه إرادة أخرى ، فهو يريد رغد العيش دون تدخلات ودون الحاجات الخضوع للخالق ، لذلك عندما تتم النعمة يسارع في الإعراض ومُجَافَاة المنعم ، تماماً كما في هود عندما تذهب السيئات بمعنى أن النعمة قد هل هلالها فيطرب لقدومها بالفرح والفخر على من سواه لانه استعاد نشاطه الاجتماعي في التميز على غيره والتعالي بما أُسْبِغ عليه .

"والفُخْرُ والفَخار والفَخارةُ والفِخيِّريَ والفخيِّراء : التمدُّح بالخصال والإفتخار ، .. وتفاخر القوم : فخــر بعضهم على بعض ، والتفاخُرُ: التعاظم ، والتَّفَخُّر: التعظيم والتكبر وقوله تعالى : " **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** " ": الفخور: المتكبر " .(1)

وفي حالة مساس الشر ييأس كما في الإسراء، وييأس ويكفر كما في هود إذا ما تم نزع الرحمة منه ، وفرق ما بين النزع والمس ولذلك أيضاً كان هنالك فرق في التذييل ، فـ"نزع الشيء من مكانه قلعه"(2) ، "وفَرَّق سيبويه بين نَزَعَ وانْتَزَع ، فقال : انْتَزَعَ اسْتَلَبَ ، ونزَع: حول الشيء عن موضعه وان كان على نحو الإستلاب ، وانْتَزَعَ الرمح : اقْتَلَعَه ثم حَمَل ، وانتزعَ الشيء : انقلع ، ونزعَ الأمير العامل عن عمله : أزاله ، وهو على المثل لانه إذا أزاله فقد اقتلعَه وأزاله ، وقولهم فلان في النزْع أي في

قلْع الحياة " .(3)

ولابد من ملاحظة قوله تعالى "منه" في قوله "ثم نزعناها منه" فإنها "صلة النزع ، والتعبير به للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها " ،(4) ولذلك كان التذييل بعد نزعه النعمة أن الإنسان يأس وكفر فقد أحس بحسب سذاجة تفكيره انه مرهون بإرادة عليا تبتغي النيل منه، غير أن الأمر يختلف تماماً بحسب قوانين الابتلاء في الحياة بالنسبة لخالقها وواضعها. ونرى كيف تفاوتت ردود فعل الإنسان بحسب قوة الابتلاء فهو أما رد فعل صارخ بعد عملية النزع باليأس والكفر وأما يأساً منفرداً كما في الإسراء في قوله " **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسا** " .

كما وقد "دل قوله (كان يؤوسا) على قوة يأسه إذ صيغ له مثال المبالغة وأقحم معه فعل "كان" الدال على رسوخ الفعل ، تعجيباً من حاله في وقت مس الضر إياه لأن حالة الضر ادعى إلى الفكرة في وسائل دفعه بخلاف الإعراض في وقت النعمة فإنها حالة لا يستغرب فيها الزهو لما هو فيه" ،(5) ومع ذلك فنحن نرى أن ردود فعل الإنسان تجاه مسألة النعم وعملية العطاء غريبة شيئاً ما ، تجد ذلك واضحاً أيضاً في قوله تعالى في آية الإسراء عند لحظة

(1) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص 99.
(2) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنيه، المجلد الرابع ، دار العلم للملايين، بيروت، ص 212.
(3) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء السادس، ص 169.
(4) روح المعاني للالوسي، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 216.
(5) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر، ص 192.

الإنعـام: " **وَإِذَا أَنْعَمْنَـا عَلَـى الإِنْـسَانِ أَعْرَضَ وَنَـأَى بِجَانِبِـهِ** " والإعـراض والنـأي بالجانـب مختلفين في المعنى، فهما موقفان متباينـان، يظهران هذا الرفض الإنساني للخضوع لله حتـى في لحظة النعمة: "والأعراض: الصد ، وضد الإقبال " **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ** " النسـاء ، " **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَـا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ** " الإنعـام ، والنـأي : البعد "ينـأون عنـه" الانعام ، والجانب: الجنب ، وهو الجهـة من الجسد التـي فيهـا اليد وهو جانبـان ، يمين ويسار والباء في قوله: "بجانبه" للمصاحبة ، أي بَعُدَ مصاحباً لجانبه أي مُبْعِداً جانبه ، والبعد بالجانـب تمثيل الإجفال من الشيء فالمفاد من قوله: "ونأى بجانبه" صد عن العبادة والشكر ، وهذا غير المفاد من معنى "اعرض" فليس تأكيداً له ، فالمعنى: اعرض وتباعد " [1].

ولابد للدارس والمتأمل من ملاحظة هذا الفرق في موقف الإنسان بحسب آيـاتي هود والإسراء من خلال ملاحظة التعبيرات القرآنية الدقيقة ، ففي هود مثلاً كان قوله تعالى في التعبير عن إسباغ النعمة بالإذاقة وعن سلبها بـالنزع والآيـة الحادية عشر بإذاقة النعمة بعد ضراء مسته ، أما في الإسراء فكان التعبير بالإنعام بالنسبة لإسباغ النعم وبالمس بالنسبة للشر ، وكيف أن الإنسان في هود عند النزع يؤوس وكفور وعند الجلب للخير فرح فخور ، وفي الإسراء عند الخير معرض مجافي وعند الشر يؤوس ، وهذا الفرق في البيـان ولاشك مرتبط بالآية في سياقها ، وفي تعرية مواقف الإنسان بالنسبة للإبتلاء وبحسب نوعية هذا الابتلاء ودرجة قوته ، ففي هود كانت ردة الفعل قوية لان الموقف في سياق الآيـة يعبر عن هلع الإنسان عندما يخرج من حالة إلى حالة ، وفي الإسراء عبر عن هذا بطريقة مختلفة لان رسم الصورة اختلفت فلم تنزع الرحمة ولم تأتي بعد ضر قد حل به .

ومما يَحْسنُ ذكره هنا ما ورد في تفسير الآلوسي لآية الإسراء هذه أن: "في إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضميره تعالى إيذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك لان ذلك هو الذي يقتضيه الكرم المطلق والرحمة الواسعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك " .[2]

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر، ص 192.
(2) روح المعاني، المجلد الثامن، ص 141.

وفي ذات المعنى يقول الآلوسي في آية هود مفسراً: " ان في إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مس الضر بل هو مقصود بالعرض "،[1] "وإنما لم يؤت ببيان تحول النعمة إلى الشدة وبيان العكس على طرز واحد بل خولف التعبير فيهما حيث بديء في الأول بإعطاء النعمة وإيصال الرحمة ولم يبدأ في الثاني بإيصال الضر على نمطه تنبيهاً على سبق الرحمة على الغضب واعتناءً بشأنها ، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه ، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في ادنى ما يطلق

عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ولعله يقوى عظم شأن الرحمة" .[2]

كما أن " لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم ، فكان المراد ان الإنسان

بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان وبإدراك اقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران".[3]

وفي إيراد كلمة النعماء في التعبير القرآني إضافة إلى هذا الإعجاز البياني في هذا الوصف الدقيق لطبيعة الإنسان وطبيعة سنن الحياة من حوله فقد قال الرازي في تفسير آية هود، "وأما النعماء فقال الواحدي : أنها إنعام يظهر أثره على صاحبه ، والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها، لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء والمضرة والضراء" .[4]

ومن كل هذا يتبين للمتأمل في هذه الآيات ردة الفعل العنيفة التي يتمتع بها الإنسان تجاه الأحداث الإيجابية والسلبية في حياته فإذا كان بمجرد إذاقة الإنسان لذة الطعم الحلو للرحمة دون الشبع منها ثم نزعها منه ييئس ويكفر ، وبمجرد إذاقة النعماء مما يعني من خلال تفسيرنا للكلمات انه بالكاد تذوق النعماء وبدأ ظهور أثرها عليه بعد مضرة قد مسته مساس، يفرح ويفخر ويستعرض قواه وفتوته.

(1) روح المعاني، المجلد السادس، ص 216.
(2) روح المعاني، المجلد السادس، ص 216.
(3) التفسير الكبير للرازي، الجزء السابع عشر، الطبعة الأولى، ص 191.
(4) التفسير الكبير للرازي، الجزء السابع عشر، الطبعة الأولى، ص 191.

وكذا في الإسراء بدرجة أقل فهو عند إنعام النعمة بقدرها الطبيعي دون هذا التحول من حال إلى حال كما هو حاصل في آية هود يعرض وينأى بجانبه ، وعند مساس أدنى درجات الشر الذي هو ليس مقصوداً بذاته ، وانما لحكم تسير بها الحياة وقوانينها ييئس.

يتضح بعد هذا كله ثبات هذا الهلع الإنساني في خِلْقَةِ هذا الإنسان وان كان بدرجات متفاوتة ، احسب ان آياتي هود والإسراء قد بينته فهو شديد في الأولى أخف وطأة في الثانية.

ويتواصل هذا البيان في الآيات الأخر كما في الآية المائة من سورة الإسراء في قوله تعالى: **" قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (100) " (سورة الإسراء)** ، ونلمس كيف ان التعبير القرآني عن طبيعة الإنسان المانعة كتعبيره عن هلعه عند امتلاكه الرزق جاء في إطار تمثيل امتلاكه لخزائن الرحمة ، فنرى كيف تُشَدد الآيات على كلمة رحمة عندما تتحدث عن الرزق فهو وكل النعم رحمة مجزاه للإنسان مما يؤكد كما قلنا سابقاً على ارادة الرحمة بالإنسان لا الضر ، وهذا مما يستوجب على الإنسان الشكر والخضوع إدراكا لسنة الله فيه ، كما نلحظ ان الرحمة أضيفت إلى كلمة ربي ففي هذا زيادة عناية بهذه الرحمة.

وقد جاءت هذه الآية في سياقها كاعتراض ناشئ عن عدم تصديق المشركين بالرسول ومحاولة إعجازه بالطلبات كأن تكون له جنة في الأرض أو بيت من زخرف وما إلى ذلك من الآيات السابقة فرد الله عليهم: "ان هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء ان يظهره لهم، وأدمج في هذا الرد بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير، وأدمج في ذلك أيضاً تذكيرهم بان الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها، ويصلح لان يكون هذا خطاباً للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم كلٌ على قدر ما يصيبه".(1)

كما تُبين دخول (لو) في الآية على الاسم تأكيد وتخصيص الإنسان بهذا الشح المتناهي فـ "شأن (لو) أن يليها الفعل ماضياً في الأكثر أو مضارعاً في اعتبارات فهي مختصة بالدخول على الأفعال فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصد بليغ

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر، ص 223.

: إما لقصد التّقوي والتأكيد للإشعار بان ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقويه ، مثل قوله "وان أحد من المشركين استجارك" ، وأما للانتقال من التّقوي إلى الاختصاص، بناء على انه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لقصد طريق غير مطروق ، وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ ومنه قول عمر لأبى عبيدة "لو غيرك قالها" ، والمعنى: لو أنتم اختصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئاً، وذلك اشد في التقريع وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم " .[1]

وجاءت (أنتم) أيضاً "مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني، وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص".[2]

و(**خَشْيَةَ الإنْفَاق**) أي " مخافة النفاد بالإنفاق, إذ ليس في الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره فإنما يؤثر لعوض يفوقه، فإذن هو بخيل بالإضافة إلى جود الله سبحانه"،[3] و(**كَانَ الإنْسَانُ قَتُوراً**) ، "مبالغاً في البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض بما يبذله" ،[4] وفي لسان العرب ان الإقتار "التضييق على الإنسان في الرزق.. وقَتَرَ على عياله: يَقْتُرُ ويَقْتِرُ قَتْراً وقُتُوراً أي ضيق عليهم في النفقة" .[5]

وقد شرحها الراغب الأصفهاني في مفرداته بقوله: "القَتْرُ: تقْليلُ النَّفَقة، وهو بإزاءِ الإسْرافِ ، وكلاَهُمَا مذْمُومانِ ، قال تعالى : " **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67)** " **(سورة الفرقان)** ، ورجُلٌ قَتُورٌ ومُقْتِرٌ، وقوله: " **وَكَانَ الإنْسَانُ قَتُوراً (100)** " **(سورة الإسراء)** ، تنبيهٌ عَلَىَ مَا جُبِل عليهِ الإنْسَانُ من البُخْلِ ، كقوله: " **وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ (128)** " **(سورة النساء)** ، وقد قَتَرْتُ الشيءَ وأَقْتَرْتَهَ وقَتَّرْتُه، أي : قَلَلْتُهُ . ومُقْتِرٌ : فقِيرٌ ، قال : " **وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ (236)** " **(سورة البقرة)** ، وأصلُ ذلك القُتارَ

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر، ص 223.
(2) تفسير أبى السعود، الجزء الخامس عشر، ص 198.
(3) تفسير أبى السعود، الجزء الخامس والسادس، ص 198.
(4) تفسير أبي السعود، الجزء الخامس والسادس، ص 198.
(5) لسان العرب، الجزء الخامس، ص 197.

والقَتَر، وهو الدُّخانُ الساطِعُ من الشِّواءِ والعُود ونحوهَما، فكأنّ المُقتِرَ والمُقتِّر يَتَنَاوَلُ مِنَ الشيءُ قتَارهُ ". [1]

فالإنسان يريد من الله أن يرسل إليه الآيات تلو الآيات حتى يستجيب لنداءاته كما جاءت الآيات في سياقها فالمشركون يريدون أشياء يعطيها الله للرسول كبيتٍ من زخرف وهكذا حتى يؤمنوا كما يدَّعون ، وهكذا الإنسان فهو دائماً في سؤال دائم للعطاء سواء كان هذا العطاء مادياً أو معنوياً ينبثق عنه إيماناً في القلب ، أو تتحقق به ثروة في المال والولد ، ولكن هذا الإنسان عندما يحين له الوقت ليعطي مادياً أو معنويا أيضاً فانه يمسك لانه يخشى ان تنتقص ثروته المالية أو مكانته الاجتماعية عندما يعطي أو يتنازل عن قناعاته الخاطئة وأفكاره بتحويل هذه القناعات الفكرية وهو بذلك يجعل من ذاته مركزاً تدور حولها أفكاره عن الأشياء ولا يستجيب لسنن الحياة الا بحسبها ، وهذا ما تدلل عليه أيضاً آيات فصلت في قوله تعالى : " **لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) " (سورة فصلت) .**

فإن هذا الآيات وما قبلها في هذا الموضوع وما هو آت منها بعد لتبين هذا العمه والتخبط الذي يعيشه الإنسان في مواقفه من الإرادة العليا في منحه ومنعه فهو يريد ان يملك كل شيء ولكنه يقتر ويقتر على الناس لو ملك خزائن رحمة الخالق وهي كل شيء ، ومع كل هذه المواقف النابعة من ضلالة فكره في التعرف على خالقه حق التعرف والإنصات لضمير الفطرة فيه خير الإنصات لا يخجل من العودة إليه يدعوه ويستغيثه بإمدادات الخير في آيات فصلت ثم بالتبجج عليه والقنوط منه عز وجل في ذات الآية، والعجب العجاب ما تعرضه الآية الواحدة والخمسين من تذبذبه في أحضان الضلال الذاتي الذي يعيشه عندما يلجأ ويدعو ويبكي ويرجو بأدعيه عريضة متسعة لكل افاقه النفسية من الرجاء والإلحاح برفع الضر والبلاء والإتيان بالخير والنعماء.

---

(1) مفردات الراغب، ص 655.

فهذا الإنسان هـو جنـس الإنسـان المؤمـن والكافـر، يدلـل علـى ذلك هذا اللجـوء ، فـالمؤمن يلجـأ ويـدعو لحظـة السراء والـضراء مـع التغـاير فـي نيـة العـودة وسـبب اللجـوء ، فالإنسان وهذه طبيعته لا يسأم ولا يمل ولا يكل من تتبع أسباب الخير كلها وان كانت هنالك أسباب تجلب الخير والزرق ، فلعل السبب الأول المانح لها هو ذا الخالق الكريم.

والسآمة كما في لسان العرب "الملل والضجر" ،[1] وفي التحرير والتنوير يشرحها ابن عاشـور بقولـه (فأمـا الإنسان لا يسأم من دعـاء الخيـر) ، فمعنـاه: انـه لا يكتفـي ، فأُطلق علـى الإكتفاء والامتنـاع السآمة ، وهي الملل على وجه الاستعارة بتشبيه استرسال الإنسان فـي طلـب الخير على الدوام بالعمل الدائم الذي شأنه ان يسأم منه عامله ، ففي السآمة عنه رمز للاستعارة ، وفي الحديث: "لو أن لابن آدم واديين من ذهب لأحب لهما ثالثاً ، ولو أن له ثلاثة لأحب لهمـا رابعاً، ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب".[2]

" والدعاء : أصله الطلب بالقول ، وهو هنا مجاز في الطلـب مطلقاً فتكون إضافته

إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول ، أي الدعاء بالخير أو طلب الخير ، ويجوز ان يكون الدعاء استعارة مكنية ، شبه الخير بعاقل يسأله الإنسان ان يُقْبَل عليه ، فإضافة الدعاء من إضافة المصدر إلى مفعوله".[1]

وعلى كل الأحوال فان آيات فصلت قد بينت حالة من حالات الإنسان عند سنن الابتلاء وهي حال الدعاء ، فبالنسبة للخير فهو طالب له على الدوام ، أمـا بالنسبة للشر فهو داعـي الله لان يكشفه عنه دعاءً عريضاً متسعاً كل احتمـالات الخضوع والذلـة ، ولعل ممـا يثيـر الدهشة هنا ان في الآية (49) كان موقف الإنسان عند مساس الشر يأساً وقنوطاً وخولف ذلك في الآيـة (51) حيث انه انصرف معترفاً للخالق بعظمته وسطوته على حياته بأدعيته العريضة ، كمـا نرى ان هنالك فرقاً في التعبير ففي الأول قال "وان مسه" ويقول صاحب التحرير عن هذا ان "اقتران شرط مس الشر بـ "ان" التي من شأنها ان تدخل على النادر وقوعه ، فإن اصابة الشر

(1) لسان العرب، الجزء الثالث، ص 227.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 11.
(1) التحرير والتنوير ،الجزء الخامس والعشرون ، ص11 .

للإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم" ،[2] وإذا ما لاحظنا ان التعبير في الآية الواحدة والخمسين قد جاء مختلفاً فقد استخدم تعالى "إذا" في قوله " **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** " وكأن إذا هنا تعبير عن حالة فجائية ، قد تقع بالإنسان ، فردة الفعل في ظل هذه الفجاءة هي العودة المنفعلة المعترفة بالخالق وإرادته العليا وقدرته بما تمليه عليه اعترافات الفطرة المغمورة في الأعماق.

ولعل هذا الفارق في مواقف الإنسان من الشر فهو تارة يؤوس قنوط وأخرى عائد إليه خاضع لجبروته ، يعود أيضاً إلى تفاوتات في النظرة الإنسانية الإيجابية، فإن الذي قد استقر به الكفر واستبد في كيانه حُبُّ الملك وطغى عليه ، يدعو الله عند إرادته جلب النعم ، أو لعله يطلب هذه النعم من خلال أسبابها المادية الحاصلة بظنه نتيجة كده وكدحه في الحياة ، ولكنه عند بروز الشرور والفقدان في حياته فهو يؤوس قنوط ، أما من لا زال فيه بعض ماء الوجه والاعتراف القلبي المستور بالخالق، فهو وان اعرض ونأ لحظة الانعام متناسياً ربه يهب لحظة مساس الشر لِيَذْكُرَهُ ويتملق إليه أو لا يتملق بأدعية عريضة تكشف مكنون فطرته.

فالإنسان لحظة الضيق أقدر أحياناً على الاعتراف بخالقه والعودة إليه، أما من اشتد به الكفر واستبد به الطمع فانه يمكن رؤية انهزامه النفسي أمام انقطاع أسباب الرفاه عنه ، فييئس ويقنط .

"واليأس: فِعْلٌ قلبي هو: اعتقاد عدم حصول الميؤوس منه، والقنوط: انفعال بدني من أثر اليأس، وهو انكسارٌ وتضاؤل ، ولم يذكر هنا انه ذو دعاء عريض لله كما ذكر في قوله الآتي: " **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** " لان المقصود أهل الشرك ، وهم إنما ينصرفون إلى أصنامهم" ،[1] وأصنامهم هي كل سبب دون الله يظنون به نفعاً أو شراً سواء كان صنماً حجراً أو شركة عملاقة ، أو عقاراً يُخَلِصُ به نفسه من وباء الفقر ، "وهذا التفنن في وصف أحوال الإنسان مع ربه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله "وإذا انعمنا.." من بعض التكرير

(2) التحرير والتنوير ،الجزء الخامس والعشرون ، ص10 .
(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 10.

لما ذكر في الضرب المتقدم لزيادة تقريره ، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه مع اتحادهما في مثار الجبلة الإنسانية وباعتبار ما قدره الله للإنسان".(1)

" وحين بين ان الكافر تبدله في حالاته كلي أو اكثري، ففي حالة الإقبال لا يسأم من طلب الجاه والمال وفي حالة الإدبار يصير في غاية اليأس والإنكسار ، وان عادوته النعمة بعد يأسه فلابد ان يقول هذا إنما وجدته باستحقاق لي وهذا لا يزول عني ويبقي لي وعلى عقبي وانكر البعث ، وعلى فرض وجوده زعم بل جزم ان له عند الله الحالة الحسنى قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ، ونظير الآية ما سبق في سورة الكهف **" وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (36) " (سورة الكهف)** ، فلا جرم خيب الله أمله وعكس ما تصوره بقوله "فلننبئن" .(2)

"على أن المسلم قد يخامره بعض هذا الخُلقُ وترتسم فيه شيات منه ولكن إيمانه يصرفه عنه انصرافاً بقدر قوة إيمانه ، ومعلوم انه لا يبلغ به إلى الحد الذي يقول : "وما أظن الساعة قائمة" ولكنه قد تجري أعمال بعض المسلمين على صورة أعمال من لا يظن أن الساعة قائمة ، مثل أولئك الذين يأتون السيئات ثم يقولون أن الله غفور رحيم ، والله غني عن عذابنا ، وإذ ذكر لهم الجزاء قالوا ما ثم الا الخير ونحو ذلك فجعل الله في هذه

الآية مذمة المشركين وموعظة للمؤمنين ، كمداً للأوليين وانتشالاً للآخرين"(1).

ان هذه الآيات وحدها كفيلة لئِن ترسم أرجوحة الكفر والجحود تلك التي يركبها الإنسان فيتطاول مرة ويخنع وينافق مرات بحسب الحاجة وضرورتها واثر ذلك على استلاب صفاءه واستقرار إيمانه، فثمن الإيمان في ضميره يقاس في كثير من الأحيان بحسب العرض والطلب ولهذا جاءت آية الشورى تنويهاً للنبي بأن لا يحزن من اعراضهم **" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) " (سورة الشورى)** ، فجملة "وانا إذا

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 14.
(2) غرائب القرآن للنيسابوري، المجلد السادس، ص 93.
(1) التحرير ، الخامس والعشرون ، ص12-13.

أذقنا الإنسان" تتصل بقوله "فان اعرضوا" "لما تضمنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما لاقاه من قومه" .[2]

"فالمعنى: لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر، فالجملة معطوفة على جملة "فإن أعرضوا" وابتداء الكلام بضمير الجلالة المنفصل مسنداً إليه فعل دون أن يقال: وإذا أذقنا الإنسان الخ، مع أن المقصود وصف هذا الإنسان بالبطر بالنعمة وبالكفر عن الشدة، لان المقصود من موقع هذه الجملة هنا تسلية الرسول عن جفاء قومه وإعراضهم ، فالمعنى: أن معاملتهم ربهم هذه المعاملة تسليك عن معاملتهم اياك على نحو قوله تعالى: "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك" ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحاً بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلاً ، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة" .[1]

فالرسول عليه الصلاة والسلام وكل داعية إلى التغيير نحو الحق غير مسؤول مسؤولية المراقبة الدائمة على المدعو انما هو مطالب بإيضاح الصورة وتبسيطها ، وتحفيز الطاقات بذلك الإيضاح والتبسيط .

"والحفيظ: فعيل بمعنى فاعل ، أي حافظ ، وتختلف معانيه ومراجعها إلى رعاية الشيء والعناية به ، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله" .[2]

" **(فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)** ليس هو جواب الشرط في المعنى ، ولكنه دليل عليه وقائم مقامه إذا المعنى فان اعرضوا فلست مقصراً في دعوتهم، ولا عليك تبعة صدهم، إذ ما أرسلناك حفيظاً عليهم بقرينة ، **(إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)** ، وجملة "ان عليك الا البلاغ" بيان لجملة " **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** " باعتبار أنها دالة على جواب الشرط المقدر.. والبلاغ: التبليغ وهو اسم مصدر، وقد فُهِمَ من الكلام انه قد أدى ما عليه من البلاغ ، لأن قوله " **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** " دل على نفي التبعة عن النبي عليه السلام من اعراضهم، وان

(2) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 135.
(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 134.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 132.

الاعراض هو الأعراض عن دعوته ، فاستفيد انه قد بلغ الدعوة ولولا ذلك ما أثبت لهم الأعراض" .[1]

ولعل هذا الأعراض عن دعوته-صلى الله عليه وسلم-هو الذي دعى إلى تخصيص إصابة السيئة بأنها ناتج أعمالهم وكسب أيديهم ، بل هي التي قدمت إلى وقوع تلك الشرور والمصائب بهم ، فليس أعظم من رد الاستجابة لله تعالى لما قال لهم في الآية السابقة " **اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ...** " الآية

وهذا تمام بيان قوله: "ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا" فالسنة الكونية تقتضي هذا الضنك إذا تحقق الاعراض ، والاعراض لا يتحقق الا بإرادة الإنسان فهو غير مجبور عليه، غير ان الإنسان كما قلنا من قبل يرفض الخضوع لإرادة فوقيه ، ولذلك تراه ينسب حدوث الخير لنفسه أو يفرح ويختال به دون ان يذكر معطيه جفاءً ومعاندة ، ولحظة وقوع المصائب والشرور يتبجح بإعلان الكفر ولوم تلك الإرادة على ما أصابه من الضنك دون العودة إلى رؤية الأسباب والمسببات والتعرف على سنن الكون وقوانين الحياة لفهمها والتماشي معها، ولذلك جاءت هذه الآية مخالفة لآيات هود والإسراء وفصلت، فنسبت أصابة السيئة إلى ما قدمت الأيدي بسبب ذلك الاعراض، ولعل التعجيب هنا من حال هذا الإنسان بأنه يكفر بتلك الإرادة ولكنه أيضاً عند وقوع المصيبة بما اقترفت يداه فإنه يرفض الا أن يلوم تلك الإرادة وأن يلوم خالقه .

وفي الزمخشري ان الكفور هنا "البليغ الكفران ولم يقل (فإنه كفور) ليسجل على ان هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال : " **إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)** " **(سورة إبراهيم)** ، " **إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)** " **(سورة العاديات)** ، والمعنى انه يذكر البلاء وينسى النعم ويعظمها"[2]، ويقول صاحب التحرير والتنوير و"هذا حكاية خُلُقٌ للناس كلهم مرتكز في الجبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية ، فيحمل "الإنسان" في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مطلقه المقول عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر، وتحمل السيئة التي قدمتها أيديهم على مراتب السيئات إلى ان تبلغ مبلغ

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 133.
(2) الكشاف، المجلد الرابع، ص 236.

الإشراك ، ويحمل وصف "كفور" على ما يشمل اشتقاقه من الكفر بتوحيد الله والكفر بنعمة الله" [2]، "ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي ، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير، ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على ان أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف ، ومنهم من عكس، وهي طريقة الكواشي في تلخيصه.. وعلى الوجهين فالمراد بـ"الإنسان" في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق" .[3]

فإن كانت بعض آيات الإنسان تأتي في سياق الحديث عن الكفار فإن التعريف في آل التعريف في كلمة الإنسان هي دائماً للاستغراق ، فلا مجال لتحديد الإنسان بالكافر، وإنما كما قلنا من قبل ان المسائل تتفاوت وتتدرج في الجبلة الإنسانية حتى تصل إلى مراحلها الأخيرة من الكفر الصريح، ولكن تبقى في هيئة هذه الجبلة الإنسانية على العموم، ولا مجال لإنكار ذلك فإننا نلحظ دقة التعبيرات القرآنية المختارة في سياق الآيات المتعددة في الموضوع الواحد عندما يريد ان ينوه إلى معنى مختلف عن الآخر في هذا الأمر أو ذاك وهذا مما مر معنا كثيراً في هذه الآيات المختصة بالإنسان الهلوع وموقفه من الأحداث من حوله، مما بيّنا بعضه وتجاوزنا عن البعض حيث ان هذه الدراسة،تعتبر بمثابة مقدمة عامة في محاولة لتحديد ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن ولا يمكنها لاجل ذلك الاستفاضة في بيان الاعجازات اللغوية واللطائف البيانية المتعددة والدقيقة في آيات البحث ، ومن هنا يأتي التناول لهذه الآيات بين عموم الشرح وبعض التخصيص.

ومن المناسب في نهاية هذا العرض لشرح هذه الجبلة الإنسانية من حيث موقفها من سنة الابتلاء وتعرضها للخير والشر ومن ثم تأثير ذلك على علاقتها بالخالق ان نستعرض قوله تعالى في سورة العلق : **" كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) " (سورة العلق)** ، ففي هذه الآية تثبت رغبة الإنسان الجامحة في التفلّت من أي إرادة فوقية ، وعلى هذا الأساس تضاربت وتذبذبت واضطربت مواقفه عند مواجهة سنة الابتلاء فهو كما ذكرنا مراراً

(2) التحرير والتنوير ، الجزء الخامس والعشرون ، ص134 .
(3) التحرير والتنوير ، الجزء الخامس والعشرون ، ص134 .

عند لحظة التملك ينطلق رافضاً على الإطلاق تدخلات تلك الإرادة ، ومن المهم بمكان هنا ذكر موقع الآية من السورة في قوله تعالى: " **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) ... الآيات** " **(سورة العلق)** ، لنتبين من ذلك ان هذا الاستغناء الإنساني لا يمكن بحال تحديده بالمسائل المادية فقط وعلى الصعيد الفردي وإن كان لابد حاصلاً، فإن سياق الآيات تعكس استغناءً علمياً أيضاً نتمثله اليوم بهذه الحضارات الإنسانية المبنية على علم الأشياء القائم على علم للقوانين الحياتية المختلفة والتي ساهمت في تشييد هذه التطورات التكنولوجية والتعرف على أسرار القوانين البيولوجية ، وما إلى غير ذلك مما مكن الإنسان على المستوى الإنساني الأكبر من سبر أغوار هذه الأشياء والتفاعل معها لتسخيرها في نهاية المطاف لصالحه ولمصلحة وجوده.

إننا بلا شك نستطيع ان نتلمس هذا الاستغناء اكثر ما نتلمسه في يومنا الحاضر على هذا الصعيد العلمي الجمعي ، وان كانت الدائرة الفردية والدائرة المادية داخلة في هذا الاستغناء لا محالة ، فاللحظة التي يستغني فيها الإنسان يطغى ، وكأن حالة الاستغناء تمثل له حالة فكاك عن تلك الإرادة العليا ، وهذا ما نلمسه في حضارة اليوم التي نَصَّبت العلم آلهاً يُعْبَد لانه في نهاية المطاف يتوافق مع المزاج الإنساني ، فهو يبقى آلهاً مُلْكَ اليد لا فوقها، مع ان الآيات قد نوهت وبشدة ومنذ البداية على ان أساس العلم القويم لابد كائن في إطار الخالق والخالق الأكرم فهو هبة منه تعالى للإنسان ليتبين طريقه لا ليطغى ، ولذلك جاءت الآية اللاحقة تهديداً ووعيداً للإنسان بالانتباه قبل فوات الأوان في قوله تعالى: "ان إلى ربك الرجعى" كما قال الفخر الرازي "هذا الكلام واقع على طريقة الإلتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان" ،[1] فلا مفر منه تعالى ولا نهاية الا عنده.

وفي قوله "كلا" في بداية الآية، ذكر العلماء المفسرون أن "كلا" لردع الإنسان عن مثل هذا الموقف ولكنهم بينوا ان "كلا" "تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه"،[2]

(1) التفسير الكبير، الجزء الثاني والثلاثون، ص 19.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 442.

"وليس في الجملة التي قبله ما يحتمل الإبطال أوالردع",[1] ولذلك قال صاحب التحرير "فوقوعها هنا في أول الكلام يقتضي أن معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالإبطال وبردع قائله، فابتدئ الكلام بحرف الردع للإبطال، ومن هذا القبيل أن يفتتح الكلام بحرف نفي ليس بعده ما يصلح لأن يلي الحرف كما في قول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفِرّ [2]

غير أن الفخر الرازي بين ثلاثة وجوه لكلا ، فقال:

"1- أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وان لم يُذْكَر لدلالة الكلام عليه.

2- قال مقاتل: كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذي خلقه من العلقة وعلّمه بعد الجهل، وذلك عند صيرورته غنيا يطغي ويتكبر، ويصير مستغرق القلب في حب الدنيا فلا يتفكر

في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها.

3- ذكر الجرجاني صاحب النظم أن (كلا) ههنا بمعنى حقا لأنه ليس قبله ولا بعده شيء تكون (كلا) ردعاً له ، وهذا كما قالوه في "كلا والقمر" فإنهم زعموا أنه بمعنى: أي والقمر"[3].

وفي قوله "استغنى" لطيفة لابد أن تذكر ، فقد قيل وهذا ما يتبادر للذهن للوهلة الأولى ، أن معناها "استغنى بماله عن ربه" غير أن الفخر الرازي بين أن "المراد من الآية ليس هو الأول لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعا كسليمان عليه السلام فإنه كان يجالس المساكين ويقول "مسكين جالس مسكينا" ،[4] وان "في الآية وجه آخر: وهو أن سين (استغنى) سين الطالب ، والمعنى أن الإنسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته، وبذلت الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق ، فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعا"[5].

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 442.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 442.
(3) التفسير الكبير للفخر الرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص 18.
(4) الفخر للرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص 19.
(5) التفسير الكبير، الجزء الثاني والثلاثون، ص 19.

والمعنيين يتلائمان في وصف الإنسان بالطغيان، فالإنسان يطغى عندما يجد نفسه قد استغنى عن خالقه، فلم يعد بحاجة إليه فهو يملك المال والعلم والصحة والمكانة الاجتماعية وما إلى ذلك من النعم، وهو في ذات الوقت عندما يملك كل هذا يجد انه حصل عليه بسبب من كده وكدحه تماما كما ذكرت كثير من الآيات السابقة من مثل قوله تعالى: "إنما أوتيته على علم" فلا فرق.. فالإنسان الذي هُلِعَ بالجزع والمنع في مواجهة سنة الابتلاء هو ذاته الإنسان الذي يطغى ويتمرد على خالقه عند لحظة الاستغناء والشعور بالاكتفاء التام لأنه في تلك اللحظات يشعر بأنه قد تحرر من تلك الإرادة ومن تدخلاتها في مصائر حياته المختلفة، فلا عقبات أو شواغل تعيق النفس وتؤرق البال بل اطمئنان لما ملك أثره طغيان بما امتلك.

وهذه على الأخص هي طبيعة الإنسان العجول الذي يسعى لئن يملك كل شيء هنا والآن وهذا ما تبينه آياتي سورة الأنبياء والإسراء في تناول عجيب لسبر أغوار هذا الإنسان ووضعه أمام مرآة نفسه وحقيقة ذاته.

الإنسان العجول :

والعجلة في الجبلة الإنسانية خَلقٌ من الخَلق فيها، وينبوع في تكوين هذه التركيبة تصدر عنها الروافد والأنهار وتتشعب لتؤثر في رؤية الإنسان للحياة وعمله فيها وتتأثر برسالات الخالق للإنسان في الحياة ، تؤكد على ذلك آية الأنبياء التي أوضحت هذه الحقيقة في قوله تعالى: **" خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) " (سورة الأنبياء)** ، ومع ذلك فإنني سأبدأ وبحسب منهجية هذا البحث بدراسة الآيتين تبعا لترتيب سورهما في المصحف الشريف ، فأبتدأ بآية الإسراء التي ابتدأت بالحديث عن أثر هذه العجلة وأهم ما يقع في دائرتها ، وهو التوجه الإنساني للخالق بالدعاء ، أو على الأصح المطالب الإنسانية التي لا تنقطع سواء كانت توجها صادقا للخالق أو طلبا حثيثا للخير عن طريق الأسباب المادية المحسوسة ،في قوله تعالى: **" وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً (11) " (سورة الإسراء)** ، ونحن حين ننظر إلى الآيات القرآنية الأخرى التي جمعت ما بين كلمة الإنسان بخصوصها ودعاؤه والتي قد مرت معنا بالبحث في مواضيع متفرقة نجدها بحسب الترتيب القرآني كالتالي:

قولـه تعالى في سورة يونس : " **وَإِذَا مَـسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِمـاً فَلَمَّـا كَشَفْنَـا عَنْهُ ضُـرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)** " **(سورة يونس)** .

وفي سورة الإسراء : " **وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً (11)** " **(سورة الإسراء)** .

وفي ذات السورة قولـه تعالى : " **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً (67)** " **(سورة الإسراء)** .

وفي الزمر قولـه تعالى: " **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَـهُ نِعْمَـةً مِنْـهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)** " **(سورة الزمر)** .

وفي الآية التاسعة والأربعين من السورة نفسها قولـه تعالى: " **فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَـةً مِنَّـا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَـةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49)** " **(سورة الزمر)** .

وفي الآيتين الأخيرتين من سورة فصلت قوله تعالى:

" **لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49)** " **(سورة فصلت)**

وقوله عز من قائل : " **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)** " **(سورة فصلت)** .

والدعاء كما في الراغب "كالنداء ، إلا أن النداء قد يقال بيا، أو أيا ، ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم ، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم ، نحو: يا فلان ، وقد يستعمل كل واحد منها موضع الآخر ، قال تعالى: " **كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (171)** " **(سورة البقرة)** .

ويستعمل استعمال التسمية، نحو: دعوت ابني زيدا، أي سميته قال تعالى: " **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً (63)** " **(سورة النور)** ، حثا على تعظيمه ، وذلك مخاطبة من كان يقول: يا محمد، ودعوته: إذا سألته ، وإذا استغثته ، قال تعالى: " **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (68)** " **(سورة البقرة)** ، أي سله ، وقال : " **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ (41)** " **(سورة الأنعام)** ، تنبيها أنكم إذا أصابتكم شدة لم تفزعوا إلا إليه، " **وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً** " **(56) (سورة الأعراف)** ، " **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)** " **(سورة البقرة)** ، " **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ (8)** " **(سورة الزمر)** ، " **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ (12)** " **(سورة يونس)** ، " **وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ (106)** " **(سورة يونس)** ، وقولـه " **لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14)** " **(سورة الفرقان)** ، هو أن يقول: يالهفاه ، ويا حسرتاه، ونحو ذلك من أحوال التأسف، والمعنى: يحصل لكم غموم كثيرة ، وقوله: " **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (68)** " **(سورة البقرة)** أي: سله. والدعاء إلى الشيء: الحث على قصده " **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (33)** " **(سورة يوسف)** ، وقال: " **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ (25)** " **(سورة يونس)** وقال : "**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ) (42)** " **(سورة غافر)** (1) ، فنحن نلحظ كيف جمعت هذه الآيات القرآنية المحتوية على مفردة الإنسان هذا التوجه الإنساني للخالق من خلال معنى الدعاء وهو التوجه بالنداء لله وسؤاله والاستغاثة به ، وأبرز حالات هذا التوجه هي حالات مساس الضر والشرور فقد ورد في كافة الآيات ذكر ما يدلل على الخالق بذكر الضمائر تارة وذكر كلمة الرب تارة أخرى وهكذا ما عدا آية الإسراء التي نحن بصددها والآية (49) من سورة فصلت ، أما السور الأخر نجد قولـه"دعانا لجنبه"، "من تدعون إلا إياه"، "دعا ربه"، "دعانا"، "فذو دعاء عريض" باعتبار قوله في أول الآية "وإذا أنعمنا".

أما آيـة فصلت فقد عمدت على شرحها في الصفحات السابقة ، وذكرت أنها تحتمل الوجهين في كونها توجها للخالق بطلب الخيرات منه أو أنها طلبا للأسباب المادية التي تجلب

(1) مفردات الراغب الأصفهاني، ص 315.

الخير ولعل الثانية أوفق فنحن نرى أن الإنسان لا يتوجه خالصا لخالقه إلا عند إرادته رفع الضر عن نفسه ولكننا لا نستطيع إثبات ذلك في هذه العجالة فتحديد مفهوم دعاء الإنسان يحتاج إلى دراسة خاصة هو الآخر إلى جانب موضوع كموضوع العجلة في القرآن الكريم ، ونقتصر هنا على مراد الدراسة ، ففي آية الإسراء نجد أن قوله تعالى: " **وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ (11)** " **(سورة الاسراء)** ، وعدم ذكر المفعول به أو أي ضمير يدل عليه كما في الآيات الأخر إنما جاء لتسليط الأضواء على طبيعة الإنسان والتركيز عليها فهو من شدة تأصل خُلُق العجلة فيه في طلب هذه العاجلة وتقديمها على الآخرة لا يسأم من دعاء الخير فيها ولا حتى يحاول التروي في أدعيته ليفصل عن نظر ثاقب ما بين الخير والشر فهو يستميت في أدعيته ظنا منه انه يطلب الخير لنفسه وقد يكون مطلبه عند علام الغيوب هو عين الشرور له ، وان دل هذا على شيء فهو يدل على عجلة الإنسان وعلى قصور نظره وشدة حاجته لخالقه باستخارته والخضوع لإرادته التي عندها علم اليقين بما هو نفع أو ضر به ، وعلى هذا فلابد من تقبل الإبطاء في العطاء تماما كما يتقبل العطاء ، ومن ثم فإن هذا التوجه الجارف بالدعاء مذموم بحكم أنه لا يميز بين الصالح لحياة هذا الإنسان والفاسد لها ، وإن كانت الأحاديث النبوية تؤيد وتحبذ مفهوم الإلحاح بالدعاء فإن مفهوم الإلحاح بلا شك لا يتوافق مع العجلة ، فالتشجيع على هذا الإلحاح قائم على أساس من التواصل مع الخالق بخلاف العجلة في الدعاء فهو لا يلقي بالا لهذا التواصل وإنما يعتني أشد العناية في تحقيق المراد والوصول إلى النتيجة التي يرتجيها الإنسان بأسرع وقت وأقصر طريق ، وللدعاء أصول كثيرة مرتبطة بعقيدة الإنسان وإيمانه ، ولكن الإنسان صاحب الكينونة العجولة لا يأبه بهذه الأصول إنما يريد تحقيق مبتغاه الآن وهنا ، ومن هنا نوهت هذه الآية على هذه الكينونة العجولة وذكرت أهم نتائجها في الحث الشديد على التزيد من الأشياء.

وفي لسان العرب أن " الاسْتِعْجال والإِعْجَال والتَّعجلُّ واحد : بمعنى الاستحثاث وطلب العجلة.

واسْتَعْجَل الرجل: حثه وأمره أن يعجل في الأمر.

واسْتَعْجَلْته أي تقدمته فحملته عل العجلة.

والعاجلُ والعاجلةُ : نقيض الآجل والآجلة عام في كل شيء، وفي التنزيل "من كان يريد العاجلة..." .[1]

وقد بين الفخر الرازي الوجوه في تفسير هذه الآية فقال: وقد "اختلفوا في المراد من دعاء الإنسان بالشر على أقوال:

أ- المراد منه ، النضر بن الحارث حيث قال: " اللهم أن كان هذا هو الحق من عندك "

فأجاب الله دعاه وضربت عنقه.. الخ.

ب- المراد أنه في وقت الضجر يلعن الإنسان نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك.

ج- أقول: يحتمل أن يكون المراد أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن خيره فيه ، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره ، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وإنما يقدم على هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص لحقائقها وأسرارها" .[2]

ومن هنا يتضح أن العجلة هي مقتضى الجهل فالذي لا يملك علم الغيب خيرا له أن يتخذ التروي والأناة منهجا له في طلب الخير وتحقيقه فلا يسارع في طلب كل ما يخطر بباله. "كما أن الباء في قوله (بالشر، وبالخير) لتأكيد لصوق العامل بمعموله كما في قوله "وامسحوا برؤوسكم" ولتضمين مادة الدعاء معنى الاستعجال" [3].

" وقوله (وكان الإنسان عجولا) دليل على تمكن هذا الأمر من الإنسان فإن (كان) تدل على أن اسمها متصف بخبرها اتصافا متمكنا كقوله تعالى **"وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا "** [4] ويتضح ذلك أكثر أو يتأكد من خلال تعبيرات آية الأنبياء السابعة والثلاثين في قوله تعالى:" **خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ "** ، ففي هذه الآية بيان مادة

---

(1) لسان العرب، الجزء الرابع، ص 265.
(2) التفسير الكبير، الجزء التاسع عشر، ص 162.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثالث عشر- الخامس عرش، ص 42.
(4) التحرير والتنوير، الجزء الثالث عشر- الخامس عرش، ص 42.

الخَلْق ، فإن وافقنا على أن هنالك خَلْقاً للنفس مغاير لخَلْق الجسد فلا شك أن في هذه الآية ما يدل على أن إحدى مواد هذا الخَلْق المعنوي أن جاز لنا هذا التعبير هو مادة العجلة ، فإن الآية تؤيد وتؤكد بشدة على أن عجينة هذا الإنسان مجبولة جبلا بهذا الخُلُق ، فإن كانت آية الإسراء تؤكد على لصوق صفة العجلة بالكينونة الإنسانية فإن آية الأنبياء تذهب إلى أبعد من هذا، بأن الإنسان مخلوق منها ، وفي التحرير قال أن "العجل: السرعة ، وخَلْق الإنسان منه استعارة لتمكن هذا الوصف من جبلة الإنسانية، شبهت بشدة ملازمة الوصف بكونه مادة لتكوين موصوفه ، لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكر في المحبة والكراهية ، فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة ، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية ، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع فكأنه مخلوق من العجلة...

ثم أن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والفكر ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه. ومن فسر العجل بالطين وزعم أنها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد" .[1]

وأما النهي في قوله تعالى في ذيل الآية: " **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ** " فقد تحدثنا عن أمثاله فيما سبق من قدرة الإنسان على الضبط والتغيير بقوة إرادته كما قال في الكشاف "فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله " **خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ** " وقوله " **وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً** " أليس هذا تكليف ما لا يطاق ؟

قلت : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة" ،[2] وقد قيل أن جملة " **خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ** " وجملة " **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ** " جاءت بمناسبة ما ذكر في الآيات السابقة واللاحقة لهما في السورة من آيات تبين مدى استهزاء المشركين بالنبي عليه السلام وتكذيبهم لما يعدهم به من العذاب مما أثار حنق المسلمين فاستعجلوا النقمة والعذاب بهؤلاء الكفرة فبين الله لهم طبيعة الأمور وسننه

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء السابع عشر، ص 68.
(2) الكشاف، المجلد الثالث، ص 189.

فـي الخلـق وان هـذه الـسنن لا تـسير بحـسب اسـتعجال الإنـسان وأمنياتـه وإنمـا بحـسب توقيـت الآجـال المحـدودة الدقيقـة ولـذلك فسر بعض المفسرين كلمـة الآيـات فـي الآيـة بأنهـا "الهـلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة... وقيل هي أدلة التوحيد وصـــدق الرسـول ، وقيـل آثـار القرون الخالية بالشام واليمن" [1] .

غير أن مما لا شك فيه أن قولـه تعالى:" **خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُـمْ آيَاتِي فَـلا تَسْتَعْجِلُونِ** " أكثر شمولية وعموما من ذلك التخصيص فهي كالقاعدة العامة ضمن هذه

القواعـد التعريفيـة للإنـسان بنفسه فـي هـذا الكتـاب العظـيم فهـي وهـي تُعَـرِّفَ الإنـسان بعجلتـه المركـوزة فيـه ، تحثـه فـي الوقـت نفسه علـى التـروي حتـى يـستطيع أن يـرى مـا بعـد حاجاتـه وإسراعه في تلبيتها ، حتى يستطيع أن يرى خالقه من خلال ما بثه له من الآيات في هذا الكـون الفسيح ، فالتأمل وحده مصاحبا بالرؤية الثاقبة المتأنية والعمل الـصبور قـادرين علـى ربـط هـذا الإنسان بالآجلة على بعد المسافة بينه وبينها ، أما العجلـة فيطـوي بهـا الإنـسان صـفحات الحيـاة متلكأ متلعثما لا يدري مـا قرأ فيهـا ولا أي طريـق مشاهـا حتـى تُعْمِـي بصره وتُثْقِلُ خطـاه عـن رؤية الحقيقة الصامدة له في اليوم الآخر، الراصدة لرؤاه عن الحياة هنا وهناك...

وكـان كافيه أن يغير ويبدل الآن وهنا وبحسب هذه الآيات المبثوثـه فـي كـل شـيء وفـي كل مكان والتي وعده الله بأن يريه إياها فلا عذر بعد ذلك ولا اعتذار، خاصة إذا علمنا أن فيهـا آيات مسجلة مكتوبة فصيحة التعبير مسددة الهدف ترسل لـه أقوالـه قبل أن يقولهـا وظنونـه قبل أن يظنها وحساباته قبل أن يحسبها وندمه قبل أن يندمـه ، وكل هذا قبل أن تحين الآجلـة فمـا تعود تنفعه العاجلة ولا ما استعجله فيها من شيء ، وما أعظمها تلك من آيات قرآنية.

أقوال الإنسان وحساباته وعلاقتها بالآخرة:

وبهذا الصدد تأتي سورة القيامة بآياتها الأربعين تسجيلا دقيقا لحسابات الإنسان وأقوالـه وعلاقتها باليوم الآخر في ترتيب عجيب، فهي لا تقف عند هذا الحد ولكنها تتعرض في فقرات متتالية للموقف الإنساني من القيامة بكل أبعاده، ولكننا لضرورة التقسيم لهذا البحث نحتـاج إلـى

---

(1) تفسير غرائب القرآن، المجلد الخامس، ص

تقسيم آيات هذه السورة بحسب الحاجة مع أن لها عمقا في وصل الإنسان باليوم الآخر بمنبهات وإيقاعات تدق على وتر النفس اللوامة والقدرة على البعث تارة وتدق على مسامع الإنسان تارة أخرى ذلك الكشف الإلهي لإرادته ومراميه فتواجهه بذهوله هو لحظة البعث حين يقول "أين المفر" وتواجهه ثانية بأعماله كاملة ما تقدم منها وما تأخر ثم يأتي أكثر الإيقاعات حزما حين يبين له أن لا مسوغ ولا مبرر ولا اعتذار لأي من أعماله فهو على دراية وبصيرة بكل ما قَدَّم وأخر ، ثم تستمر السورة في عرض المواقف تلو المواقف حتى تصل بالإنسان أخيرا من خلال فكرة الخلق الأول والموت من بعده والإحياء الثاني إلى انه صاحب هدف ورسالة لم يُخْلَق هباءا ولن يترك سدى ولا كما مهملا تذروه الرياح فتنتهي حكايته.

فلينظر بعد ذلك إلى حساباته قبل أن يحسبها وإلى أقواله قبل أن يقولها فها هي أمامه في إيقاعات سريعة ونبضات خاطفة توصله إلى شاطئ الأمان إن شاء، أما أن يتعظ بها بعد ذلك أو لا يتعظ فشأنه وحده، كما أن شأن خالقه وحده أن يحاسبه كما يشاء بميزان العدل المطلق.

والآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الظنون الإنسانية تأتي في قوله تعالى على التوالي في السور القرآنية:

قوله عز من قائل: " **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3)** " **(سورة القيامة)** وقوله تعالى: " **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36)** " **(سورة القيامة)** وفي سورة البلد عندما تحدث رب العزة عن الإنسان أردف بعده آيات عن حسبانه بقوله تعالى: " **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)** " **(سورة البلد) .**

يتضح جليا من هذه الآيات هذا الاستعلاء الإنساني حتى على صعيد الظنون والتقديرات والرغبة الجامحة في إيهام النفس بأنه لا أقدار بعد أقدار هذه الحياة الدنيا ولا مساءلة ولا قوة تَرْقُب الأحداث وتُسَجل الأعمال ثم تَجْمَع العظام وتحاسب هذا الإنسان ، إنما يغمس نفسه في ظنونه حتى تصبح بالنسبة له حقائق ينتهي بعدها إلى الاستهزاء بعملية البعث أو حتى ما قبل البعث بوجود القدرة العلوية أصلا، ولكن اللطيف الخبير بلطفه بهذا الضعف

الإنساني وخبرته بهذه الطبيعة الجموح والإرادة الفاجرة فيها يحرك القلوب والعقول بهذه الآيات التحذيرية التعريفية لتنبض وعيا فترى نفسها بوضوح وهي على مسرح الأحداث قبل أن يسدل الستار وتنتهي مشاهد اختيار الأدوار.

ويأتي الحسبان الأول للإنسان بحسب الترتيب القرآني عن جمع العظام بمعنى حقيقة اليوم الآخر ولقاء الخالق ، وفي بداية سورة القيامة كان القسم الإلهي في غاية الروعة حيث ضم هذا القسم الإلهي بيوم القيامة القسم بالنفس اللوامة، وفي هذا إبراز لدورها في لوم الإنسان على أفعاله وتذكيره بطرق الهداية، فلا مفر للإنسان بالاعذار مع تحقق وجود هذه النفس فيه فهو أن سنح لنفسه الفرصة بالإصغاء للومها ما أنكر بعثا ولا استغرب قياما بعد فناء ولا استمرء فجورا حتى الممات.

وقد تساءل الفخر الرازي وذكر عدة وجوه عن هذه العلاقة بين القيامة والنفس اللوامة حيث قال "ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة حتى جمع الله بينها في القسم ؟

1- أن أحوال القيامة عجيبة جدا، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة ، أعني سعادتها وشقاوتها ، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة .

2- أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام : "من عرف نفسه فقد عرف ربه" ... وقال قائلون القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث أنها أبدا تستحقر فعلها وجدَّها واجتهادها في طاعة الله" ،[1] " وجواب القسم يؤخذ من قوله " **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ** " لأنه دليل على الجواب إذ التقدير: لنجمعن عظام الإنسان أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه" .[2]

"وتعريف الإنسان تعريف الجنس ، ووقوعه في سياق الإنكار الذي هو في معنى النفي يقتضي العموم ، وهو عموم عرفي منظور فيه إلى غالب الناس يؤمئذ ، إذ كان المؤمنون قليلا" [3]، وقد ذُكِرَت أقوال كثيرة في هذا القَسَم وجوابه ليس مجاله هنا ، منها : " أن (لا) ههنا لنفي القسم كأنه قال لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا

---

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثلاثون، ص 216.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 338.
(3) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 339.

نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك" [(1)].

والقرآن لم يترك الإنسان لظنونه، فإن كان هكذا يظن، فقد خيبت الآيات القرآنية ظنونه بإجاباتها الدقيقة الحاسمة حتى يتعظ الإنسان وينتبه ، يقول سيد قطب في ذلك: "والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدا وقوعه "بلى قادرين على أن نسوي بنانه" والبنان أطراف الأصابع ، والنص يؤكد عملية جمع العظام بما هو أرقى من مجرد جمعها، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضيع منه بنان ، ولا تختل عن مكانها، بل تسوى تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو ، مهما صغر ودق !

ويكتفي هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجيء في نهاية السورة دليل آخر على واقع النشأة الأولى. إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية وتوقع عدم جمع العظام، أن هذا الإنسان يريد أن يفجر، ويمضي قدما في الفجور، ولا يريد أن يصده شيء عن فجوره، ولا أن يكون هناك حساب عليه ولا عقاب ومن ثم هو يستبعد وقوع البعث ومجيء يوم القيامة" [(2)].

وهذا هو حسبانه الأول أما الثاني فواقع في ذات السورة في قوله تعالى : " **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً** " ، وهو مرتبط إيما ارتباط بحسبانه الأول، فما يوم القيامة إلا يوم إحقاق نتائج الغايات التي من أجلها خلق الإنسان ، فإن وجدت أهداف هذا الخلق مع وجوده فلابد من وجود يوم يحاسب فيه الخَلْق على إنجاز هذه الأهداف والمسؤوليات ، ولكن رغبة الإنسان الجامحة في عدم الارتباط بالمسؤوليات ومن ثم تحجيم حريته بهذه المسؤوليات التي يريد هو أن ينطلق بها فاجراً عابثاً ، هذه الرغبة تجعلهُ يُقْنِع نفسه إيهاما بالظن الفاسد أن العظام لن تجمع لأن وجوده أصلاً بلا غاية محددة ولذلك سيترك كما مهملا.

وقد ذكر الفخر الرازي في معنى كلمة سدى أن " السدى في اللغة المهمل يقال أسديت إبلي إسداءً أهملتها" [(3)].

---

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثلاثون، ص 215.
(2) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3769.
(3) التفسير الكبير، الجزء الثلاثون، ص 234.

أما ما قاله العلامة الطاهر بن عاشور في معنى الآية وبالأخص كلمة السدى "ولم يفسر صاحب الكشاف هذه الكلمة وكذلك الراغب في المفردات ووقع "سدى" في موضع الحال من ضمير "يترك" فإن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأبدع تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافع لا تنحصر أو في ضد ذلك من مفاسد جسيمة ، لا يليق بحكمته أن يهمله مثل الحيوان ، فيجعل الصالحين كالمفسدين والطائعين لربهم كالمجرمين ، وهو العليم القدير المتمكن بحكمته وقدرته أن يجعل إليه المصير، فلو أهمله لفاز أهل الفساد في عالم الكساد ، ولم يلاق الصالحون من صلاحهم إلا الأنكاد ، ولا يناسب حكمة الحكيم إهمال الناس يهيمون في وادي .... وعن الشافعي: لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى الذي لا يُؤمر ولا يُنهي، وقد تبين من هذا أن قوله "أن يترك سدى" كناية عن الجزاء لأن التكليف في الحياة الدنيا مقصود منه الجزاء في الآخرة" (1).

ومما يحسن ذكره في مقام شرح هذه الآية وعلاقة الوجود الإنساني بالجزاء والحساب الرباني ما قاله الداعية الشهيد سيد قطب في تفسيره " فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية... أرحام تدفع وقبور تبلع.. وبين هاتين لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع قريب من متاع الحيوان ، فأما أن يكون هناك ناموس وراء هدف ، ووراء الهدف حكمة ، وان يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة ، وان ينتهي إلى حساب وجزاء ، وان تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء ، أما هذا التصور الدقيق المتناسق، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنهي كل شيء إلى نهاية أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم في ذلك الزمان.... والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات ، وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ومن الوجود كله من حوله ، وارتقاؤه في سلم الإنسانية يدفع نحو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس.... فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل، ثم يرتبط هذا كله

(1) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون ، ص 366.

بالوجود الكبير ونواميسه ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى.

وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى التصورات الكونية التي عرفتها الفلسفة قديما وحديثا.

وهذه اللمسة " أيحسب الإنسان أن يترك سدى " هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري ، كي يلتفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التي تربط وجوده بالوجود كله وبالإرادة المدبرة للوجود كله.

وفي غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى.. أنها دلائل نشأته الأولى "ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" .[1]

بهذا التوجيه كما قال الشهيد سيد قطب وبهذه الدلائل البسيطة الواضحة يضع الخالق الإنسان أمام ظنونه ليتخلى عنها واحدة تلو الأخرى ويمحوها من ضميره في تصحيح شامل لما يعتمل في قلبه في حالة مكابدته لهذه الحياة ، فهو وهو في حالة الانتصار على كثير من مشاقها ومغالبة صعوباتها وتحطيم كثير من صخورها الصلدة المعترضة طريق نجاحه يعود به لذات الحسبان الأول ولذات الظن الذي لم يؤسسه الاّ على خيلائه بقدرته واقتداره فيقول تعالى في سورة البلد " **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ(5) " (سورة البلد)** ،ثم توقفه ذات السورة أمام أكاذيبه وإدعاءاته مؤكدة كما الآيات جميعها أنه ليس للإنسان أن يدعي ما شاء وقتما شاء في حياته اليومية ، فإن القدرة الإلهية لا زالت هناك تَرْقُب وتُسَجْل ، فإن إنكار البعث بإنكار القدرة على جمع العظام في الحسبان الأول ، وإنكار حكمة الوجود بإنكار غايته وهدفه في الحسبان الثاني ، ثم العودة لإنكار القدرة عموما على أساس من استعظامه لقدرته هو في الحسبان الثالث " **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** " لممهد للحسبان الرابع بنفي الرقيب على الأعمال ومن ثم سلوك منهج العبثية في كل دوائر الحياة ومن ثم

(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3773-3774.

الحرية المطلقة في إدعاء ما يخطر بباله متى شاء وكيفما يشاء بقوله " **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** " .

"والاستفهام هنا في آية " **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** " استفهام مستعمل في التوبيخ والتخطئة" ،[1] وفي قوله " **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** " "إنكار وتوبيخ وهو كفاية عن علم الله تعالى بدخيلته وان افتخاره بالكرم باطل" ،[2] وفي هذه الآية قد "أعقبت مساوي نفسه بمذام أقواله، وهو التفخر الكاذب والتمدح بإتلاف المال في غير صلاح" ،[3] وهكذا "فإن هذا الإنسان المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه إياه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه فيطغى ويبطش ، ويسلب وينهب ، ويجمع ويقتر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى ودون أن يتحرج ، وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وإدعائه انه بذل الكثير، يجابهه القرآن بفيض الالآء عليه في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، وفي خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الالآء التي لم يشكرها ولم يهتم بحقها عنده "ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفيتن وهديناه النجدين" ......

ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل "وهديناه النجدين" ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين ، والنجد الطريق المرتفع، وقد اقتضت مشيئة الله أن يمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وان تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء حقه وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود" .[4]

فكيف يمكن للإنسان أن ينكر هذه القدرة وهي التي ملّكته أسباب الإنجاز والاقتدار على صعيد فردي خاص وحضاري عام، فهل يحق للإنسان أن يغفل عن هذا الاقتدار الإلهي فكلما

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 353.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الحادي والثلاثون، ص 353.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الحادي والثلاثون، ص 352.
(4) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3910-3911.

رأى إنجازاً اغتربه ، فمن ملّكه العينين واللسان والشفتين ؟! ومن هداه النجدين والقي في روعه السعي نحو النافع والهروب من ضده ؟! .

ومن لطائف القرآن ودقائق إعجازه البياني في تذكيره الإنسان أنه عندما عبر عن ذكر اللسان والشفتين ذكرهما سوية "خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه (اللسان) يقولون : ينطق بلسان فصيح ، ويقولون : لم ينطق ببنت شفة ، أو لم ينبس ببنت شفة ، لأن المقام مقام استدلال فجيء منه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق "،[1] فهم لا يجمعون بين اللسان والشفتين وقد جمع بينهما القرآن لمزيد استدلال على نعمة الله ودقائق القدرة وعظمتها .

وبعد هذه الظنون التي يُعَرِّيها الخالق في آياته لصاحب النجدين في استفهامات إنكارية تذكيرية توبيخية مباشرة بقوله أو هكذا تظن أيها الإنسان ، تأتي إجاباته أي القرآن بالردع الجازم بكلا وبإظهار دقائق الخلق بتسوية البنان وبمهانة الابتداء بقوله "ألم يك من نطفة من منى يمنى ؟ " ومن ثم التذكير بصاحب القدرة على خلق هاتين العينين واللسان والشفتين الناطقين بتعالي تعبيراً عن هذه الدخيلة بدل من تواضعها لمُقَدِّرها وشكره ، بعد هذه الظنون نقف بالإنسان أمام أقواله التي ينطقها بذاك اللسان المخلوق المتعالي والذي لو عدمه لخر راكعا وأناب ، فيقول تعالى في ابتداء عرض هذه الأقوال في سورة مريم: " **وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (66) " (سورة مريم) .**

وهذا القول الأول يقع في الإطار الدنيوي والحياة الأولى والقول الثاني وبحسب الترتيب في سورة القيامة ، ويقع في الإطار الأخروي لحظة الروع من الأهوال : " **يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) " (سورة القيامة) .**

ويقع القول الثالث فيما بين القولين الأولين في عملية إبراز مفهوم الحياة في نظر الخالق وردود فعل الإنسان على هذا المفهوم في قوله تعالى في سورة الفجر:

" فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) " (سورة الفجر) ، ثم يتحدث الخالق في بقية آيات

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 354.

الفجر عن الإنسان ويضعه أمام حقيقته المستأثرة وأمام حقيقة الحياة ومفهومها مرة أخرى بربطها بمواجهته بأهوال القيامة.

وتأتي بعدها سورة البلد مباشرة بالإشارة أيضاً إلى تمطي هذا الإنسان ملء شدقيه وملء ذراعيه في إيضاح وتشديد على ما في سورة الفجر ولكن بسلوك القرآن طريق مختلف في قوله تعالى : **" يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) " (سورة البلد) .**

وفي نهاية المطاف تُزَلْزِلُ الآيات الأرض تحت أقدام هذا الإنسان ليقف مشدوها متسائلا عن زلزالها : **" وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) " (سورة الزلزلة)** ، سواء أكان هذا الزلزال حاضرا دنيويا مُعَاشاً أو كان زلزال النهاية الأخروية.

وقد عبر في آية مريم في المقالة الأولى للإنسان بصيغة المضارع **" وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (66) " (سورة مريم)** ، وذلك "... لـ إفادة الاستمرار التجددي فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور ، والهمزة للإنكار" [1].

وكما هو الحال في جميع الآيات فإنني دائما أؤيد وبشدة أن الإنسان المقصود لا شخص بعينه وإنما هو عموم الإنسان وكما قال القمي النيسابوري "وهو للجنس لأن هذا الاستغراب (أي من حشر الأجساد بعد الفناء) مركوز في الطباع قبل النظر في الدليل أو لأن هذا القول إذا صدر عن بعض الأفراد صح إسناده إلى بني نوعه لأنه منهم، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل واحدا منهم" ،[2] وكما في روح المعاني "وقيل الحق أن الإسناد إلى الكل هنا للإشارة إلى قلة المؤمنين بالبعث على الوجه الذي أخبر به الصادق، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين فتأمل" ،[3] وإن كان الأصح في رأيِّ هو أن هذا الإنسان سواء أكان كافرا أو مؤمنا يقع في دائرة هذه الأقوال بدرجات متفاوتة كما قد بيِّنت في مواضيع متفرقة من هذا البحث وان الترجمة العملية لهذه الأقوال في أفعال الإنسان حاصلــة بتفاوت فيما بينهم ، وفي هذه النقلة السريعة من المقالة الأولى إلى المقالة الثانيـة

في قولـه تعالى :

(1) روح المعاني للألوسي، المجلد الثامن، ص 433.
(2) تفسير غرائب القرآن، المجلد الرابع، ص 501.
(3) روح المعاني، المجلد الثامن، ص 433.

" **يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) " (سورة القيامة)** ، يلحظ المرء هذه الحكمة الإلهية لإيقاظه من غفلته بأن ينقله من موقف المستهتر المستهزء إلى موقف المدهوش المذهول الباحث عن الملجأ، وفي هذا التفاوت بين القولين ما يُغني عن الشرح ، فبعد الإشارات السريعة لأهوال يوم القيامة وبعد استهزاء الإنسان في سورة القيامة بقوله تعالى : " **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) " (سورة القيامة)** ، ويأتي الجواب الرادع أن لا ملجأ ولا مخبأ " **كَلَّا لا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) " (سورة القيامة)** ، والاستفهام في آية "أين المفر" "مستعمل في التمني ، أي ليت لي فرارا في مكان نجاة، ولكنه لا يستطيعه ، (وأين) ظرف مكان ، و(كلا) ردع وإبطال لما تضمنه "أين المفر" من الطمع في أن يجد للفرار سبيلا" [1] ، "والوزر: المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون ، فيجوز أن يكون "كلا لا وزر" كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى جوابا لمقالة الإنسان ، أي لا وزر لك، فينبغي الوقف على "المفر" ، ويجوز أن يكون من تمام مقالة الإنسان ، أي يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طمعه فيقول "كلا لا وزر" أي لا وزر لي وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلا النار كما ورد في الحديث فيحسن أن يوصل "أين المفر" بجملة "كلا لا وزر" [2] .

ومن الاستهزاء بالبعث في مقالته الأولى إلى محاولته الهروب منه في المقالة الثانية يضع الخالق الإنسان أمام رفضه لتبني مفهوم الحياة الأسلم ليعينه بهذا الموضع من إيجاد الملجأ لنفسه في الآخرة بتنبيهه للعمل الصالح في هذه الدنيا فيستقر به المقام عند ربه راضيا مرضيا.

ففي آياتي سورة الفجر تجد ذلك الإبداع في رسم معالم رؤية الإنسان المغلوطه لعلاقته بالوجود من حوله ومكانته في هذا الوجود فهو يضع نفسه مركزا له يتمحور حولها كل شيء حتى خالقه ، فعطاء الله يراه الإنسان نابعا من أهميته هو وأما منعه فما هو إلا محاولة لأخذ الثأر منه وإهانته ولا يرى مثل هذه الرؤية إلا متعجرف صلد ، ولذلك فالمنع عنده ما هو إلا

(1) التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر، ص 345.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر، ص 346.

محاولة للنيل من كبريائه ، غير أن مدارات الأمور تختلف بحسب السنن الإلهية وعلى هذا قال الكشاف "فإن قلت : هلا قال ، فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه ؟ قلت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة وأما التقتير فليس بإهانة له ، لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ، ولكن تركا للكرامة ، وإذا أهدى لك زيد هدية قلت : أكرمني بالهدية ، ولا تقول : أهانني ولم يكرمني إذ لم يهدك " [1].

هذا من ناحية وأما من الناحية الأخرى فقد رد الزمخشري شبهة أخرى في الآية بقوله مجيبا: "فإن قلت: فقد قال "فأكرمه" فصحح إكرامه وأثبته، ثم أنكر قوله "ربي أكرمن" وذمه عليه، كما أنكر قوله "أهانن" وذمه عليه، قلت فيه جوابان: 1- أنه أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته، وهو قصده إلى أن الله أعطاه إكراما له مستحقا مستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عنده كقوله " **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (78) " (سورة القصص)** ، وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه ولا سابقه مما لا يعتد الله إلا به، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها. 2- أن ينساق الكلام والذم إلى قوله "ربي أهان" يعني انه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه وإذا لم يتفضل عليه سمي ترك التفضل هوانا وليس بهوان ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله "فأكرمه" [2]، وان كان بعض المفسرين لا يرون ما ذهب إليه الزمخشري من جعله الإكرام غير مذموم واقتصار الذم على التقتير على اعتباره بالنسبة للإنسان عين الإهانة ، ولعلي أؤيد هذا الرأي فإن ذم الله تعالى لمقالتي الإنسان هاتين قائمة على هذا القصور الخاطئ لحقيقة الربوبية ، فهي مقالة ناشئة من الظن أن أمور الحياة من المنح والتقتير قائمة على المحاباة بين شخص وآخر فتارة يكرم فلان ويهين فلان ولعل ظنه أن الخالق يُقَسِّم العطاء بحسب المزاج دون السنن والثوابت الإلهية المرسومة بحسب هدف

هذا الوجود.

---

(1) الكشاف، المجلد الرابع، ص 753.
(2) الكشاف، المجلد الرابع، ص 75 3.

وهذا الظن وذاك لأن الإنسان يريد إنكار تواصل هذه الحياة بالحياة الآخرة ويريد أيضاً بمزاجه الفاسد أن يقصر العطاء بمعنى الثواب على هذه الدنيا والعذاب الذي أُنذر به بالآخرة على التقتير في الرزق على فرض تحققه كما قال تعالى عنه "أن لي عنده للحسنى" فتكون الإهانة له قد وصلت وحصل العقاب "وقد تضمن هذا الوهم أصولا انبنى عليها: وهي إنكار الجزاء في الآخرة وإنكار الحياة الثانية، وتوهم دوام الأحوال"[1]، وقبل هذا وذاك إنكار هدف الوجود وحكمته كما قلت سابقا فإنه قائم على أساس الابتلاء لا على أساس المحاباة بحسب المزاج فلا فرق إلا بالعمل الصالح بين الإنسان وأخيه الإنسان.

غير أن الإنسان رافض وبحزم أن يكون عرضة لعقاب شامل يوم القيامة بأن تكون حياته هنا مؤسسة على الابتلاء ، ولذلك يضع تصوره لخالقه في دائرة ضيقة تتناسب مع ما يريد هو لا ما مع يريد ربه ، فقوله هذا على الحقيقة لا المجاز كما قال ابن عاشور في التحرير: "والقول مستعمل في حقيقته وهو التكلم، وإنما يتكلم الإنسان عن اعتقاد. فالمعنى: فيقول ربي أكرمني، معتقدا ذلك ، ويقول: ربي أهانني ، معتقدا ذلك لأنهم لا يخلون عن أن يفتخروا بالنعمة أو يتذمروا من الضيق والحاجة" [2]، "وتقديم ربي على فعل "أكرمني" "وفعل أهانني" دون أن يقول أكرمني ربي أو أهانني ربي، لقصد تقوي الحكم، أي يقول ذلك جازما به غير متردد، وجملتا "فيقول" في الموضعين جوابان لـ (إما) الأولى والثانية، أي يَطَّرِدُ قول الإنسان هذه المقالة كلما حصلت له نعمة وكلما حصل له تقتير رزق" ،[3] ومع أن الآية في غاية الوضوح من أن الإكرام والتقتير في الرزق ابتلاء على ابتلاء فالإنسان بكل تعبيرات الآيتين يرفض وبشدة هذه الرؤية ، كما ترى ذلك في الآية اللاحقة في قوله **"كلا بل لا تكرمون اليتيم"** "فحرف (كلا) زجر عن قول الإنسان "ربي أكرمن" عند حصول النعمة ، وقوله "ربي أهانن" عندما يناله تقتير، فهو ردع عن اعتقاد ذلك فمناط الردع كلا القولين لأن كل قول منهما صادر عن تأول باطل ، أي ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلا على منزلته عند الله تعالى" [4]، وكما ذكر في الكشاف أن هذه الآية ما هي "إلا ردع للإنسان عن قوله الأول ثم

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 324.
(2) التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثون، ص 331.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 331.
(4) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 331.

قال بل هناك شر من هذا القول" ،[1] وهو رفض التواصل من الإنسان لأخيه الإنسان ولأخيه الأشد حاجة من الأيتام والمساكين ، فالإنسان الذي يريد أن يكون محورا للوجود لا يقف تصوره البدائي على خالقه بل أيضاً يتواصل من ثم إلى أخيه الإنسان الحاضر أمامه ولذلك ذكر أنه شر من ذلك بأفعاله، ينساق وراء شعوره معتبرا أن خالقه مثله تنبع رعايته بالآخر بحسب مزاج اليوم أو الغد "فمناط الردع جعل الإنعام علامة على إرادة الله إكرام المنعم عليه وجعل التقتير علامة على إرادة الإهانة، وليس مناطه وقوع الكرامة ووقوع الإهانة...

وبهذا ظهر أن لا تنافي بين إثبات إكرام الله تعالى للإنسان بقوله "فأكرمه" وبين إبطال ذلك بقوله "كلا" لأن الإبطال وارد على قصد الإنسان بقوله "ربي أكرمن" أن ما ناله من النعمة علامة على رضى الله عنه" [2].

فالمعنى إذن "إن لشأن الله في معاملته الناس في هذا العالم أسرارا وعللا لا يحاط بها، وأن أهل الجهالة بمعزل عن إدراك سرها بأقيسة وهمية ، والاستناد لمألوفات عادية، وان الأولى لهم أن يتطلبوا الحقائق من دلائلها العقلية ، وان يعرفوا مراد الله من وحيه إلى رسله ، وان يحذروا من أن يحيدوا بالأدلة عن مدلولها وان يستنتجوا الفروع من غير أصولها، وأما أهل العلم فهم يضعون الأشياء مواضعها، ويتوسمون التوسم المستند إلى الهدى ولا يخلطون ولا يخبطون" [3]. ولعل لب ابتلاء الإنسان حاصل مرتكز أكثر ما يكون من خلال إعطاءه مالا جما ، ولذلك كان الحديث في عملية الابتلاء بمنع العطاء مختص بتقتير الرزق ، وكان الحديث عن ما هو شر من قولهم بتصوير منعهم المال أيضاً عن الآخر، وقد تحدثت الآية اللاحقة عن حب الإنسان الشديد للمال بقوله تعالى: " **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً** " مما يُبْرِزَ للإنسان بطريقة أو بأخرى نقطة ضعفه في تصوره لخالقه الأعظم والأقوى، فهو يهينه كما يقول ويدعي بسحب المال من بين يديه ، وتَبْرُزُ نقطة ضعفه أيضاً في تصوره لعلاقته مع الآخر الضعيف بوقف مد يد العون إليه.فإن كان المبرر الإلهي للإكرام والتقتير أن جاز لنا التعبير بهذا هو

(1) الكشاف، المجلد الرابع، ص 754.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 331
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 331.

ابتلاء الإنسان فالسؤال الذي يطرح نفسه ما هو مبرر الإنسان لحرمان أخيه الإنسان وعدم الحض على إكرامه.

أن دائرة المال هي الدائرة الوحيدة التي يرضى الإنسان أن يتمحور حولها وان كان يريد أن يتمحور كل شيء من بعد ذلك حوله هو وسواء ادعى الإنسان عطائه المستفيض للمال كما في مقالته الرابعة في قوله تعالى " **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6)** " **(سورة البلد)** ، أو منعه كما بين عز من قائل في آيات الفجر: " **كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيم (17) ....** " **(سورة الفجر)** ، سيبقى هذا المال السبب الرئيسي أو السد المنيع بين الإنسان وبين ارتقائه في تصوراته عن خالقه وعلاقته مع بني جنسه من بعد، حتى تأتي لحظة الزلزلة فتكشف المخبوء وتُظْهِرُ صدق الادعاءات وتكشف الحقائق كما قال تعالى بعد قوله " **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)** " **(سورة البلد)** ، فلحظة الزلزلة هي لحظة ارتجاج الداخل الإنساني من كشف الأكاذيب والادعاءات فجاءت المقالة الخامسة في قوله تعالى في سورة الزلزلة: " **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5)** " **(سورة الزلزلة)** ، جاءت هذه المقالة تعبيرا عن انكماش الإنسان أمام زلزلة الأرض من تحت أقدامه فتبدى له ضعفه وهشاشته أمام لحظة الفناء وسرعة انقضاضها .

"ومعنى زُلْزِلَت حُركت تحريكاً شديداً حتى يخيل للناس أنها خرجت من حيزها لأن فعل زلزل مأخوذ من الزلل وهو زلق الرجلين ، فلما عنوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل ، كما قالوا : كبكبه ، أي كبه ولملم بالمكان من اللم" .[1]

"وأضيف (زلزالها) إلى ضمير الأرض لإفادة تمكنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها كقول النابغة:

أسائلتي سفاهتها وجهلا على الهجران أخت بني شهاب

أي سفاهة لها ، أي هي معروفة بها "،[1] وقد اختلف المفسرون بين قولهم أن هذه الزلزلة تعبير عن حركة الأرض المستمرة في معاش الناس عبر التاريخ بسبب من اضطراب طبقاتها

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 490.

الداخلية وبين القول عن انه زلزال النهاية الأخروية عند النفخة الثانية كما عبر عن ذلك الزمخشري " فأن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت: معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة وهو مشيئة الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده ونحو قولك: اكرم التقي اكرامه ، وأهن الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة". [2]

وعلى كلا الحالين فلا شك أن الزلازل التي مرت بها الأرض منذ الخليقة قد روعت الإنسان ولا زالت ، حتى لانه يقف مشدوهاً متساءلاً عند كل واحد منها كما في قوله تعالى: " **وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا** " ، "فالتعريف في الإنسان تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، أي وقال الناس مالها ، أي الناس الذين هم أحياء ففزعوا وقال بعضهم لبعض ، أو قال كل أحد في نفسه حتى استوى في ذلك الجبان والشجاع ، والطائش والحكيم ، لانه زلزال تجاوز الحد الذي يصبر على مثله الصبور" [3]

أما قول الإنسان "مالها" فقد قال الفخر الرازي "وهو ليس سؤال بل هو للتعجب ، لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الأذن ولا نطق بها لسان" . [4]

وفي التحرير: "(وقول مالها) استفهام عن الشيء الذي ثبت للأرض ولزمها لأن اللام تفيد الاختصاص, أي ما للأرض في هذا الزلزال ، أو مالها زلزلت هذا الزلزال, أي ماذا ستكون عاقبته. نزلت الأرض منزلة قاصد مريد يتساءل الناس عن قصده من فعله حيث لم يتبين غرضه, وإنما يقع مثل هذا الاستفهام غالباً مرادفاً بما يتعلق بالاستقرار الذي في الخبر مثل أن يقال: ماله يفعل كذا، أو ماله في فعل كذا ، أو ماله وفلاناً، أي معه فلذلك وجب أن يكون هنا مقدر، أي مالها زلزلت ، أو مالها في هذا الزلزال ، أو ما لها وإخراج أثقالها" ،[5] ثم تستمر الآيات في وصف الأرض بأنها **"يومئذ تحدث أخبارها.."** والتي تضع الإنسان أمام مواجهة الحقيقة سواء أكان هذا الزلزال تعبيراً عن واقع معاش عبر العصور أو زلزال النهاية الأخروية فهو يهز الإنسان وسيبقى يهزه ليقف مدهوشاً مذهولاً متعجباً متسائلاً عن سبب هذه

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 491.
(2) الكشاف، المجلد الرابع، ص 790.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 491.
(4) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص 59.
(5) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 492.

الحركة التي تفقده توازنه فتذكره بضعفه أمامها ، فما باله إذا كانت هذه الحركة الطبيعية قادمة إليه من موطنه الأرض بوحي إلهي وعبر إرادة عليا، فلا مناص للإنسان من أن يقف متدبراً لما يجري حوله بدلاً من الاستهزاء بالبعث تارة والإدعاء بإنفاق الأموال تارة أخرى ثم التعجب والتساؤل من أحوال مخلوقات الله كالأرض دون محاولة لإيجاد الحلول الواقعية للحظة المواجهة عندما

يقف مسلوب الإرادة عاري القدرة تشهد عليه جوارحه أمام خالقه دون وَزَرٍ ولا مفر.

المواجهة : الإنسان أمام نفسه يوم القيامة .

وآيات مواجهة الإنسان يوم القيامة خمس:

1 - "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13) (سورة الإسراء).

2- " يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) " (سورة القيامة).

3- " بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) " وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) (سورة القيامة).

4- " فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) " (سورة النازعات).

5- " وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) " (سورة الفجر).

هذه الآيات الخمس التي عَنَتْ أشد العناية بتصوير لحظة مواجهة الإنسان مع الخالق في اليوم العصيب حين لا تخفى خافية ولا تغيب شاردة ولا واردة فالذاكرة حاضرة تسترجع الماضي ولحظات الهداية والرفض والتعنت والغرور، هذه هي اللحظات التي تنتعش فيها الذاكرة فيقول فيها "يا ليتني قدمت لحياتي" أو يُسَرُّ أيما سرور بتلك المسؤوليات التي قام بأداء حقها ولعل أولها مسؤولية العودة بروحه إلى منبعها الأصيل راضية مرضية وعلى هذا فقد فسر المفسرون هذا الطائر في آية الإسراء الذي أُلزم به الإنسان في عنقه بأنه عمله من خير وشر يطير إليه يوم القيامة ورأيت أمراً غير ذلك اذكره بعد أن أورد معنى هذا الطائر تحت مادة طير من مفردات الراغب الأصفهاني : "والطائر: كل ذي جناح يسبح في الهواء، يقال: طار

يطير طيراناً، وجمع الطائر: طير (من الحاشية قال : " في اللسان : والطير اسم لجماعة ما يطير ، مؤنث والواحد طائر ، والأنثى ، طائرة) كراكب وركب . قال تعالى: " **وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ (38)** " **(سورة الأنعام)** ، " **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً (19)** " **(سورة صّ)** ، " **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ (41)** " **(سورة النور)** ، " **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ وَالطَّيْرِ (17)** " **(سورة النمل)** ، " **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ (20)** " **(سورة النمل)** ، وتطير فلان ، واطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل في كل ما يتفاؤل به ويتشاءم ، "وقالوا : **إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ (18)** " **(سورة يّس)** ، ولذلك قيل : لا طير الا طيرك" ، وقال تعالى: " **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا (131)** " **(سورة الأعراف)** أي يَتَشاءَمُوا به " **أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ (131)** " **(سورة الأعراف)** ، أي: شُؤْمُهُمْ : مَا قَدْ أَعَدَّ الله لهمْ بِسُوءِ أَعَمالِهِمْ . وعَلَى ذلك قولُـهُ: " **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (47)** " **(سورة النمل)** ، " **قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19)** " **(سورة يّس)** ، " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ (13)** " **(سورة الإسراء)** . أي عَمَلَهُ الذي طَارَ عنه مِنْ خَيرٍ وشَرٍ ، ويُقالُ : تَطَايروُا : إذا أسرعوا ، ويُقالُ: إذا تَفرَّقُوا ، قال الشاعر:

قومٌ إذا الشرُّ أبدىَ ناجذيه لهم   طَارُوا إليهَ زرافَاتٍ وَوحْدانا

وَفَجْرٌ مُسْتَطِيرٌ أي فاشٍ- قال تعالى " **وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7)** " **(سورة الإنسان)** ، وفَرَسٌ مُطارٌ للسريع ولِحديدِ الفُؤادِ ، وخُذْ ما طَارَ مِنْ شعَرِ رأسِكَ ، أي : ما انتشر حتى كأنه طار".(1)

ومن هنا نلحظ أن كلمة طير تعبر عن ما يطير محلقاً أو ما ينتشر في الأجواء ويتفشى وقد فسر أغلب المفسرين هذا الطائر بالعمل الذي يطير للإنسان ، واذكر ما قاله الآلوسي: في قوله تعالى " **أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ (13)** " **(سورة الإسراء)**،"أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له خيراً كان أو شراً كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر"،(2) كما فسر قوله "في عنقه" بأنه "تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط، وتخصيص العنق لظهور ما عليه من زائن كالقلائد والأطواق أو شائن كالأغلال والأوهاق لأنه العضو الذي يبقى مكشوفاً يظهر ما

(1) الراغب الاصفهاني، ص 529.
(2) روح المعاني، الآلوسي، المجلد الثامن، ص 30.

عليـه وينسـب إليه التقدم والشرف ويعبـر بـه عـن الجملـة وسيد القوم ، فـالمعنى ألزمنــاه عملـه بحيث لا يفارقه أبداً بل يلزمه لزوم القلادة والغل لا ينفك عنه بحال" [(1)] .

أمـا مـا ذكـره الفخـر الـرازي فـي تفسيره للآيـة فـأكثر إيضاحاً وأشد قرباً للمعنـى الـذي أرتأيـه حيث أن هـذه الآيـة لازمنــي التفكيـر فيهـا مـن بدايـة دراسـتي وعملـي فـي هـذا البحـث وحيرتنـي طبيعـة نسيجها ومعـاني كلماتهـا ولعلـي خرجت بخلاصـة تتضح معانيهـا بعد قـراءة شرح تفسير الرازي إلى أن الطائر المقصود في الآية والذي يُلـزم بـه الإنسان هو روحـه وهـو شيء يتفشى وينتشر فـي الجسد ثم يعود يطير فيحلق عند الانفصال عن البدن خاصـة إذا مـا لاحظنا التعبير في قوله تعالى "ألزمناه" فالإنسان ملزم بهذا الطائر مسؤول عنـه وعـن الحفـاظ عليه ثم في قوله تعالى "في عنقه" وما في ذلك من تشابه مع قوله تعالى "ونعلم ما توسوس بـه نفسه ونحن اقرب إليه من حبل الوريد" وقد قمت بشرح هذه الآيـة وبينت أن فيهـا معنـى خفـي بوجود النفس أو حالة الامتزاج بين النفس والروح ووجودهما معا وحركتهما في مجـاري حبـل الوريد الذي أساسه في العنق ، مما يشابه هذا الطائر الذي أُلزم به الإنسان فـي عنقـه خاصـة إذا علمنا أن العنق هو مقتل بالنسبة للإنسان فقد يعنـي هذا بطريقـة أو بـأخرى أن هذا الطـائر هو الروح الذي قد أُلزم به الإنسان وسُئل عن الحفاظ عليه نقياً صـافياً ، ثـم أن بقيـة الآيـة هنـا فـي الإسـراء فـي قولـــه تعــالى: " **وَنُخْـرِجُ لَـهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كِتَابـاً يَلْقَـاهُ مَنْـشُوراً 13) " (سـورة الإسراء)** ،مع ما فسره الرازي من احتمالية أن هذا الكتـاب هو النفس المنقوش عليها أعمـال الإنسان يُظهر لنا هذا الامتزاج بين النفس والروح بطريقة لا نعلمها كمـا يُظهـر لنـا مسؤولية الإنسـان فـي الحفـاظ علـى هـذه الـروح أو هـذه الـنفس الممتزجـة بـالروح فـي مستوى تطلعاتهـا العلوية لتعود إلى ينبوعها ومصدرها بذات النقاء الأول الذي نفخت به فهو مُلزم بهـا ومسؤول عنها لإيصالها إلى أصولها العلوية في جنان الخلد راضية مرضية.

واقدم هنا شـرح الرازي وافياً للآية الثالثة عشر في سورة الإسـراء في قولـه تعـالى : " **وَكُلَّ إِنْسَـانٍ أَلْزَمْنَـاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِـهِ وَنُخْـرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَـاهُ مَنْشُوراً (13) " (سورة الإسراء).**

---

(1) روح المعاني، المجلد الثامن، ص 31.

" في تفسير لفظ (الطائر) قولان :

1- أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير وإلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه ، أو يحتاج إلى إزعاجه ، وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة ، فلما كثر ذلك منهم سمى الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره ، قوله تعالى في سورة يس "قالوا انا تطيرنا بكم" إلى قوله "قالوا طائركم معكم" فقوله "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" أي كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه ويدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد (ألزمناه طيره في عنقه) .

2- القول الثاني: قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت ، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر ، والتحقيق في هذا الباب انه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم ، والعمر والرزق ، والسعادة والشقاوة ، والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وان ينحرف عنه ، بل لا بد أن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية ، فتلك الأشياء المقدرة كأنها تطير إليه وتصير إليه ، فهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر ، فقوله "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" كناية عن أن كل ما قدره الله ومضى في علمه حصوله ، فهو لازم واصل إليه غير منحرف عنه ، واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم .

وتقريره من وجهين:

1- إن تقدير الآية : وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه، فبين تعالى أن ذلك العمل لازم له ، وما كان لازماً للشيء، كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود.

2- الوجه الثاني: انه تعالى أضاف ذلك الإلزام إلى نفسه ، لان قوله (ألزمناه) تصريح بان ذلك الإلزام إنما صدر منه، ونظيره قوله تعالى: "والزمهم كلمة التقوى" وهذه الآية دالة على انه لا

يظهر في الأبد إلاّ ما حُكِمَ به في الأزل ، والإشارة بقوله عليه السلام : "جف القلم بما هو كائن" والله أعلم. [1]

وأقف هنا قليلاً لاعترض على بعض ما جاء في كلام الرازي مما يوحي أن "ما قدره الله للإنسان فهو لازم واصل إليه" يدل بشكل ما على الجبرية فكأن الإنسان إذا فسرنا الطائر بالأعمال كما قال مجبور على هذه الأعمال لا مفر من ذلك ، فالإلزام بلا شك مضاف إليه تعالى ولذلك أؤكد من هنا أن هذا الطائر هو الروح الإنساني وليس العمل، اُلزم بها الإنسان فهو مجبور بتحمل مسؤوليتها بعد أن نفخت فيه والإبقاء عليها صافية نقية كما شرحت من قبل في الفصول السابقة في بند نفخة الروح .

ثم ان في شرحه لقوله تعالى "في عنقه" يتوائم مع ما ذكرته من شرح الآلوسي ففي قوله " "في عنقه" " كناية عن اللزوم كما يقال: جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل والزمتك الاحتفاظ به ، ويقال : قلدتك كذا وطوقتك كذا ، أي صرفته إليك وألزمته إياك ، ومنه قلده السلطان كذا ، أي صارت الولاية في لزومها في موضع القلادة ومكان الطوق ، ومنه يقال : فلان يقلد فلاناً أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة في عنقه" .[2]

ولعل هذا ما يؤيد تقليد الإنسان أو إلزامه الروح فلا فكاك له عنها واما شرحه لقوله تعالى: **" وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13) " (سورة الإسراء)** ، فقد ذكر في شرحه ان الإخراج قد يكون من قبره ، " يجوز ان يكون معناه: نخرج له ذلك لانه لم ير كتابه في الدنيا فإذا بعث اظهر له ذلك واخرج من الستر" ،[3] والكتاب كما قال: "قال الحسن: يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى إذا ما طويت صحيفتك جعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة" .[4]

ولكنه عاد ليتوسع في شرح هذه الآية باعتبار ان النفس هي بحد ذاتها تمثل كتاب الإنسان وصحيفته في شرح لطيفُ مقنع ، فقال : "ان التجربة تدل على ان تكرار الأعمال

---

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء التاسع عشر، ص 167-168.
(2) التفسير الكبير للرازي، الجزء التاسع عشر، ص 168.
(3) التفسير الكبير، للرازي، الجزء التاسع عشر، ص 168.
(4) نفس المرجع السابق، ص 168.

الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسية الراسخة في جوهر النفس، الا ترى ان من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظاً، ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له.

إذا عرفت هذا فنقول: لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب ان يحصل لكل واحد من تلك الأعمال اثر ما في جوهر النفس، فإنا لما رأينا ان عند توالي القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة وان كان ضعيفاً قليلاً، وان كانت الكتابة أيضاً في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها مُعَرَّفات لألفاظ مخصوصة، فعلى هذا: دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت، ممتنعة الزوال، كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والإصطلاح .

وإذا عرفت هاتين المقدمتين فتقول: ان كل عمل يصدر من الإنسان كثيراً كان أو قليلاً ، قوياً كان أو ضعيفاً ، فانه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الإنسانية اثر مخصوص. فإذا كان ذلك الأثر أثراً لجذب جوهر الروح من الخَلق إلى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات، وان كان ذلك الأثر أثراً لجذب الروح إلى الاشتغال بالخَلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان ، الا إن تلك الآثار تخفى ما دام الروح متعلقاً بالبدن ، لان اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الأحوال وتجليها وظهورها ، فإذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام: "من مات فقد قامت قيامته" ومعنى كون هذه الحالة قيامه ان النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلى ، فإذا انقطع ذلك التعلق، قامت النفس وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوي، فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامه، ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء ، وقيل له " **فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** " ، وقوله: " **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً** " معناه: ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتاباً مشتملاً على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الأحوال الدنيوية ، ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشورا ، لان الروح حين كانت في البدن كانت هذه الأحوال فيه مخفية فكانت

كالمطوية ، أما بعد انقطاع التعلق الجسماني ظهرت هذه الأحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد ان كانت مطوية ، وظاهرة بعد ان كانت مخفية، وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة " **اقْرَأْ كِتَابَكَ** " ، ثم يقال لـه " **كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً** " فـان تلك الآثار ان كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لا محاله ، وان كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لا محاله ، فهذا تفسير هذه الآية بحسب الأحوال الروحانية. (1)

"ومعنى (يلقـاه) يجده ، استعير فعـل يلقى لمعنى يجد تشبيهاً لوجدان النسبة تلقاء

الشخص ، والنشر كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله". (2)

ولا شك أن الآيـة فـي سياقها تحتـاج منـا إلـى زيـادة بحث وهـي بحد ذاتهـا تـصلح لان تكون دراسة تقوم على استقراء لكلمة الروح والإلزام والطائر في القرآن للوصول إلى حقيقة المعاني مما لا يسعني القيام به هنا ، ولكني اكتفي بهذا القدر بوضع هذه الاحتمالية أمام العيان، فقد يجد المرء للوهلة الأولى تناقضاً أو اختلافاً فعلى سبيل المثال كنت قد ذكرت في الفصول السابقة في شرح موضوع الأمانة ان عرض الأمانة في أحد أوجهه يمثل عرض الروح وخيار الإنسان بقبول هذه الروح ، وهنا يظهر الأمر معاكساً حيث يُلزم الإنسان بها على تفسير الطائر بالروح ، ولكننا بنظرة سطحية للمسألة قد نجيب على ذلك القول ان الإلزام حدث بعد القبول بعد ان اختـار الإنسان هذا الأمانة وقبلها اصبح مُلزماً بأداء حقوقها ، وهناك الكثير مما يمكن قوله في هذا الموضوع ولكنه مما يجدر الإشادة به هنا هذا العمق الذي فسر بـه الرازي الآية وما لها من صلة بموضوعنا حيث تقع عملية مواجهة الإنسان لكتابه يوم القيامة أو قل مواجهة الإنسان لنفسه بكل آثار أفعالها ويا له من موقف تقشعر لـه الأبدان وتـصل بـه القلوب الحناجر ، ولكنها الحقيقة التي يضعها الله عز وجل أمام الإنسان حتى يعطيه الفرصة لنقش النقوش الصالحة على هذه النفس قبل ان يواجهها كالمرآة المصقولة بكل الصور الدنيوية المتلاحقة التي تشهد عليه فلا عذر بعد ذلك ولا اعتذار ومن هنا جاءت آيات سورة القيامة في

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء التاسع، ص 169-170.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر ، ص 48.

قولـه تعالى: " **يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) " (سورة القيامة)** ، دليلاً صارخاً على هذه المواجهة التي تغمر الإنسان حيثما دار أو استدار فـ "يومئذ" وبحسب آيات القيامة تعود بنا إلى يوم القيامة لحظة الإخبار عن الأعمال حيث يسأل في الآية السادسة عن يوم القيامة فيُجيب الله تعالى بما لا يدع مجالاً للشك ان المقصود بيومئذ هو يوم القيامة، يقول تعالى: " **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) " (سورة القيامة)** ، ثم تضرب الآيات إضراباً انتقالياً باستخدام كلمة (بل) في الآية الرابعة عشر للإخبار عن قدرات الإنسان الإدراكية سواء في ذلك اليوم أو في الحياة الدنيا ووعيه بكل ما يقوم به من الأعمال ، ولعل هذه الآية أيضاً تساند آية الإسراء من وجه آخر حيث ان الإنسان يُبصر نفسه وأعماله المنقوشة فيها يوم الحساب ولو حاول جاهداً إلقاء المعاذير والحجج والتبريرات لتلك الأعمال فهو أمام شريط حيوي يريه نفسه بكل سكناتها وحركاتها وأنفاسها بما يمنع قبول هذه الأعذار من قبل خالقه .

ومن اللطائف هنا ما يلي هذه الآية من قوله تعالى: " **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) " (سورة القيامة)**, فمع اختلاف المناسبة حيث يُوَجْهَ الرسول عليه السلام إلى عدم استعجال حفظ القرآن ألا أننا نجد في تعبير حركة اللسان شيئاً من المناسبة في تحريك الإنسان لسانه لإلقاء أعذاره عن أفعاله ، أما إذا كانت الآية تتحدث عن الحالة الدنيوية وأنه بصير على أعماله فيها ، فهي أيضاً تمنع الاعتذار عن الأفعال لحظة لا ينفع فيها الندم حيث ان الإنسان قد ملك من القدرات العقلية والنفسية ما يؤهله لإدراك ووعي كل تصرفاته فهو يتصرف عن بيِّنة ودِراية لا عن حمق وبلاهة، فالإنسان بصير بما يقوم به عامد إليه عن إرادة وقصد سواء كان عمله ذاك خيراً أو شراً قدمه وعمله أو أخره فلم يعمله ، ففي قوله "بما قدم وأخر" : "ما تركه

مما أُمر بفعله أو نُهي عن فعله في الحالين ، فخالف ما كُلِفَ به" ، [1] وفي غرائب القرآن: "وأخر فلم يعمله ، وعن مجاهد : بأول عمله وآخره أي بجميع أعماله " .[2]

"ثم بين إن الإنسان لأعماله بصيره وان لم ينبأ بها فقال "بل الإنسان على نفسه بصيره" أي حجة بينة" ،[3] وهذا ما يؤكد ان الآية تحتمل الوجهين : بصيره على نفسه في الدنيا وأيضاً في الآخرة فيمكن القول أنها تقصد وعي الإنسان لاعماله في الحياة الدنيا وهو الذي قد هُدِيَ النجدين "وذلك لانه يعلم بالضرورة أنه متى رجع إلى عقله إنَّ طاعة خالقه واجبه وعصيانه منكر فهو حجة على نفسه بعقله السليم" .[4]

وذُكِرَ الوجه الآخر من أن الإبصار هو حال القيامة ، و"قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل : ان المراد شهادة جوارحه عليه وقوله "ولو ألقى معاذيره" تأكيد ، أي:

ولو جاء بكل معذرة يحاج بها عن نفسه فإنها لا تنفعه لانه لا يخفي شيئاً من أفعاله

فإن نفسه وأعضاءه تشهد عليه " .[5]

أما كلمة معاذير: فـ "عن الضحاك والسدي ان المعاذير جمع معذار وهو الستر ، والمعنى: انه ان أسبل السُتور لن يخفي شيء من عمله. قال جار الله : ان صح هذا النقل فالسبب في التسمية ان الستر يمنع رؤية المتحجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب". [6]

ولكنها اللحظة التي لا ينفع فيها شيء, اللحظة الفاصلة التي أنهت كل الفرص، فما عادت هنالك طُرق للعودة إلى هذه الدنيا والعمل فيها، اللحظة التي يتذكر فيها الإنسان بعد كل هذه المشاهدات الحاضرة أمامه سعيه ، حيث تعود به الصور المتناثرة أمامه إلى الذاكرة فتصبح الذاكرة حية منتعشة تستلهم من الرؤى وقائع قد حدثت وأفكار قد تبلورت إلى أعمال قد أنجزت ، هنا يقول تعالى: فيما تبقى من آيات مواجهة الإنسان لنفسه ولخالقه ولمصيره المحتوم يوم القيامة هنا يقول تعالى في التذكير بلحظة تخيب فيها الآمال ويتوقف عندها

(1) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين، ص 346.
(2) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 402.
(3) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 402.
(4) نفس المرجع السابق، ص 402.
(5) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 402.
(6) نفس المرجع السابق، ص 402.

الطموح " **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) "(سورة النازعات) " وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) " (سورة الفجر) .**

وهي الطامة ، الطامة الكبرى عندما يحار الإنسان بذاكرته فلا تسعفه الا ندماً ولا تنفعه الا هولاً قد جيئ به وأحضر فماذا لو تذكر وماذا لو تدبر فلا عودة ولا رجوع فالسد منيع وقد أحضر العذاب "وانما اقتصر على ذكر جهنم لان المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا وإلا فإن الجنة محضرة يومئذ قال تعالى "وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين " .[1]

ولعل الإتيان بجهنم هنا لاقحام صورة العذاب على هذه النفس الإنسانية الان وهنا في الحياة الدنيا فيتصور موقفه مذهولاً مدهوشاً فيتعظ قبل ان لا تنفعه ذكرى ولا تنقذه من عذاب ويحترق الظلم في ضميره قبل ان يحترق ضميره في هاتيك النيران .

"وأنى اسم استفهام بمعنى: أين له الذكرى ، وهو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، والكلام على حذف مضاف والتقدير: وأين له نفع الذكرى"،[2] وإلا فإنه كما قال في التفسير الكبير قوله: (وأنى له الذكرى) "أن بين قوله "يتذكر" وبين قوله "وانى له الذكرى" تناقضاً فلا بد من إضمار المضاف والمعنى ومن اين له منفعة الذكرى".[3]

ومن هنا نقف على هذه الإرادة الإنسانية التي آلت بالإنسان إلى هذه الطامة النفسية يوم الطامة الكبرى ،هذه الإرادة إرادة الفجور فيه التي حيرته في الدنيا وهو يلهث وراءها دون ان يعي سننها في الابتلاء وخَسَّرَتهُ في الآخرة نصيباً كان له مفروضاً، لو قرأ آيات موجزة في كتاب الله وُضعت له تُبَصِرُهُ بطبيعة الصورة وتجعلها أمام ناظريه قبل ان يحضر هو أمام النيران فيحترق كما احترقت كل الصور والذكريات ولا يبقى إلا الحقيقة التي رسمها الإله عن الحياة .

إرادة الإنسان وشدة كفره : -

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 338.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 339.
(3) التفسير الكبير للرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 174.

" **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) " (سورة القيامة)** .

هكذا وبكل صراحة الكلمة وبكل بساطتها وبداهة معانيها تضع آية القيامة الإنسان أمام إرادته بتعبيرات دقيقة موجزة في آية وحيدة يتيمة تجمع بين كلمة الإنسان وإرادته في هذا الدستور الشامل تدلل على عزم هذا الإنسان للاستمرار في هذا الفجور والاستمراء فيه فهي إرادة للفجور المطلق بكل أبعادها المستقبلية قد طغت واستحكمت.

" و(بل يريد) عطف على "أيحسب الإنسان الن نجمع عظامه" فيجوز فيه أن يكون إيضاً استفهاماً كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر، ويجوز أن يكون إيجاباً كأنه استفهم أولاً ثم أتى بهذا الإخبار ثانياً" ،[1] وفي التحرير "بل إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم ، فموقع الجملة بعد (بل) بمنزلة الاستئناف الابتدائي للمناسبة بين معنى الجملتين ، أي لما دعوا إلى الإقلاع عن الإشراك وما يستدعيه من الآثام وأنذروا بالعقاب عليه يوم القيامة كانوا مصممين على الاسترسال في الكفر" ،[2] "والفجور: فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب ، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة" .[3]

والفجور في الراغب تحت مادة فجر تأتي بمعنى الشق، فالفجر: "شق الشيء شقاً واسعاً كفجر الإنسان السكر (سكر النهر، ما يسد به)..

وقوله: " **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) " (سورة القيامة)** ، أي: يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها، وقيل: معناه ليذنب فيها.

وقيل معناه يذنب ويقول غداً أتوب، ثم لا يفعل فيكون ذلك فجوراً لبذله عهداً لا يفي به.

وسمي الكاذب فاجراً لكون الكذب بعض الفجور.

وقولهم: "ونخلع ونترك من يفجرك" أي: من يكذبك.

---

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثلاثون، ص 218.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين، ص 341.
(3) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين، ص 341.

وقيل: من يتباعد عنك" ،[1] "وقولـه (يريد الإنسان) يجوز ان يكون إخباراً عما في نفوس أهل الشرك من محبة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور، ويجوز ان يكون استفهاماً إنكارياً موافقاً لسياق ما قبله من قوله "أيحسب الإنسان الن نجمع عظامه" .[2]

"واللام في قوله (ليفجر) هي اللام التي يكثر وقوعها بعد مادتي الأمر والإرادة نحو "وأمرت لأعدل بينكم" "يريد الله ليبين لكم" وقول كثير:

أريد لأنسى حبها فكأنما تمثل لي ليلى بكل مكان

وينتصب الفعل بعدها بـ (أن) مضمرة ، لأنه أصل هذه اللام لام التعليل، ولذلك قيل هي لام التعليل ، وقيل زائدة" .[3]

"وأمام: اصله اسم للمكان الذي هو قبالة من أضيف هو إليه وهو ضد خلف، ويطلق مجازاً على الزمان المستقبل ، قال ابن عباس : يكذب بيوم الحساب ، وقال عبد الرحمن بن زيد : يكذب بما أمامه فقط وضمير "أمامه" يجوز ان يعود إلى الإنسان، أي في مستقبله ، أي من عمره فيمضي قدماً راكباً رأسه لا يقلع عما هو فيه من الفجور فينكر البعث فلا يزع نفسه عما لا يريد ان يزعها من الفجور، وإلى هذا المعنى نحا ابن عباس وأصحابه ، ويجوز ان يكون "أمامه" أطلق على اليوم المستقبل مجازاً وإلى هذا نحا ابن عباس في رواية عنه وعبد الرحمن بن زيد ويكون (يفجُر) بمعنى يكذب ، أي يكذب باليوم المستقبل " .[4]

وليس بين المعنيين فارق كبير ولكني أؤيد القول بأن الآية تعبر عن إرادة الإنسان الانفلات من كل قيد والانطلاق بحريات لا يحدها حد إلى تلبية كل شهوات النفس ورغائبها ،ثم هو بعد ذلك يسأل متهكماً عن هذه القيامة التي يرفضها حتى لا يتوقف عن فجوره الثَّمل ، فيعبُّ في كل زمان ومن كل مكان دون توقف أو هوادة، ومن هنا قال تعالى في الآية اللاحقة "يسأل ايان يوم القيامة" وعلى تفسير التحرير حالين: "انه يجوز أن تكون هذه الجملة متصلة

---

(1) مفردات الراغب، الاصفهاني، ص 626.
(2) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين، ص 342.
(3) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين، ص 342.
(4) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون ، ص 342-343.

بالتي قبلها على أنها بدل اشتمال منها لان أرادته الاسترسال على الفجور يشتمل على التهكم بيوم القيامة أو على أنها بدل مطابق على تفسير "يفجر أمامه" بالتكذيب بيوم البعث. [1]

وأؤيد الرأي الأول كما في قوله في غرائب القرآن "ومعنى: "ليفجر أمامه" ليدوم على فجوره في الأوقات التي بين يديه وهي المُستقبله .

قال أهل النظم: وإن انكار البعث يتولد تارة عن الشبهة بان يستبعد اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وتلاشيها، وأخرى من التهور بان ينكر المعاد باسترسال الطبع والميل إلى الفجور فأشار إلى الجواب عن الشبهة بقوله "أيحسب الإنسان" إلى قوله "بنانه" وانكر على الثاني بقوله "بل يريد" ان يكذب بما أمامه من البعث والحساب لئلا تنتقص عنه اللذات العاجلة"،[2] وإنه لمما أثار عجبي في آيات هذه الدراسة ان لفظة الإنسان في المواضيع المختلفة تأتي في مجموعة من الآيات ، فموضوع العجلة مثلاً جاءت في اكثر من آية وموضوع علاقة الإنسان بالشيطان كذلك وما شابهه كثير ، الا موضوع إرادة الإنسان فقد جاء هذا الموضوع متعلقاً بلفظ الإنسان مرة واحدة.

ولعلها من جوامع الكلم القرآني ، فالآية مع شرحها هنا يصعب شرحها ، فهي من السهل الممتنع تقر في نفسك المعنى ولكنك لا تستطيع الإشادة به فهو أكبر مما يسع لسانك ان يتلفظ به أو ان ينطق ببيانه وعلى العكس تماماً فإن شرح المعنى يذهب بجوهر الآية وتأثيرها وسبحان الله العظيم جل شأنه وعز أمره كيف يضع الصورة أمام الإنسان بليغة يفهمها ويفهم مراميها وهو صاحب النجدين حتى لا يبقى له على الله حجة.

فعجز هذه الجوارح عن الإتيان بمعاني الآية وتَشَرُّبُ القلب لحقائقها لهو بحد ذاته

النذير الذي ليس بعده عذر، فهذا الإنسان لا يرفض الخالق ولا يرفض البعث ولا يرفض الحقيقة ولكنه يرفض الانضباط ويريد الفجور الآن وفي العاجلة لا الاستقامة والانتظار ، ومن هنا فهو رافض لكل شيء يقف أمام انطلاقته الفاجره .

(1) التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرون، ص 343.
(2) غرائب القرآن، المجلد السادس، ص 400.

ومن هذا المنطلق أضفت إلى هذا الباب آيات تشدد على شدة كفر هذا الإنسان حيث ينطلق بفجوره إلى أقصى الحدود التي لا يتصورها عاقل ولا حتى غير عاقل من حجر أو شجر فلا أحد ولا صنف في هذا الكون الفسيح يقدر أو يرغب في الخروج عن دائرة الخضوع للخالق العظيم!! فكيف بالتطـاول عليه عز وجل في قوله تعالى في سورة الزخرف ، وهو زخرف الفجور أعمى تلك القلوب حتى أثبتت له جزءاً وهيئة مخصوصة بقولـه تعالى: " **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) " (الزخرف)** ، ثم وكأنه يأتي بالرد حاسماً نافذاً في سورة عبس في قولـه تعالى: " **قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) " (سورة عبس)** ، وتستمر الآيات في السورة حتى يوقف الخالق الإنسان أمام صورة جديدة للبعث والنشوء من ابسط الأمثلة الواقعة بين يدي الإنسان ذاته فيقول عز وجل " **فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) " (سورة عبس)** ، ثم يضعه أمام الحقيقة الإجمالية : " **إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) " (سورة العصر)** ، وفي نفس الآية يرسم الطريقة العملية للنجاة بذكر الناجين من هذا الخسر واستثناءهم من هذا الجنس الإنساني المتمرد بقوله " **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " (3) (سورة العصر)** ، ومع أني قد أوردت في باب الإنسان الهلوع موضوع الكفر وما اختص به ذلك المعنى من كفر النعمة وموقف الإنسان من العطاء والمنع إلا أن هذه الآيات وخاصة آية الزخرف ترتبط بإرادة الإنسان الفجور من منطلق إرادته الهيمنة حتى في وضع تصور للخالق ووضعه في الإطار الذي يرتضيه ، ليُسخِفَ من قيمة هذا الإله ومن قيمة العبودية له ، فيصبح هو المتحكم المهيمن على المسارات جميعها.

وإذا كانت صفات الخالق ستخضع لتصورات الإنسان ورؤاه فلم يعد للخالق إذن إرادة عليا توقف الطغيان وتَبتر الإقدام على الفجور وتتوعده بالحساب, وهذا هو أشد الكفر وأشد الفجور ومن هنا بدت آية الزخرف محاطة بمجموعة من اعترافات الفطرة الإنسانية بخالق الكون ونعمه المستحقة الشكر, بعد ذلك بينت عجز الإنسان عن بسط تصوراته الخاصة عن خالقه فهو في دائرة ما لا يحق له ما دام لم يَخْلِق نفسه ولم يُنْعم عليها بوجودها بقوله تعالى قبل الآية موضوع الدراسة:

" **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14)** " **(سورة الزخرف)**, فتبدأ هذه الآيات باعترافهم بخلق العزيز العليم وتنتهي بإرشادهم إلى تسبيح الله وتنزيهه عند الحديث عن القدرة على صناعة ما يُسَهِّل عيشهم وينقلهم من مكان إلى آخر في معاشهم اليومي ثم تذكيرهم بأنهم إليه منقلبون وتلك هي فرصتهم الأخيرة ، لكن المفاجأة أن " **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15)** " **(سورة الزخرف)** ، "والجعل هنا معناه: الحكم على الشيء بوصف حُكماً لا مستند له فكأنه صُنِع باليد ، والصنع باليد يطلق عليه الجعل" .[(1)]

والمراد من قوله "وجعلوا له من عبادة جزءاً " ، قولان على ما قاله الرازي : "1- وهو المشهور انهم اثبتوا له ولداً وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه قال عليه السلام "فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها" ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزءاً من أجزائه ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل ، وإذا كان فولد الرجل جزء منه وبعض منه ، فقوله "وجعلوا له من عباده جزءاً" معنى جعلوا حكموا واثبتوا وقالوا به والمعنى انهم اثبتوا له جزءاً وذلك الجزء هو عبد من عباده...

2- في تفسير الآية أن المراد إثبات الشركاء لله وذلك لأنهم لما اثبتوا الشركاء لله فقد زعموا أن كل العباد ليس لله, بل بعضها لغير الله, فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم ، بل جعلوا له بعضهم وجزءاً منهم ، وقالوا والذي يدل على هذا القول أولى من الأول ، أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله وحملنا الآية التي بعدها على إنكار

الولد لله, كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين". [(2)]

(1) التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص 177.
(2) التفسير الكبير للرازي، الجزء السابع والعشرون، ص 201.

وما يعنيني في هذا المقام هو هذا الكفر البواح لا من خلال إثبات الشريك لله أو من خلال إثبات بنوة الملائكة له في الآيات اللاحقة ولكن من خلال إثبات هذا العنت الإنساني والوقاحة المدججة بالتناقضات بإعطاء الحق للنفس بان تحدد صورة الخالق وصفاته فتثبت له هذا وتنفي عنه ذلك، أما لما تنفلت الفطرة من عقارها يعترف الإنسان بخالقه في قوله: "ولئن سألتهم.." ثم يعود أدراجه ليُحَجِّم صورة الخالق لينطلق عابثاً فيجعل له جزءاً من عباده في قوله: "وجعلوا له من عباده.." ويزداد تناقضه لما يختار لهذا الخالق جزءاً هو ذاته يراه جزءاً مشوهاً بجعل هذا الجزء بناتُ محَّلات بالزينة لا يقدرن "على جدال ولا قتال، بينما هم في بيئتهم يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال" ،[1] في قوله " **أمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)** " **(سورة الزخرف)** ، إلى آخر الآيات ، حتى يصل بهم كفرهم البواح هذا عند قوله تعالى " **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)** " **(سورة الزخرف)** ، فيعترفون بلسان حالهم بما جنحت به نفوسهم من التناقضات والبله إنما هو التقليد الأعمى للسلف في قوله " **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)** " **(سورة الزخرف)** ، فهو الفجور الأعمى الذي اهتدى بفجور السلف ، ويا لها من تراكمات من الكفر والتناقض من ماضي عميق يريد الإنسان أن يرعاها لأنها ترعى بدورها شهواته وغروره " **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)** " **(سورة الزخرف)** ، فلا مجال لهدايتنا ، انه قرار موصول من الماضي السحيق إلى ما أمامنا من أيام وأعمار .

ولذلك جاءت آيات عبس في سورة العتاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على توليه وعبوسه عن ابن أم مكتوم واندفاعه الجامح لعلية القوم رغبة منه عليه السلام في إقناعهم بمنطق هذه الرسالة السلسلة ، جاءت مبينة أن منطق عمل هذه الرسالة قائم على التذكير لا اكثر بحكم أنها مغروسة أصلاً في الأفئدة قد نُسج الإنسان بنسيجها فلا يوجد قوة للقانون تجبر الناس على الإيمان ولا حتى يحتاج هذا الإيمان إلى دلائل علمية وحجج منطقية أو نقاش فلسفي " **كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11)** " **(سورة عبس)** ، فالمسألة ابسط من ذلك بكثير فهي غرس مغروس أصلاً في القلب والفطرة والوجدان "**فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12)** " **(سورة عبس)** ، ومن

---

(1) في ظلال القرآن، الجزء الخامس، ص 3181.

لم يشأ ، حق على الله أن يسجل عليه أول دعاء رباني في هذا الدستور الكريم يعبر عن المقت الإلهي لهذا التردي الإنساني بقوله عز وجل " **قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)** " **(سورة عبس)** ، ثم يستمر موضحاً أو مذكراً سبب هذا الدعاء " **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَه (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)** " **(سورة عبس) إلى آخر الآيات.**

و"قُتل الإنسان : تنبيه على انهم استحقوا اعظم أنواع العقاب" ،[1] "وفعل قتل فلان أصله دعاء عليه بالقتل والمفسرون الأولون جعلوا "قُتل الإنسان" انه لُعن ، رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله مجاهد وقتاده وأبو مالك ، قال في الكشاف "دعاء عليه وهذا أشنع دعواتهم" أي فمورده غير مورد قوله تعالى "قاتلهم الله" وقولهم: قاتل الله فلاناً يريدون التعجب من حاله وهذا أمر مرجعه للاستعمال ولا داعي إلى حمله على التعجب لان قوله "ما أكفره" يغني عن ذلك " ،[2] "والدعاء بالسوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد لظهور أن حقيقة الدعاء لا تناسب الإلهية لان الله هو الذي يتوجه إليه الناس بالدعاء". [3]

"وبناء (قُتِلَ) للمجهول متفرع على استعماله في الدعاء، إذ لا غرض في قاتل يقتله ، وكثر في القرآن مبنياً للمجهول نحو "فقتل كيف قدر" [4] .

على أنني أرى أيضاً أن هذا القتل يتحقق للإنسان فعلاً بضنك العيش الذي يحياه بكفره فهو نتاج هذا التردي الإنساني حيث تنخلع عن الإنسان صفة الإنسانية ليُمَثِّلَ في حياته ما قاله تعالى "كالأنعام بل هم أضل" فيصبح مفقود الرمز الإنساني مسلوب كرامتها وهذا بحد ذاته هو أشد القتل لمن اشتد به الكفر فخلع لبوسه الإنساني وسار سيره خلف البهائم.

---

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 60.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 120.
(3) نفس المرجع السابق، ص 120.
(4) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 120.

فكانت "جملة "ما أكفره" تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان" ،[1] " ومعنى شدة الكفران كفره كماً وكيفاً ومتى لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام الفانية ، وبإرساله الرسول ، وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم وانه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وانه مستمر لا يقلع عنه مع تكرار التذكير والإنذار والتهديد .

وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة ، جامع للملامة ، ولم يسمع مثلها قبلها ، فهي من جوامع الكلم القرآنية" .[2]

ومن بعدها تعود الآيات القرآنية في دعوة شاملة متجددة للإنسان في التأمل والتدبر في طبيعة خلقه ومهانة بدايته ومسار هذا الخلق حتى لحظة الممات ثم اللقاء والنشر والردع بعد ذلك لهذا الإصرار الإنساني على الكفر وهو الذي لا يستطيع أن يتم عملاً على اكمل وجه في قوله تعالى " **كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)** " **(سورة عبس)** ، ففي الكشاف "كلا : ردع الإنسان عما هو عليه، ولما يقض: لم يقضي بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية ، ما أمره: الله حتى يخرج عن جميع أوامره، يعني أن إنساناً لم يخل من تقصير قط" .[3]

وكما في التفسير الكبير " قال مجاهد لا يقضي أحد جميع ما كان مفروضاً عليه أبداً وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير البته" .[4]

فحتى الإنسان المؤمن لا يستطيع الالتزام بكل ما هو مفروض عليه فكيف يكفر هذا الإنسان ويتجاوز ما كان عليه أن يجتهد فيه ويبذل فيه جهداً اكبر واكثر.

ولي وقفة قصيرة في قوله تعالى: " **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22)** " **(سورة عبس)** ، فقد استوقفتني تعبير كلمة انشره في هذه الجولة التأملية لعودة الإنسان لخالقه مع ما كنا قد ذكرناه في آية " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13)**

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 121.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 121.
(3) الكشاف، المجلد الرابع، ص 74.
(4) التفسير الكبير للرازي، الجزء الحادي والثلاثون، ص 63.

(سورة الاسراء) ، فكأن هذا الإنسان فيه مطويات كثيرة تنتشر في لحظات اللقاء الإلهي تماماً كما هي الجينات التي تحوي كافة الصفات الوراثية ثم يخرج من هذه الصفوف المتراصة من الكروموسومات والحبيبات الدقيقة إنساناً متكامل الصفات ، تخرج من الأجساد الإنسانية نفوس نحتت من الأعمال الإنسانية ، ففي كل آية من هذه الآيات الصغيرة الدقيقة معان عميقة فريدة لو تدبرها الإنسان ولكنه يغفل عنها ويتجاهلها ، ولذلك ترى الآيات القرآنية تأخذ على النفس كل مشاربها ومساربها حتى توقظ الإنسان في جولات متعددة وصور متفرقة، فمن رحلته في كيفية وجوده إلى رحلته في سبب سنده المادي في هذا الوجود بقوله تعالى: **" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) " (سورة عبس)** ، وهو سنده الأول في البقاء وهو مثاله الأظهر أيضاً في كيفية البعث والقدرة عليه.

وفي التحرير: "وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض

الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله وكان الانتقال من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية: "من أي شيء خلقه" إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخاً للاستدلال ، وتفنناً فيه ، وتعريضاً بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل، من نعمة الثبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.

وتعدية فعل النظر بحرف "إلى" تدل على انه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض، وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به.

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات ، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى: " **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ (3) " (سورة المائدة)** ، أي أكلها ، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكون الحبوب ، والثمار التي بها طعامه ، وقد وُصف له تطور ذلك ليتأمل ما أودع إليه في ذلك من بديع التكوين سواء رأى ذلك ببصره أم لم يره ، ولا يخلو أحد من علم إجمالي بذلك ،

فيزيده هذا الوصف علماً تفصيلياً. وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض ، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد.." .[1]

"وجملة فلينظر الإنسان إلى طعامه" إما مفرع على قوله "لما يقض ما أمره" فيكون مما أمره الله به من النظر ، وإما على قوله "ما أكفره" فيكون هذا النظر مما يبطل ويزيل شدة كفر الإنسان.

والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة, إذ التقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه. وهذا نظير الفاء في قوله تعالى: "إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مم خلق" أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ، فلينظر مم خلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو".[2]

نرى هنا كيف لم تترك جولات القرآن طريقة واحدة لم تسلكها مع الإنسان لتذكيره وهدايته, حتى صور المستقبل الأخروي رُسِمَتْ له في مواقع كثيرة ، وبطرق شتى ولعل صورته في آخر آيات عبس من أجملها وأشدها وقعاً ، وهو يصور الإنسان في حالة فرار من أحبته الذين التصق بهم في الدنيا التصاقاً حميماً لعله أنساه ما ينبغي عليه وما لا ينبغي ، ولكنها الرحمة المجازاة للإنسان عند مُنزِّل هذا الكتاب العظيم عندما يعرض هذه الصورة الأخروية هنا فترتل في أنحاء المعمورة وتُصور مشاهد حية أمام ناظريه في كل الأزمان وكافة العصور.

غير أن الإنسان أحاط نفسه بالخُسر ملتزماً بتأدية كل أسبابه إلا أصحاب الإيمان والعمل الصالح كما وصفت ذلك سورة العصر والتي أقسم الله فيها بهذا الزمن الذي يعيشه الإنسان بكل وقائعه وساعاته وأيامه وشهوره في عناد مع ما فيه من موحيات الإيمان، أقسم ان هذا لفي الضلالة خاسر غير رابح عندما يعيش زمانه وعلى امتداده دون لحظة تَفَكُرٍ إلى ما في هذا الوجود أو لحظة عودة إلى ما في داخل هذا الضمير.

وقد فُسرت كلمة العصر تفسيرات عدة في قوله تعالى:

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 129-130.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 129.

" وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) " (سورة العصر) ، أجملها فيما يلي:

"وأشهر إطلاق لفظ العصر انه علَم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس... فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض ، ونظام حركة الأرض حول الشمس ، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم..

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجنَّاتهم ، وتجاراتهم في أسواقهم ، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه.. وفيه إيماء إلى التذكير بَمثّل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عَصْر، ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت صلاة العصر وهي صلاة مُعَظَّمة قيل هي المراد بالوسطى في قوله تعالى : " **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)** " **(سورة البقرة)** ، وجاء في الحديث "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتِرَ أهلَه ومالَه ".. وتعريفه على هذا تعريف العهد وصار علماً بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعروفة باللام مثل العَقَبة .

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس ، أو ملك أو نبي أو دين، ويعين بالإضافة ، فيقال : عصر الفِطَحْل ، وعصر إبراهيم ، وعصر الاسكندر ، وعصر الجاهلية ، فيجوز ان يكون هذا الإطلاق هنا ويكون المعنيّ به عصر النبي صلى الله عليه وسلم، والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري مثل التعريف في (اليوم) من قولك : فعلت اليوم كذا، فالقسم به كالقسم بحياته في قولك "العمرك" قال الفخر "فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله تعالى"وأنت حل بهذا البلد" ،ويجوز

أن يكون عصر الإسلام كله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم..ويجوز أن يفسر

العصر في هذه الآية بالزمان كله" .[1]

غير أن "الحقيقة الضخمة التي تقررها السورة بمجموعها هي هذه : أنه على امتداد الزمان في جميع الاعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناج ، هو ذلك المنهج الذي تصف السورة معالمه وكل ما وراء ذلك ضياع وخسر" .[2]

"والْخُسْرُ والْخُسْرانُ : انْتِقاصُ رَأس المَال ، وَيُنْسَبُ ذلك إلى الإنْسان ، فيُقالُ: خَسِرَ فُلانٌ، وَإلى الفِعْلِ فيقالُ : خَسرَتْ تِجَارَتُهُ ، قال تعالى : " **قَالُوا تِلْكَ إذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) " (سورة النازعات)** ، ويُسْتَعْمَلُ ذلك في المُقْتَنَياتِ الخَارِجَةِ كَالمال وَالجَاهِ في الدُّنْيَا وهو الأكثر، وفي المُقْتَنَياتِ النفسية كالصحة والسلامة، والعقل والإيمان، والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين ، وقال " **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ وَأهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ألا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) " (سورة الزمر)**[3] ، وكما في الفخر "الخسر الخسران ، كما قيل الكفر في الكفران ، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال ، ثم فيه تفسيران ، وذلك لانا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله ، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية وان حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من

آمن من هؤلاء ، فحينئذ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح" .[4]

وكما في لسان العرب:

"خَسَرَ خَسْراً وخَيسَراً وخُسْراناً وخَسَارةَ ، فهو خاسِر وخَيسَرٌ ، كله ضَلَّ . والخَسَار والخسارة والخَيْسَرَي : الضلال والهلاك والياء فيه زائدة.

وفي التنزيل العزيز: "والعصر ان الإنسان لفي خسر" الفراء : لفي عقوبة بذنبه ، وأن يخسر أهله ومنزله في الجنة.

---

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 528-530
(2) في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص 3964.
(3) مفردات الراغب الأصفهاني، ص 281.
(4) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص 87.

وقال عز وجل : " **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11)** " **(سورة الحج)** ، وقال ابن الأعرابي الخاسر: الذي ذهب ماله وعقله أي خسرهما ، وخسر التاجر: وضع في تجارته أو غبن، والأول هو الأصل . والخسر والخسران: النقص وهو مثل الفرق والفرقان.. وأخسرته: نقصته". (1)

"واعلم ان الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر (أحدهما) قوله (لفي خسر) يفيدانه كالمغمور في الخسران، وانه أحاط به من كل جانب (وثانيهما) كلمة إن ، فإنها للتأكيد ، (وثالثها) حرف اللام في لفي خسر، وههنا احتمالين:

1- في قوله تعالى (لفي خسر) أي في طريق الخسر ، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى (إنما يأكلون في بطونهم نارا) لما كانت عاقبته النار.

2- ان الإنسان لا ينفك عن خسر لان الخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره ، وذلك لان كل ساعة تمر بالإنسان، فان كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران ، وان كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضاً حاصل ، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر ، مع انه كان متمكناً من ان يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائماً ، وان كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك" (2) وهكذا.

فـ "مجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس، وأعقب بالاستثناء بقوله "إلا الذين آمنوا" الآية فيتقرر الحكم تاماً في نفس السامع مبيناً ان الناس فريقان : فريق يلحقه الخسران ، وفريق لا يلحقه شيء منه فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يلحقهم الخسران بحال إذا لم يتركوا شيئاً من الصالحات بارتكاب اضدادها وهي السيئات.. وهذا الخسر متفاوت فأعظمه

(1) لسان العرب، الجزء الثاني، ص 254.
(2) التفسير الكبير للرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص 87.

وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها" .[1]

فالخسر هو للذي يتثاقل منحنياً إلى الأرض فلا تنتصب قامته بإيمان ولا ترتفع هامته متطلعة إلى عمل صالح ، يخلد إلى ما في زمانه من نداءات الغواية فيخضع لها ويتبعها.

والخسر هو للذي لا يجتهد ولا يتواصى بحق ولا بصبر, وهو واقع محاط بذلك الإنسان الذي يريد أن يعيش عصره بكل ما في عصره من صور زاهية وألوان فاقعة, وللذي رضى بأنماط الحياة المبتذلة في زمانه ، ووشم نفسه بأوشامها العارية.

والخسر للذي أترع نفسه بكأس الهوى وما سجل في ميزانه لحظة انتصار للحق صبَّر فيها نفسه وتصبر. أما أولئك الذين آمنوا وما انتصروا يوماً لباطل رغم عزمات الهوى وأعاصير الغواية.

أما أولئك الذين عملوا الصالحات لأنهم آمنوا واستمسكوا بالتواصي على الحق مرة والتواصي على الصبر تارة أُخر فما ينبغي أن يحاط بهم خسر وان قصروا . فهم الرمز الرباني للاستجابة بكل ما في هذه الاستجابة من واقعية الإنسان.

والإيمان والعمل الصالح لا يرقى ولا يستمر مع الضعف الإنساني دون التفاف المجموع على التواصي والحث والتحريض على الصمود والثبات والاستمرار. وما دام الإيمان حاصل فالعمل الصالح موجود، وما دام تواصي المجموع المؤمن مستمر فالندم والتوبة تأتي بالحسنات والحسنة تذهب بالسيئة وتمحوها.

ومن هنا نلحظ صيغة الجمع لصفة هؤلاء المُستثنين من الإنسان المغموس في الخسر في قوله تعالى: **"وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"** ، فصفتهم هذا التواصي فهم مجموع وليس بفرد وحيد مشتت ، وهذا التواصي بالحق والذي هو بحد ذاته بحاجة للتواصي على الصبر ، هذا التواصي هو معطى الاستمرار للإنسان الفرد ، فإرادة الإنسان الراغبة في

(1) التحرير والتنوير، الجزء الثلاثون، ص 531.

الانفلات قد تنهزم بحسب ما في عصره من مغريات ومرغبات حتى على صعيد تحديد صفات الخالق كما مر معنا .

فالإنفلات في قضايا الأخلاق ليست أشد وطأة من الانفلات في محاولات رسم صورة الآله. ولعل عصرنا هذا يشهد بكثرة هذه الانفلاتات في الإيدلوجيات المتعددة والمعقدة التي نشاهدها كلما التفتنا يمنة أو يسرة.

وعلى هذا فالقرآن في تعريفه الإنسان بالطريق وفي معالجاته لما في هذه الإرادة من عزيمة الانفلات يُنشأ الإيمان الضابط بأبسط الصور وأوضح الأمثلة ، وهذا ما سنلمسه في الآيات اللاحقة في الوصية الوحيدة التي وصى بها الخالق العظيم هذا الإنسان المُكرم .

وصية الخالق للإنسان :

فالصورة البسيطة التي تلامس فيها هذه الآيات فطرة الإنسان قادرة على الوقوف بحزم وقوة أمام إرادة الفجور، لو أرادت هذه الإرادة الحرة ان تستجيب ، فالفطرة الإنسانية والهاديات المزروعة في الإنسان ليست بالقوة التي يستهان بها في توجيه الإنسان وهدايته.

يقول تعالى في سورة العنكبوت في الآية الثامنة: " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) (سورة العنكبوت)** .

وفي سورة لقمان: " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) (سورة لقمان) .**

والآية الثالثة والأخيرة في وصيته تعالى في سورة الأحقاف : " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ**

نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(18) " (سورة الأحقاف) .

فنرى كيف تجتمع في هذه الآيات الثلاثة معاني واضحة الدلالة بأن من يكون سبباً في وجودك أحق بتقديرك واحترامك وأجدر لك ان تتذلل له وتخضع ، ولا يأتي هذا المعنى بالمقارنة بين الله عز وجل وبين الوالدين وإنما يتولد عن طريق الوصية برعايتهما حق الرعاية وأفضلها بالحسن والإحسان إليهما .

فمع أنهما السبب المباشر في ميلاد الفرد مع ما يُذكر في الآيات من عناء الأم بشكل مخصوص والتنويه بهذا الوهن الملموس وهذا الكره المتحقق على الصعيد المادي والنفسي للأم إلا ان الآيات الثلاث ابتدأت بالتوصية لا المقارنة ، وهذا أجدر بالإنسان لان يتساءل عن هذا السبب العظيم الذي يجعل خالق السموات السبع والأرضين يلتفت هذه الالتفاته إليه ليحثه على العناية بوالديه ، مما يلفت النظر بالإجابة انهما سبب الوجود المادي المباشر للإنسان، فمن أوجدك هو أحق الناس بك فما بالنا لو تصورنا وجود الإنسان بكليته مع والديه وأجداده وأسلافه ، هذا الوجود القادم من رعاية السماء رعت بذرته الأولى يد الحكيم العزيز ، لا شك ان القلب سيخضع ويهون عليه التذلل لربه وخالقه.

وهنا تأتي الحكمة الثانية ثاوية في الآيات وخاصة آياتي العنكبوت ولقمان فمع الحث

على الرعاية بهؤلاء الوالدين يندرج التنبيه على انه تقف الطاعة عند حدودها وتتحدد الاستجابة بضوابطها عندما يخرج هؤلاء الوالدين عن المألوف بالضغط وبذل الجهد على الأبناء للإشراك به عز وجل وقد كانت التوصية بهما في الأصل حكمة منه تعالى وصورة مبسطة للإنسان لدعوته إلى إفراده بالتوحيد من خلال الإقرار بأنه الأصل المُوجِد للأشياء ، والأصل الموجد هو المستحق دائماً وأبداً للخضوع والتذلل.

و"الوصية : التقدم إلى الغير بما يُعمل به مقترناً بوعظ من قولهم : أرض واصية : متصلة النبات ، ويقال : أوصاه ووصاه . قال تعالى : " **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (132)** " **(سورة البقرة)** ، وقرئ : "وأوصى" قال الله عز وجل " **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (131)** " **(سورة النساء)** ، " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ (8) (سورة العنكبوت) ..** " .[1]

فهذه الوصية من الخالق للإنسان باقترانها بوعظ الإنسان بالإحسان لوالديه ثم التأكيد على عدم الطاعة عند دعوتهما للإشراك بالسبب الأول في الإيجاد ،هي الوعظ الحقيقي الذي يختفي وراءه ذلك الوعظ الذي يقوم بمناشدة الفطرة السليمة للإنسان بالشكر الدائم لمعطيه فما بالنا بمعطى أنفاس الحياة وأسبابها له ولوالديه، خاصة إذا ما انتبهنا إلى ذيل آيتي العنكبوت ولقمان فالمرجعية لله وحده في النهاية.

"والتوصية : كالإيصاء يقال: أوصى ووصى، وهي أمر بفعل شيء في مغيب الآمر به ، ففي الإيصاء معنى التحريض على المأمور به" .[2]

ومع عدم غيبة الله عز وجل في وصايته للإنسان فإن في هذا المعنى زيادة تأكيد على رعاية الوالدين وكأن الله يكل الإنسان برعايتهم إيكالاً تاماً ورعاية وافية، وكأن أحداً آخر ليس هناك لرعايتهم الا هو ، وهذا ان دل على شيء فهو التشديد بالإيفاء بهذه الرعاية ، ونلحظ هذا المعنى اكثر عندما نرى كيف يذيل تعالى هذه الآية بان المرجعية في نهاية المطاف إليه ، ينبأ كل إنسان بما عمل فهو غير غائب بالمعنى الحقيقي ، ولكنه يتنحى قليلاً ان جاز لنا التعبير بهذا ليترك الإنسان يتصرف وفق هذه الإرشادات والوصايا ويدرك مغزاها ومرماها، فالعودة الدائمة لسبب وجوده وللسبب الأول في الوجود هي أهم الحقائق في نهاية المطاف .

واعرض هنا معنى الحسن والإحسان كما جاءت في مفردات الراغب "الحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه وذلك ثلاثةُ أضرب : مستحسنٌ من جهة العقل ،

(1) مفردات الراغب الأصفهاني، ص 873.
(2) التحرير والتنوير، الجزء الحادي والعشرون، ص 215.

ومستحسنٌ من جهـة الهوى ، ومستحسنٌ من جهة الحس ، والحسنةُ يعبَّرُ عنها عن كل مـا يسُّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله.

والحَسنُ اكثر مـا يقال فـي تعـارف العامـة فـي المستحسن بالبصر ، يقال: رجلٌ حَسنٌ وحُسَّانٌ ، وامرأةً حَسناء وحسانه ، واكثر ما جاء في القرآن من الحَسن فللمُسْتَحسن من جهة البصيرة.. **" وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83) " (سورة البقرة)** ، أي : كلمةً حسنة ، وقال تعالى: " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً (8) " (سورة العنكبوت)** ، وقولـه عزَّ وجل " **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (52) " (سورة التوبة)** ، وقولـه تعالى: " **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) " (سورة المائدة)** ، إن قيل : حُكْمُه حسنٌ لمَنْ يوُقن ولمَنْ لا يُوقن فِلمَ خصّ قيل : القصد إلى ظهور حسنه والإطلاع عليه ، وذلك يظهر لمن تزكّى واطلع على حكمة الله تعالى دون الجهلة. والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير ، يقال: أحسن إلى فلان .

والثاني: إحسانٌ في فعله ، وذلك إذا علمَ علماً حسناً ، أو عملَ عملاً حسناً ، وعلى هذا قول أمير المؤمنين (الناسُ ابناء ما يُحسنون) أي منسوبـون إلى ما يعلمونــه وما يعملونه من الأفعال الحسنة.

قولـه تعالى: " **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (7) " (سورة السجدة)** . والإحسانُ أعمُّ من الإنعام قال تعالى " **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ (7) " (سورة الاسراء)** ، وقوله تعالى: " **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ (90) " (سورة النحل)** ، فالإحسانُ فوق العدل ، وذلك انَّ العدل هو ان يعطي ما عليه ويأخذ ما لهُ ، والإحسان ان يعطي اكثر مما عليه، ويأخذ أقلَّ ممّا له.

فالإحسان زائد على العدل ، فتحـرّى العدل واجب ، وتحري الإحسان ندب وتطوع..ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين ، فقال تعالى : " **وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) " (سورة العنكبوت)** ، وقال تعالى: " **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195) " (سورة**

البقرة) ... [1]

وانتصب حُسْنَاً في آية العنكبوت "على انه وصف لمصدر محذوف إي إيصاء حسنا أي ذا حسن أو هو في حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى " **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً** ".. وقيل:ان حسنا منصوب بنزع الخافض وبوالديه متعلق بوصينا والباء فيه بمعنى في أي وصينا الإنسان في أمر والديه بحسن" .[2]

ونلحظ في الآيات الثلاث كيف جاءت الأولى منوهة بالحسن في وصيتها في قوله تعالى : " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً** " فهي وصية عامة.

أما الثانية فإن الوصية فيها قد تركت مفتوحة أو مطلقة ففي قوله "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه "وهناً على وهن" ذكر عز وجل ضعف الأم بصفة الوهن ، والوهن "الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء" .[3]

وكما في المفردات: "الوهن: ضعف من حيث الخلق ، أو الخلق. قال تعالى: " **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ (4)" (سورة مريم)** ، " **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ (146) " (سورة آل عمران)** ، " **وَهْناً عَلَى وَهْنٍ (14) " (سورة لقمان)** ، أي: كلما عظم في بطنها: زادها ضعفاً على ضعف ، " **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ (104) " (سورة النساء)** ، " **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا (139) " (سورة آل عمران)** ، " **ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) " (سورة الأنفال)** .[1]

كأنه عز وجل لما ذكر ضعف الام بوصفه "وهناً على وهن" ترك الوصية مطلقة فلم يحددها بالقول إحساناً أو حسناً فإن مراتب هذه المفردات على سموها – وقد رأينا في المفردات إن الإحسان يفوق العدل - ومع هذا فإنها لا تفي حق الوالدين, وان كان ذكر الآلام الأم على التخصيص دون الأب مع أن الوصية بكليهما لأنه ادعى للشفقة فهو لممَّا يدر هذه

(1) مفردات الراغب، ص 235-237.
(2) روح المعاني للآلوسي، المجلد العاشر، ص 343.
(3) التحرير والتنوير، الجزء الحادي والعشرون، ص 157.
(1) مفردات الراغب الأصفهاني ، ص87 .

الشفقة تجاه الوالدين. كما أن هذا الحمل اظهر وأوضح في وقوعه وهو أيضاً من الأشياء التي تنسى بسهولة بعد حصولها كما أنها هي الأصل الظاهر في وجود هذا الإنسان وان كان للأب لا شك دور جوهري أضف إلى عملية تعميق دور الأم ورسالتها بذكر الحمل ووهنه على وجه الخصوص ، ولذلك نرى ان الوصف كان لصورة هذه الام الواهنة الكارهة للحمل، ولكن الوصية للاثنين والشكر لهما معاً، كما ان رفض الطاعة في الإشراك بالله لكليهما ان صدر من كليهما.

ونرى هذا التنديد بالشرك واضحاً عندما نبه على أن شكر الوالدين مقروناً بشكر الله، ثم نوه على المرجعية إليه في قوله " **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) " (سورة لقمان)** .

كما قال الفخر الرازي: "لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال: "ان اشكر لي ولوالديك" ثم بين الفرق وقال: إلى المصير" يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة فان إلى المصير" .[1]

وفي الآية اللاحقة اكد صراحة على رفض الشرك عندما قال: " **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) " (سورة لقمان)** .

فالوصية بهم والإحسان إليهم لا يجب ان تؤدي بحال من الأحوال إلى الشرك حتى في أقصى الظروف من مجاهدتهم إياكم والسبيل إلى ذلك باتباع سبيل من أناب إلى الله وأدرك مرجعيته الحقه ، وان كان ولابد في كل هذه الظروف من الإبقاء على مصاحبة الوالدين بالمعروف وهنا تبرز قدرة المؤمنين على هذا التوازن الدقيق فهي قوة الإيمان الرافضة للإشراك وهي قوة النفس المصاحبة بالحُسْن للأبوين المشركين بالمعروف المألوف.

أما الآية الثالثة فإن الإحسان فيها جاء في مقابلة الكره الذي تعانيه الام "ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة ، والتي لا يجزيها أبداً

(1) التفسير الكبير للرازي، الجزء الخامس والعشرين، ص 147.

إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين " **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً (15) " (سورة الاحقاف)** ، وتركيب الألفاظ وجرسها يكادُ يُجَسِّم العناء والجهد والضنى والكلال: "حملته كرهاً ووضعته كرهاً" لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء وتنفيس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه والآمه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونيلها في صورة حسية مؤثرة.

ان البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية آكلة. تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الام إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الام الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم. دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الام فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم بها هيكل هذا الصغير! وهذا كله قليل من كثير.

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة، ممزقة ، ولكن الآمها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسى الام حلاوة الثمرة ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد بينما هي تذوي وتموت!

ثم الرضاع والرعاية حيث تعطي الام عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية، وهي مع هذا وذلك فرحه سعيدة رحِمة ودود لا تمل أبداً ولا تكره تعب هذا الوليد. واكبر ما تتطلع إليه من جزاء ان تراه يسلم وينمو فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد! فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل وهو لا يفعل الا القليل الزهيد ؟ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها

، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها ؟ فأجابـه : " لا ، ولا بزفرة واحده " [1].

وقد عرضت هذه الصورة البسيطة من معاناة الام وما أشد معاناتها لبيان ما أوضحه الراغب الأصفهاني في المفردات من ان هذا الإحسان يتجاوز العدل فهو فوقه ، لان المحسن يعطي اكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له على ما ذكر. ومن هنا كانت وصية الخالق بالتعبير بكلمة الإحسان في مقابلة الكره الذي تعانيه الوالدة، كما قد جاءت الوصية "بالإحسان مطلقه من كل شرط ومن كل قيد"،[2] حتى تتحقق بذلك معاني الإنسانية في الإنسان من حيث رعاية اصل وجوده ومن خلال ذلك كما ذكرنا سابقا التنبه إلى رعاية حقوق الخالق أصل وجود الوجودين.

وتتميز هذه الآية عن سابقتها بأنها تعرض لموقفين من نموذج الإنسان فهي وصية لجنس الإنسان كله ، وليست لإنسان بعينه كما ورد في بعض الروايات " فهذان النموذجان عامان في الناس ، ولكن مجيئهما في هذا الأسلوب، الذي يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياءاً للمثل كأنه واقع.

ولقد وردت روايات ان كلاً منهما يعني إنساناً بعينه ولكن لم يصح شيء من هذه الروايات والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج. يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج. فالتعقيب الأول: **" أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) " (سورة الاحقاف)**, والتعقيب الثاني: **" أولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) " (سورة الاحقاف)** ، ثم التعقيب العام : **" وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19) " (سورة الاحقاف)** ، وكلها توحي بان المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء" .[2]

---

(1) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3262.
(2) في ظلال القرآن ، الجزء السادس ، 3261 .
(2) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص 3264.

ومع أن هاتين الآيتين توضحان بما لا يدع مجالاً للشك أن الإنسان المقصود هو جنس الإنسان لا الإنسان الكافر كما مر في هذه الدراسة من تحليل وشرح لذلك في أغلب المواضيع ... فإن هذه الآيات توضح المسألة أكثر وأكثر حيث أنها تُبين هذان الفريقان من الإنسان المُوصى بوالديه فالأول وهو يرمز للفريق الصالح المؤمن من الإنسان والثاني والذي يرمز للفريق الطاغي المستبد لاكبر دليل على أن الإنسان المقصود هو الإنسان برمته .

غير أن جمال هاتين الآيتين لا يَكْمُن في هذه الحقيقة ، بل فيما ورد من وصف للإنسان حين بلوغ الأشد وبلوغ الأربعين من التوجه بالشكر لله تعالى ، فهي هذه اللحظات

أو هذه الفترة الزمنية التي يعي فيها الإنسان السّوي ولا نقول المؤمن لانه في آخر الآية ذكر قوله تعالى : " **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)** " **(سورة الاحقاف)** ، أي أنه الآن وقت بلوغ هذا الأشد ومرور هذا الزمن الطويل من عمره وعى الحقيقة وادركها فهو هذا الإنسان السَّوي الواعي تدارك نفسه عندئذٍ بالتوبة والاعتراف أو العودة إلى الأصل ، بالإعلان بأنه أحد أفراد هذه المجموعة المسلمة بقوله :" **وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** " .

" وأكثر المفسرين .... أن وقت الأشد هو زمان الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء وهو ثلاث وثلاثون سنة تقريباً ، وأن في الأربعين يتم الشباب وتأخذ القوى الطبيعية الحيوانية في الانتقاص والقوة العقلية والنطقية في الاستكمال .. وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن ، ومن جملة الكمال أنه حينئذ يقول **(رب أوزعني)** أي ألهمني ووفقني ".(1)

" وقال صاحب الصحاح : أوزعته بالشئ أغريته به فأوزع به فهو موزع به أي مغري به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني " .(2)

أما قوله حتى إذا بلغ أشده فقد اختلف الرازي في تفسيرها عن الشيخ عاشور حيث بين الرازي أنه قوله تعالى : " **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ**

(1) غرائب القرآن ، مرجع سابق ، المجلد السادس ، ص120.
(2) التفسير الكبير ، مرجع سابق ، الجزء الثامن والعشرون ، ص20 .

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ...." (15) (سورة الاحقاف) إلى آخر الآيات ، أن " هذا يدل أن توجـه الإنسـان إلى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله إنما يحصل من هذا الوقت " . (1)

كما " أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ....وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة ".(2)

أما الطاهر عاشور فرأى أن " حتى يبلغ أشده " مقصود بها أن الإنسان موصى بوالديه حتى يبلغ الأشد ، وعليه أن " يستمر إلى الإحسان إليهما إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغه " قال رب أوزعني " ، أي طلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه " . (3)

وذلك إنَّ " (حتى) ابتدائيه ومعناها معنى فاء التفريغ على الكلام المتقدم ، وإذا كانت (حتى) لا يفارقها معنى الغاية كانت مُؤذنة بإن الإنسان تدرج في اطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده ، أي هو موصى بوالديه حسناً في الأطوار الموالية لفصاله ، أي يوصيه وليّه في أطوار طفولته ، ثم عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه " .(4)

" وهذه اشارة إلى أن الفعل المؤقت ببلوغ الأشد وهو فعل " قال رب أوزعني " من جملة ما وُصِي به الإنسان ، أي أن يحسن إلى والديه وقت بلوغه الاشد فالمعنى : ووصينا الإنسان حُسناً بوالديه حتى في زمن بلوغه الأشد ، أي أن لا يفتر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتى الدعاء لهما ، وإنما خص زمان بلوغه الأشد لانه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكون له فيه زوجةٌ وأبناء وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء فيكونان مظنة أن تشغلها التكاليف عن تعهد والديها والإحسان إليهما فنُبِها بإن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين " .(1)

وعلى جمال هذا المعنى الا أنني أؤيد قول الرازي أن قوله **(حتى يبلغ أشده)** لدليل على أن هذا الإنسان قد وصل إلى مرحلة من الرشاد تؤهله بعد ذلك للانفكاك النفسي والعاطفي

(1) التفسير الكبير للرازي ، مرجع سابق ، الجزء الثامن والعشرون ، ص18.
(2) المرجع سابق ، الجزء الثامن والعشرون ، ص19.
(3) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، المجلد السادس والعشرين ، ص31 .
(4) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، المجلد السادس والعشرين ، ص31 .
(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، المجلد السادس والعشرين ، ص 32.

ناهيك عن الجسدي الذي حصل منذ الطفولة عن والديه, فهو الآن قادر على التحرر من التَبَعيِّة العاطفية والفكرية التي لازمته فترة طويلة من خلال تعلقه النفسي بوالديه دليل ذلك هذا التوجه بالدعاء بالأمور الثلاثة المذكورة في الآية وهذا لا يعني التخلي عن الوالدين والانشغال عنهما ، بل على العكس تماماً يبرز وعي هذا الإنسان صاحب الأشد واضحاً جلياً ففي الأمر الأول الذي ذكرتهُ الآية يستبين وعيه بأهمية والديّه من خلال شكره للنعمة المُتَحَصلة له ولوالديه معاً فقد أصبح مميز أشد التميز أن كل نعمة حاصلة لوالديه هي بالضرورة نعمة واصلة إليه أيضاً فهما سبب وجوده .. فهذا الشكر قد وصل أعلى مراتب الإدراك عنده ، فهو لا يشكر نعم الله عليه فقط بل نعم الله على والديه أيضاً .

ونلحظ هنا كيف وردت قضية الشكر عند الإنسان صاحب الأشد في مقابل كفران النعمة التي ما فتأت آيات هذه الدراسة تبينه وتشرحه عندما وصف الله الإنسان بها في أكثر من موضع وآيه وسياق بأنه الإنسان الكفور الجاحد للنعمة ، أما الإنسان الذي بلغ مرتبة الأشد وبلغ أربعين سنة وهو بكامل صدقه ، فقد أدى به هذا الصدق وهذه الصراحة مع النفس المدفوعة بسلامة الفطرة فيه إلى الاعتراف العميق بالشكر الجميل للمُنْعِمِ الأول عليه وعلى والديه ، ولعل أولها نعمة وجود والديِّه ومن ثم وجوده .

أما الأمر الثاني فهو الدعاء بالعمل الصالح الذي يرضى عنه الخالق ، والتركيز في دعائه هنا على هذا الرضى الإلهي لإدراكه بعد بلوغه الأشُد أهمية العمل المُوجه لوجه الله فكثيرة هي تلك الأعمال الصالحة التي لا يُبتغى بها وجه الله تعالى ، فهي بذلك غير متصلة بالحقيقة الأزلية ، أن حياة الإنسان موصولة بخالقه وهو مع هذه الحياة وما عمل بها على موعد للجزاء والحساب ، فليس الأمر متروكاً لتبجُح الإنسان بأعماله كيفما شاء كما ورد في شرح سورة البلد .

والأمر الثالث والأخير الذي ذكرته الآية ويؤيد رأي الرازي قوله " **وأصلح لي في ذريتي** " فهو أي الإنسان بعد ادراكه للنعم وعَظَمَة الشكر عليها سواء الواصلة إليه عن طريقه أو عن طريق والديه وبعد ادراكه أهمية العمل الصالح المَرضِّيَ عنه من قبل الخالق ، يدرك أيضاً معنى أن يكون له ذرية صالحة تمتد معه امتداداً ليس تاريخياً فحسب بل امتداداً اخلاقياً

تماماً كما فعل هو بوالديه بالإحسان إليهما ، فتستمر عناية الذرية به لأنه سبب وجودها المادي الحسي .. كما قد تم من قبل العناية بالوالدين وبذلك تُحفظ القاعدة الذهبية أن من كان سببٌ لوجودك أحق برعايتك فكيف بمسبب الحياة جميعها .

وبين هذا التواصي بالإحسان .. وبين هاتين العنايتين عناية الإنسان بوالديه ومن ثم عناية الذرية بهذا الجيل الثاني ، تواصل حقيقي لادراك معنى الحياة وارتباطها بالنهاية الآخروية .. وعناية حقيقة للإنسان بنفسه فهو عند بلوغه الاشد وما بلغه فيه من الوعي منح نفسه فرصة الرجوع إلى الله والاستقامة على طريقه عندما قال " **أني تبت إليك** " ولم يغتر ولم يتكبر ، غير أن هذا الفريق من الإنسان واجهه فريق آخر رفض فرصة الأشد هذه واستيفائه للقوى العقلية فيها فقال لوالديه " **أفٍ لَكُمَا** " .

" **(وَالَّذِي)** في قوله تعالى : " **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍ لَكُمَا (17)** " **(سورة الاحقاف)** ، هنا اسم صادق على الفريق المتصف بصلته " . [1]

" وأف : قال صاحب الكشاف قُرىء (أف) بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوَّت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال حس علم أنه متألم ، واللام في (لكما) للبيان ، معناها أن هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما " [2]، فهو لا يعترف لهما بالحقيقة ، حقيقة أنهما أصله وعنوان حياته لذلك جاءت هذه الأف لهذين الوالدين أكبر مما ذهب إليه الوعاظ في عدم قبول التأفف والتضجر

للوالدين ، فهي أف صارخة مستحقرة لعلاقة الإنسان بالكون قالها الإنسان صاحب الأشد من الفريق الثاني الذي امتلأ وعيه عنهجية وغروراً فكأنه لم يبلغ أشده أصلاً ، دليل ذلك قوله تعالى أن سبب هذا التأفف في الآية " **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)** " **(سورة الاحقاف)** ، فإذا كان رافضاً مُحقراً أصل وجوده غير آبهٍ بهما وهما أمام ناظريه فكيف له بعد ذلك أن يحترم أي حقيقة أخرى خاصة إذا كانت تتحدث عن الغيب .

---

(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، المجلد السادس والعشرين ، ص36 .
(2) التفسير الكبير للرازي ، مرجع سابق ، الجزء الثامن والعشرون ، ص23.

ومن هنا جاء النداء الآلهي لهذا الإنسان الرافض للبعث في آياتي الانفطار والانشقاق نداءاً أخيراً للإنسان ليستدرك نفسه بعد كل هذه التعريفات والصور والمشاهد لحقيقية الحياة بكل ما فيها من دنيا الإنسان ومواقف الإنسان وآخرة الإنسان .

النداء الأخير :

وقوله تعالى : " يا أيها الإنسان ......" بهذا التعبير جاءت فقط في آيتين اثنتين ضمن هذه المنظومة في سورتي الانفطار والانشقاق ، والناظر بعناوين السورتين يستطيع أن يستلهم موضوع النداء فالسماء في حالة الانفطار في السورة الأولى وفي حالة الانشقاق في الثانية كما نلحظ أن الآيتين في السورتين كان ترقيمهما السادس ، وجاءتا بعد الحديث عن أهوال القيامة وبداية اللقاء الآخروي ، وان دل ذلك على شيء فإنما يدل على هذه الرعاية الحانية للإنسان كي ينتبه قبل فوات الأوان ترى ذلك واضحاً في نص الآيتين .

قال تعالى : **" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) " (سورة الانفطار)** .
وفي النداء الثاني قال تعالى :**" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) " (سورة الانشقاق)** .

وقد قمت بشرح الثانية بالتفصيل عند الحديث عن طبيعة حياة الإنسان واشرح الأولى هنا بشيء من التفصيل أيضاً وأترك الثانية مُجملة مع ملاحظة أن الآية الأولى تتساءل عن هذا الاغترار بالله من قِبَلِ الإنسان في حين تضعه الآية الثانية أمام الجواب أو نفي هذا الاغترار أو حتى رفضه لينتبه الإنسان إلى أن الكريم لا يُحابى في لحظة الجزاء أحداً ولكنه الكدح والسعي في الحياة الدنيا لنيل رضى الله في الآخرة أن كان لوجه الله أصلاً .

والنداء هنا كما جاء في تفسير آية الانفطار في التحرير " للتنبيه تنبيهاً يشعر بالاهتمام بالكلام واستدعاء لسماعه فليس النداء مستعملاً في حقيقته إذ ليس مراداً به طلب إقبال ولا هو موجّه لشخص معين أو جماعة معينة بل مثله يجعله المتكلم موجهاً لكل من يسمعه بقصد أو بغير قصد " . [1]

(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص174 .

" وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث بدلالة وقوعه عقب الإنذار لحصول البعث ويدل على ذلك قوله بعده " بل تكذبون بالدين " فالمعنى : يا أيها الإنسان الذي أنكر البعث ولا يكون منكر البعث إلا مشركا لان انكار البعث والشرك متلازمان يومئذ ، فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة أو من الاستغراق العرفي لان جمهور المخاطبين في ابتداء الدعوة الإسلامية هم المشركون " . [1]

" و(ما) في قوله **(ما غرك بربك)** استفهامية عن الشيء الذي غرَّ المشرك فحمله على الاشراك بربه وعلى انكار البعث .... والاستفهام مجاز في الانكار والتعجيب من الاشراك بالله ، أي لا موجب للشرك وانكار البعث الا أن يكون ذلك غروراً " .[2]

" والغرور : الإطماع بما يتوهمه المغرور نفعاً وهو ضرّ .... ومعنى الباء فيه الملابسة ، كما في قوله : **" ولا يغرنكم بالله الغرور "** أي لا يغرنكم غرور متلبساً بشأن الله .... وإذا كانت الملابسة لا تُتصور ما هيتها مع الذوات فقد تعين في باء الملابسة إذا دخلت على اسم ذات أن يكون معها تقدير شأن من شؤون الذات يفهم من المقام ، فالمعنى : ما غرك بالاشراك بربك " . [3]

" قال أبو إسحاق في قوله تعالى : **" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ "**، أي ما خدعك وسوّل لك حتى أضعت ما وجب عليك .... وقال الأصمعي ، ما غَرَّك بفلان ، أي كيف اجترأت عليه " . [4]

ولعل بداية هذه الآية من ذكر أهوال يوم القيامة ولحظة انفطار السماء كما النفس تنفطر عن الحقيقة أن نحن حاولنا سبرها والغوص في ثناياها فينكشف للإنسان أن الإيمان مزروع فيه ، لعل هذه البداية هي للفت الانتباه للإنسان حتى لا يغتر ويظن أن له عند الله

(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص174 .
(2) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص174.
(3) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص175.
(4) لسان العرب ، مرجع سابق ، الجزء الخامس ، ص22 .

الحسنى كما مر معنا سابقاً عندما قال **" أن لي عنده للحسنى "** ، وأن وصف الله تعالى لنفسه بالكريم لا لزيادة الإمداد للإنسان حتى يغتر بل أن " ايثار تعريف الله بوصف (ربك) دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق ، ففيه تذكر للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه فهو تعريف بالتوبيخ .... وكذلك اجراء وصف الكريم دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة ....

والوصف الثالث الذي تضمنه الصلة **" فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ "** جامع لكثير مما يؤذن به الوصفان الأولان فإن الخلق والتسوية والتعديل وتحسين الصورة من الرفق بالمخلـوق وهي نِعَمٌ عليه وجميع ذلك تعريض بالتوبيخ على كفران نعمته بعبادة غيره ....

وتعداد الصلات وان كان بعضها قد يُغني عن ذكر البعض فإن التسوية حالة من حالات الخلق ، وقد يُغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله **: " فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ "** ، ولكن قُصد إظهار مراتب النعمة ، وهذا من الإطناب المقصود به التذكير بكل صلة والتوقيف عليها بخصوصها ومن مقتضيات الاطناب مقام التوبيخ " .(1)

فكل هذا الحشد من الآيات سواء التي صورت أهوال القيامة أو التي ذكّرت بخلق الإنسان وتسويته وتعديله ونعمة الله عليه بتصويره هذه الصورة المثلى وهو القادر على أن يركبه في أي صورة شاء من الصور القبيحة أو الجميلة .. كل هذا كان ادعى للإنسان أن يتريث قبل أن يغتر وينخدع ويظن أنه قادر على التصرف في هذه الحياة كيفما يحلو له .. خاصة إذا ما استعدنا كافة الصور التي مرت معنا في هذه الدراسة ابتداءً من المؤهلات التي امتلكها الإنسان ليكون سيد على هذه البسيطة ومروراً بالتذكير المستمر له بحقائق حياته وتعريفه بعدوه وبطباعه أيضاً التي قد تخونه ، وبالحديث عن علاقته بالكون وخالقه وتصوير مشاهده يوم لقاء ربه أمام ناظريه حتى يتعظ ويتدبر في مآله ، وانتهاءاً بأرقى الصور التعريفية له للحقيقة التي ضُمنت في الوصية التي وصاه بها خالقه برعاية والديه سبب وجوده وما فيها من قاعدة صلبة تتثبت عليها أقدامه فينحني لخالقه إجلالاً وإعظاماً لأنه مُسبب وجود الوجودين معاً لا مُسبب غيره لهما .

(1) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص175 .

هذا النداء التحببي الإلهي والذي يستشف فيه المرء هذه الرحمة وهذا الرفق حتى وان احتملت الآيات معنى التوبيخ وجرس الأهوال الآخروية .. هذا النداء مع كل هذا يلامس شغاف القلب ويؤكد ان الله كريم كريم كريم ، رغم أن كرمه لا يعني للإنسان التهور والانفلات لان وراءه أيضاً حكمة لا يضاهيها حكمة ، خَلَقَ الخَلْقَ وأسس بنيانه على أساسها ، فالحياة تسير على خط ثابت واضح بين ، بيَّنه النداء الإلهي الثاني في سورة الانشقاق في قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) "(سورة الانشقاق)** ، فالكرم انه يُعرِّفك بحقيقتك وحقيقة حياتك .

والحكمة أنه يجعل لوجودك هدفاً يسمو بك فتكدح للقياه وتنتصر على رغباتك وأطماعك ولذاتك الفانية فلا تكون هباءاً منثورا .

والرحمة انه يجازيك على ما عرفت مما عرفك به فسموت إليه بالخلود عنده بين جنبات عرشه وفي رياض فردوسه ، ففزت بأعلى درجاته بأن منحك رضاه فيكشف لك الحُجب فترى نوره فلا تشقى بعدها روحك ابدا.

الخاتمة

هل مازال الإنسان ذلك المجهول كما كتب الكُتَّاب وقالوا ؟ أم ان الإنسان مشمول بالرعاية المطلقة التي صورت له الحقيقة بكل الطرق وشتى التعابير ووضعت له القوانين وأسست له البنيان .. بنيان الحياة التي سيحيا ..

هل في القرآن تلك المنظومة الشاملة لحقيقة الإنسان ، وحقيقة خلقه ؟ ودوره في الوجود على أساس هذا الخلق ؟

وهل يوجد تعريف بطبائع الإنسان ؟ وتعريف بطبيعة حياته القائمة على الابتلاء والسعي والكدح ؟

وهل هناك تحديد لعلاقته بالكون ومآله فيه ؟ وما هو مصيره وإلى أين ينتهي ؟

على عُجالة هذه الدراسة وقصورها في تقصي كل المراد القرآني لتشعُبِ مواضيعها وتشابكها وربما كثرتها إلا أنه من الواضح للقارئ أنه بالفعل توجد منظومة شاملة دقيقة أكبر من هذا البحث بكثير بحاجة إلى دراسات أكثر وأكبر من هذه الدراسة ..

غير أن هذا البحث استطاع أن يضيء جوانب منها فهو محاولة كما جاء في عنوانه لتحديد ملامح وليس كل الجوانب بل هي هذه الملامح للطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم .

ولا يمكنني هنا في هذه الخاتمة أن أعود لأسرُد كل ما جاء في الصفحات الماضية ، غير أنني ألخص ثلاث نقاط وجدت أنها قفزت على سطح هذه الدراسة قفزاً لما لها من أهمية في تأسيس تلك المنظومة المتراصة في علم الإنسان الإسلامي أو قل القرآني ، ولما لها من أهمية ارتكز عليها القرآن كثيراً خلال شرح آيات البحث في تعريفه للإنسان على مشواره الذي عليه أن يسلك لا سيراً نحو ذلك المجهول بل نحو مزيدٍ من المعرفة والحبور .

النقطة الأولى : هي طبيعة الخلق وثنائيته بين قبضة الطين ونفخة الروح وتميزه بهذه الطبيعة ولما لذلك من أثر في حياته ، فبهذه الطبيعة ساد الإنسان على هذه الأرض بما فيها وأصبح الخليفة المسؤول عن إعمارها .

أما النقطة الثانية : فهو هذا الابتلاء .. فإذا كان الإنسان مسؤولاً ولذلك سُلم منصب الخلافة .. فهو بلا شك مُبتلي .. لانه دائماً يعيش في إطار من المسؤولية والحساب والجزاء ، ويحدد القرآن هذا الأمر واضحاً ، ذلك أن الإنسان لم يُخلق سدى .. بل خُلق لاحقاق هدف وغاية في الوجود وهو الاصلاح والاعمار ومن ثم الحساب على ذلك .. ومن هنا يأتي الحديث عن الأمر الأخير .

والنقطة الثالثة : هي أن الإنسان خُلق للخلود .. ولذلك أصلاً كان مسؤولاً وكان خليفة وكان مُبتلى .. كل هذا لأنه سيُخلد وسيُحاسب ويُجازى على أعمال وهو يختار خلوده أما في النار وأما في النعيم .

وقد جاءت السياقات القرآنية مرتبطة أيما ارتباط بمسألة البعث والقيامة والحياة الجديدة وبتصوير علاقة الإنسان بالخالق وتنبيه الإنسان على الخضوع لهذا الخالق كما مر معنا ، لأجل أن يكون هذا الخلود كما يرضى لنفسه من النعيم .

لقد عملتْ الآيات القرآنية الخمس والستون هذه كلها مجتمعةً عملاً عظيماً في تعريف الإنسان على ذاته وخَلقه وطبائعه ومواقفه وعلاقاته بالكون وخالقه, ليستعين بها ويهتدي في سيره بضوابطها, وشكلت بالفعل خطوط عريضة له وعرَّفته على أبرز سيئاته وعلى أعدائه ووساوس نفسه حتى لا تتركه هشاً سهل الانقياد لغير الحقائق.

ولا يبقى للإنسان بعد تلك التعريفات إلا أن يختار طريقه نحو الخلود أما في نار الحيرة أو نعيم القرار المُهتدي إلى جنات الخلد.

ملحق خاص بالآيات المختصة بهذه الدراسة والتي تحتوي على مُفردة الإنسان ، مُرتبة بحسب مواضيع الدراسة .

بعض الملاحظات :

1 – لا يحتوي الفصل الأول على أي من الآيات القرآنية .

2 – الآيات الوحيدة التي أذكرها وليست تحتوي على مُفردة الإنسان هي آية الخلافة ومؤهلاتها (العلم والفطرة) لما لهم من أهمية خاصة ، وهم أيات سورة البقرة .

3 – ذُكرت الآيات في كل موضوع نوقشت فيه حتى لو تكررت من قبل أو حتى لو لم ترد نصاً في الموضوع وإنما نقاشاً .

الفصل الثاني : مكانة الإنسان الوجودية : الخلافة ومؤهلاتها .

*** الخلافة :**

قال تعالى : **" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ(30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) " (سورة البقرة)** .

ملاحظة : هذه الآيات من ضمن آيات سورة البقرة والتي لا تحتوي على مُفردة الإنسان .

*** مؤهلات الخلافة :**

1 – العلم :- قال تعالى : **" وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) " (سورة البقرة) .**

ملاحظة : هذه الآيات من ضمن آيات سورة البقرة والتي لا تحتوي على مُفردة الإنسان .

وقال تعالى : **" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) " (سورة العلق) .**

وقال تعالى : **" الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْأِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) " (سورة الرحمن .**

2 - الفطرة :- قال تعالى : " **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) " (سورة البقرة) .**

ملاحظة : هذه هي آخر آية ترد من ضمن آيات سورة البقرة والتي لا تحتوي على مُفردة الإنسان .

وقال تعالى : " **وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) " (سورة يونس)** .

وقال تعالى : " **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار (8) " (سورة الزمر) .**

و قال تعالى : " **فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) " (سورة الزمر) .**

وقال تعالى : " **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) " (سورة فصلت) .**

وقال تعالى: " **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً (67) " (سورة الإسراء)** .

الفصل الثالث : خلق الإنسان : بين قبضة الطين ونفخة الروح .

*** قدوم من العدم وبداية من الطين :**

قال تعالى : " **وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67) " (سورة مريم) .**

*** الشيء المذكور :**

قال تعالى: " **هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان) .**

وقال تعالى: **" أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) " (سورة يّس) .**

قال تعالى : **" خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) " (سورة النحل) .**

<u>* النطفة :</u>

شرحت كلمة النطفة باعتبار وجودها في آياتي يس والنحل في الموضوع السابق لكن الآيتين سيأتي شرحهما وافياً في مواضيع الفصل الرابع .

قال تعالى : **" فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) " (سورة الطارق) .**

و قال تعالى: **" هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان) .**

<u>* النطفة الأمشاج :</u>

قال تعالى : **" إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) " (سورة الإنسان) .**

<u>* قبضة الطين : * سلالة الطين :</u>

قال تعالى: **" الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9) " (سورة السجدة) .**

وقال تعالى: **" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) "(سورة المؤمنون) .**

<u>* من صلصال من حمإ مسنون :</u>

قال تعالى: " **خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) " (سورة الرحمن)**

وقال تعالى : " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ " (26) (سورة الحجر) .**

<u>* بين البشر والإنسان :</u>

قال تعالى: " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(29) " (سورة الحجر).**

وقال تعالى : " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) " (سورة المؤمنون) .**

وقال تعالى: "**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) " (سورة السجدة) .**

وقال تعالى : " **خَلَقَ الإنسان (3) " (سورة الرحمن) .**

وقال تعالى: " **عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) " (سورة العلق) .**

وقال تعالى : " **فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ (5) " (سورة الطارق) .**

وقال تعالى " **إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) (سورة الإنسان) .**

وقال تعالى : " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13) " (سورة الاسراء) .**

<u>* نفخة الروح :</u>

ويأتي الحديث عن نفخة الروح متعلقاً بسياق الآيات التي ذَكَرَتْ مُفردة الإنسان كما مر معنا في كل سورتي الحجر والسجدة .

<u>* الإنسان في أحسن تقويم :</u>

قال تعالى : " **وَلَقدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أنْشَأنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) " (سورة المؤمنون) .**

وقال تعالى : " **لقدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أسْفَلَ سَافِلِينَ (5) " (سورة التين) .**

وقال تعالى : " **الَّذِي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأبْصَارَ وَالْأفْئِدَةَ قلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9) " (سورة السجدة) .**

<u>* الأمانة بين المجاز والحقيقة :</u>

قال تعالى : " **إنَّا عَرَضْنَا الْأمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأرْضِ وَالْجِبَالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وَأشْفقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إنَّهُ كَانَ ظلُوماً جَهُولاً (72) " لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غفُوراً رَحِيماً (73) " (سورة الأحزاب) .**

<u>* توجه جديد في تفسير الأمانة : عود على بدء :</u>

يأتي الحديث عن هذا التوجه ضمن مجموعة من الآيات السابقة في سورة الحجر والمؤمنون وآية الأحزاب والتين ومناقشة نفخة الروح وتسوية الإنسان .

<u>الفصل الرابع :</u>

<u>* الإنسان في دائرة الصراع :</u>

قال تعالى : " **وَلَقدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أقرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) " (سورة قّ) .**

<u>* عدو الإنسان المبين :</u>

قال تعالى : " **خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) " (سورة الرحمن) .**

وقال تعالى: " **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)** " (سورة يوسف) .

وقال تعالى : " **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (53)** " (سورة الإسراء) .

وقال تعالى : " **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29)** " (سورة الفرقان) .

وقال تعالى : " **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16)** " (سورة الحشر) .

<u>* الإنسان المسؤول : طبيعته وطبيعة حياته :</u>

قال تعالى : " **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً (28)** " (سورة النساء) .

وقال تعالى : " **أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)** " (سورة النجم) .

وقال تعالى : " **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)** " (سورة النجم) .

وقال تعالى : " **يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6)** " (سورة الانشقاق) .

وقال تعالى : " **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)** " (سورة البلد) .

<u>* موقف الإنسان من خالقه :</u>

قال تعالى : " **إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)** " (سورة العاديات) .

وقال تعالى : " **فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) " (سورة الفجر).**

وقال تعالى: **"وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) " (سورة إبراهيم) .**

وقال تعالى " **وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ (66) " (سورة الحج).**

<u>* جدل الإنسان وعنجهيته :</u>

قال تعالى : " **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54) " (سورة الكهف) .**

وقال تعالى : " **خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) " (سورة النحل) .**

وقال تعالى : " **أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) " (سورة يّس) .**

<u>* طبائع في خلقه : الهلع والعجلة :</u>

قال تعالى : " **إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) " (سورة المعارج) .**

وقال تعالى : " **خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) " (سورة الأنبياء) .**

<u>* الإنسان الهلوع :</u>

قال تعالى : " **إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً (19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا**

عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) " (سورة المعارج) .

وقال تعالى : " وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) " (سورة هود) .

وقال تعالى : " وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً (83) " (سورة الإسراء).

وقال تعالى : " قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً (100) " (سورة الإسراء) .

وقال تعالى : " لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) " (سورة فصلت) .

وقال تعالى : " فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ (48) (سورة الشورى) .

وقال تعالى : " كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) " (سورة العلق) .

<u>*** الإنسان العجول :**</u>

قال تعالى: " خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) " (سورة الأنبياء).

وقال تعالى:"وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً(11)"(سورةالإسراء)

ملاحظة : ذُكرت الآيات التالية هنا مرة ثانية اجمالاً وقد شُرحت بالتفاصيل في مواضيع أخرى .

و قال تعالى : **" وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) " (سورة يونس) .**

وقال تعالى **: " وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً (11) " (سورة الإسراء) .**

وقال تعالى : **" وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً (67) " (سورة الإسراء) .**

وقال تعالى: **" وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) " (سورة الزمر).**

وقال تعالى : **" فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) " (سورة الزمر) .**

وقال تعالى : **" لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49) " (سورة فصلت) .**

وقال تعالى : **" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) " (سورة فصلت)** .

<u>* أقوال الإنسان وحساباته وعلاقتها بالآخرة :</u>

قال تعالى : **" أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) " + " أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) " (سورة القيامة).**

وقال تعالى : **" يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) " (سورة القيامة) .**

وقال تعالى : " **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) " (سورة البلد) .**

وقال تعالى : " **وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (66) " (سورة مريم) .**

وقال تعالى : " **فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) " (سورة الفجر) .**

وقال تعالى : " **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) ...... يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) " (سورة البلد) .**

وقال تعالى : " **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) " (سورة الزلزلة) .**

<u>* المواجهة :</u>

قال تعالى : " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13) " (سورة الإسراء) .**

وقال تعالى : " **" يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) " (سورة القيامة) .**

وقال تعالى : " **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) " (سورة النازعات) .**

وقال تعالى : " **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) " (سورة الفجر) .**

<u>* إرادة الإنسان وشدة كفره :</u>

قال تعالى : " **بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) " (سورة القيامة) .**

وقال تعالى : " **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) " (الزخرف) .**

وقال تعالى: " **قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) " (سورة عبس) .**

وقال تعالى : " فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) " (سورة عبس)

.

وقال تعالى : " **وَالْعَصْرِ(1) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) " (سورة العصر) .**

<u>* وصية الخالق للإنسان :</u>

قال تعالى : " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) (سورة العنكبوت) .**

وقال تعالى : " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) (سورة لقمان) .**

وقال تعالى : " **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(18) " (سورة الأحقاف) .**

<u>* النداء الأخير :</u>

قال تعالى : **" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) " (سورة الانفطار) .**

وقال تعالى : **" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) " (سورة الانشقاق) .**

مراجع الكتب :

(1) التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية ، تأليف الدكتور محروس سيد مرسي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى سنة 1988م.

(2) نحو فلسفة عربية للتربية ، د.عبد الغني عبود ، د. عبد الغني النوري .

(3) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، د.نبيل السمالوطي ، دار الشرق الطبعة الثانية سنة 1984 .
(4) في التربية وعلم النفس ، اختلاف المفاهيم ، المؤلف طلال العتريسي مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، الطبعة الأولى ، بيروت أيلول 1994 .
(5) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، د.عبد الوهاب المسيري ،دار الفكر المعاصر ،الطبعة الأولى نيسان (أبريل2002 م) .
(6) عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة ، تأليف الشيخ عبد الله نعمة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر الطبعة الثالثة1988 م .
(7) مقدمة ابن خلدون – اعتناء ودراسة أحمد الزعبي – شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع .
(8) التفكير فريضة إسلامية, تأليف عباس محمود العقاد, الطبعة الأولى,المؤتمر الإسلامي.
(9) النفس البشرية عند ابن سينا : نصوص جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها الدكتور ألبير نصري نادر ، دار المشرق الطبعة الرابعة.
(10) المعرفة والنفس و الألوهية في الفلسفة الإسلامية والمدارس الفلسفية الأخرى ، محمد رضا اللواتي ، دار الساقي ، الطبعة الأولى 1994 .
(11) إنسانية الإنسان : تأليف رالف بارتون بري ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي مؤسسة المعارف 1989م .
(12) بين التصوف والحياة ، تأليف عبد الباري الندوي ، مكتبة دار الفتح ، الطبعة الأولى 1963م .
(13)تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ، تأليف محمد لطفي جمعة ، المكتبة العلمية .
(14) التصوف بين الإفراط والتفريط ، الدكتور عمر عبد الله كامل ، دار ابن حزم الطبعة الأولى 1422هـ 2001م .
(15) دراسات في التأصيل الإسلامي لعلم النفس تأليف صالح بن إبراهيم الضبع.

(16) أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، الدكتورعبد الصبور شاهين ، الناشر مكتبة الشباب.
(17) الإنسان والكون، د. مرتضى أبو سمرة ، الطبعة الأولي ، 1989م.
(18) القرآن وقضايا الإنسان تأليف الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ، 1982.
(19) استخلاف الإنسان في الأرض ، نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية تأليف الدكتور فاروق أحمد الدسوقي ، الطبعة الثانية 1406هـ-1986م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، مكتبة فرقد الخاني، الرياض.
(20) صحيح ابن حيان ، المؤلف محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، الجزء الرابع عشر دار النشر مؤسسة الرسالة، بيروت 1414هـ-1993م، الطبعة الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط .
(21) كتاب آدم عليه السلام، من قصص القرآن، البهي الخولي.
(22) علم النفس التربوي في الإسلام ، تأليف د. يوسف القاضي ، ود. مقداد يالجن .
(23) العقيدة من خلال الفطرة في القرآن (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) تأليف آية الله جوادي آملي ، ترجمة دارالصفوة ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى 1415هـ – 1994م.
(24) فطرة الله التي فطر الناس عليها تأليف د. احمد حسن فرحات ، دار البشير ، عمان 1407هـ-1987م.
(25) الإسلام والإنسان ، د. حسن صعب .
(26) الإنسان في القرآن الكريم ، عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية صيدا- بيروت.
(27) خَلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد على البار ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الحادية عشر 1430هـ - 1999م .
(28) الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر، الدكتور عبد الغني عبود ، دار الفكر العربي.
(29) مفاهيم قرآنية حول حقيقة الإنسان، تأليف الدكتور فاروق أحمد الدسوقي ، المكتب الإسلامي – بيروت ، مكتبة فرقد الخاني – الرياض ، الطبعة الثانية 1406هـ-1986م.

(30) إحياء علوم الدين ، للإمام علم الأعلام وحجة الإسلام العلامة محمد أبي حامد الغزالي الجزء الثالث ، دار الخير.
(31) صورة الإنسان في الحديث النبوي الشريف ، الدكتور كامل حمود ، دار الفكر اللبناني بيروت .
(32) كيف نتعامل مع السنة, معالم وضوابط, د. يوسف القرضاوي, المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيرندن- فرجينيا, الولايات المتحدة الأمريكية, الطبعة الثانية 1411هـ-1990م.
(33) غرائز النفس البشرية وأمراضها ومنهج الإسلام في طبيعة النفس البشرية في القرآن الكريم ، تأليف د. مرسي شعبان السويدي .
(34) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب ، دار الشرق 1415هـ-1995م .
(35) الإنسان والشيطان الدكتور فاروق الدسوقي ، المكتب الإسلامي ، مكتبة فرقد الخاني الرياض ، الطبعة الثانية 1406هـ- 1986م .

مراجع التفاسير وكتب الأحاديث والمراجع اللغوية :

(1) تفسير الشعراوي ، عمر متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم التجارية .
(2) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة الإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادي ، الجزء الأول ، دار إحياء التراث العربي.
(3) التحرير والتنوير، سماحة الإمام محمد الطاهر بن عاشور ، للدار التونسية للنشر تونس ، 1984م .
(4) مفردات ألفاظ القرآن تأليف العلامة الراغب الأصفهاني تحقيق صفوان عدنان داوودي دار القلم دمشق/ الدر الثانية ، بيروت ، الطبعة الثانية 1418هـ – 1997م.
(5) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار تأليف محمد رشيد رضا ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(6) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء الأول ، دار الشروق ، الطبعة الشرعية الخامسة عشرة، 1408هـ-1988م.

(7) صحيح ابن حيان ، المؤلف محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، الجزء الرابع عشر دار النشر مؤسسة الرسالة، بيروت 1414هـ-1993م، الطبعة الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط.
(8) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان الطبعة الأولى 1417هـ-1997م ..
(9) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة 1417هـ - 1997م .
(10) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تأليف العلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات .
(11) سنن الترمذي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر.
(12) سنن الترمذي محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، تحقيق احمد محمد شاكر وآخرون ، الجزء الخامس ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
(13) تفسير الأساس في التفسير تأليف سعيد حوى ، المجلد السادس ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .
(14) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، المجلد الثامن ، دار الكتب العلمية ضبطه وحققه علي عبد الباري عطية .
(15) لسان العرب ، تأليف الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، المعروف بابن منظور الأفريقي المصري الأنصاري ، دار صادر ، بيروت .
(16) الدر المنثور في التفسير المأثور وهو مختصر ترجمان القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان .
(17) تفسير القرآن العظيم للإمام إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ، دار إحياء التراث العربي 1969م .

(18) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الخفاجي على تفسير البيضاوي الأمام أبى سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبد الرزاق المهدي.

(19) التفسير الكاشف ، محمد جواد مغنيه ، المجلد الرابع ، دار العلم للملايين، بيروت.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

شكر 2

إهداء 3

المقدمة 4

الفصل الأول : 11

الطبيعة الإنسانية : نظرة سريعة في إتجاهين 12

مدرسة التحليل النفسي 13

المثالية اليونانية 15
الفلسفة المسيحية 16
الفلسفة الطبيعية...16
المذهب الماركسي...18
الإنسان المادي المجزأ 20
العلوم الإنسانية في الفكر الإسلامي 26
الفلسفة الإسلامية 28
التصوف 32
منظومة متراصة 38
الفصل الثاني : 40
مكانة الإنسان الوجودية : الخلافة ومؤهلاتها 41
مؤهلات الخلافة 59

الموضوع **الصفحة**

العلم 59
الفطرة 72
الفصل الثالث : 92
خلق الإنسان : بين قبضة الطين ونفخة الروح 93
دعوة للتأمل 93
نظرة على الأطوار 94
قدوم من العدم وبداية من الطين 96
الشيء المذكور 100
النطفة 105
النطفة الأمشاج 111
قبضة الطين 114
سلالة الطين 115
من صلصال من حمإ مسنون 120
بين البشر والإنسان 123

نفخة الروح 131
في أحسن تقويم 139
الأمانة بين المجاز والحقيقة 146
توجه جديد في تفسير الأمانة 154
عود على بدء 158
الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع : 161
رؤية متكاملة للإنسان : 162
الإنسان في دائرة الصراع 162
عدو الإنسان المبين 175
الإنسان المسؤول : طبيعته وطبيعة حياته 193
موقف الإنسان من خالقه 212
جدل الإنسان وعنجهيته 221
طبائع في خلقه النفسي 230
أ - الإنسان الهلوع 234
ب – الإنسان العجول 271
أقوال الإنسان وعلاقتها بالآخرة 280
المواجهة : الإنسان أمام نفسه يوم القيامة 302
إرادة الإنسان وشدة كفره 316
وصية الخالق للإنسان 336
النداء الأخير 353
الخاتمة 359
ملحق خاص بالآيات القرآنية 362
المراجع 378
الفهرس 385